

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مكتبة نوميديا 78
Telegram@ Numidia_Library

بدر زمانه

رواية

مبارك ربيع

بَدر زمَانه

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً: موكيالي بيروت - ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٣

مبارك ربيع

بدر زمانه

رواية

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

ثم كائنات مائية دقيقة ،
ما تكاد تلمسها حتى تتفتت بين أصابعك ،
فما عليك إلا أن تترك لها حد السكين ترقاه ،
ثم ترفعها إليك في أناةٍ وهدوء .

(عن فكرة لجون شتاينبك)

سمعوا لي يا حضار   بجاه النبي المختار
قصة مروية في الاجفار   للناس والفهما
قصة البارح واليوم   بدر الزمان ما عليه لوم
عينيه حرمت النوم   لا شين فيه لا ذماما
مللي شاف الشر   والدس في العباد والغدر
قلبه تما تكدر   فين صحابه الكرما
« زاهور » وحشي مسكين   عينيه دمعت في الحين
قال له : يا ولدي الحنين   انس من بالك الرحما
السيف وحده البتار   يرد الظلمة نهار
يفتك بمن هو غدار   ما تبقى في القلب ندامى
قال له : يا نعم الصديق   في الشدة والضيق
لسانك بالحق نطيق   ما بقات علينا ملاما
الطريق على صعيب   اشحال من حبيب وحبيب
ما بقا بيجي ولا يجيب   قتلوه الظلما

ـ ما الأخبار ؟
ـ أخبار ؟
ـ أخبار أحمد ؟
ـ لا جديد
ـ لا جديد ؟
ـ صافي . . . يعني يحاكم .
ـ والله مهزلة !

* * *

ـ سمعت ؟
ـ ايه ؟
ـ وتعرف ؟
ـ أحمد
ـ ما له ؟
ـ مقبوض .
ـ لا ؟!
ـ نعم ، إسالني أنا .
ـ قل .
ـ مهزلة والله !

***

ـ سمعت ؟
ـ إيه .
ـ رأيك ؟
ـ القضية جد . . . والله أعلم .
ـ المحاكمة ؟
ـ طبعاً ، ملف كامل .
ـ شيء مضحك .
ـ قل مُبك .

ـ كيف . . . كيف . . . !

* * *

ـ هل يزار ؟
ـ الآن ، طبعاً .
ـ كيف حاله ؟
ـ ففف . . .
ـ معنويته كيف؟ سيئة ؟
ـ تسأل عن الظاهر أم الباطن ؟
ـ ففف .
ـ عجائب . . . الدنيا عجائب . . . مهازل وفضائح وعجائب !

* * *

ـ حكموا عليه ؟
ـ طبعاً .
ـ مسكين .
ـ كلنا مساكين .
ـ فينك يا الحق ؟
ـ اخرجللزنقة وسول !
ـ مهزلة .

* * *

ـ الحبس للرجال .
ـ إيه . للرجال . . . ولكن احمد فأر . . . فريخ . . . واقف معك عينه في الأرض وقلبه يرعش !
ـ كل شيء مكتوب .
ـ مهزلة .

* * *

البئر عميقة بلا قرار ، غورها الظلام ، تبدو في الطوفان المائج الهادر الذي يقترب سفينة النجاة الوحيدة . أطلُّ على الغور المظلم . لا أجد القوة للهبوط ، ألتفت خلفي وإلى الجهات الأربع . . . يتهددني الطوفان الهائج المكتسح الذي تبدو أمواجه البعيدة جبالاً هادرة ، ويقترب . لا أدري كيف أمد يدي للحبل المدلى في البئر ، والذي هو مربوط بشيء ما ، على فوهة البئر في مركزها ، لا أتبينه ، أوْ لَم أنتبه إليه . أشرع في النزول ، في الحبل عقد تسهل العملية . أنزل عقدة عقدة ، الحبل متين ومريح ، أتوسط الغور المظلم كما يحدث عندما نتقدم في الضباب الكثيف ، كلما بلغتُ بقعة عمّها بعض الضوء ، الأمر إذن سهل ، وسفينة النجاة تؤدي إلى النجاة فعلاً . . . البئر جاف كما في علمي ويؤدي في قعره إلى مخرج بعيد . . . الحبل متين يتحرك بفعل ثقلي وحركتي ، يتلوى قليلاً حول رجليّ وبينهما . . . حول كل كياني ، يتلوى وبضغط ، أحس به أملس رخواً بين يدي ورجلي يعلو ويهبط ، بحركة رئيسية كحركة التنفس ، بالفعل يتنفس الثعبان بين يدي ورجليّ ، يتلوى عليّ ، أستغيث فزعا . يرتفع صوت الطوفان فجأة هادراً ، يصل الماء فوهة البئر ، يندفع الموج علي من فوق . . . أنتظر سقوطه علي . . . أستغيث . . . أستغيث . . . أفيق مستغيثاً مبللاً بالعرق والبول والفزع . . .

زهروية تضمني إليها مطمئنة . لا تخف يا ولدي ، تقرأ باسم الله الرحمن الرحيم . . . أعوذ بالله من أهل المكان ، الظاهر منهم والخفي . . . صوت والدي الحاج مهدي ينتهي إلي من الغرفة الأخرى ، سائلاً ما بي . ترد أمي بصوت خافت ، أن لا شيء . أحمد كالعادة . نفس الجواب كالعادة . تكرر باسم الله الرحمن الرحيم . احس بعرقي ينشف وأنفاسي تهدأ شيئاً فشيئاً .

تتحسس زهروية تميمة ولد سيدي بن علي في عنقي . تقرر أن تجددها عنده منذ الغد ، أتبين الهدوء الذي يحيط بي ، محمد وعبد الله

نائمان بهدوء يتنفسان بـرتابـة ، كل تحت غـطائه فـوق سداري . نصف عبد الله عار ، تقوم زهروية لتسوي عليه الغطاء ، ثم تنهضني لتـأخذني معهـا إلى غرفـة الحاج مهـدي . أبي يسأل : مـا له ؟ لا شيء . حلمت كالعادة . . .

* * *

فطومة فتاة حينا . رفيقتي وبنت الدرب . تكبرني بسنة أو سنتـين على الأكـثر ، لعبنا كثيـراً في فناء الـدار وفي الزنقـة وحدنـا أمـام الأبـواب ، ومع أطفـال الحي . يتيمـة الأب . تبنتهـا (حبيبتهـا أمهـا) العاقر وجاءت بها من القرية في القماط كما تقـول وتكرر في أوقـات كثيرة لتبرهن على حسن تأثيرها في البنت المترعرعة دون مشاكل . زوج حبيبتها أمها سي سليمان صديق والدي الحاج مهدي ، يعمل مع أمين الجزارين في المجزرة الرئيسية للمدينـة ، يبدأ عمله مـع الفجر ، وينتهي منـه قبيل منتصف النهـار ، منتصف النهار بـالضبط يكون قـد عاد ، وطـاف عـلى بعض المعارف والأصدقاء يناولهم مـا أوصوا عليـه من طحال أو كبـدة أو قلب أو كرشة وأمعاء . . . يفضلونها سليمة طرية ومن يد صديق عارف معروف . بعد جولته هذه ، ينام سي سليمان مباشرة دون غداء ، لأنـه يكون مكتفياً بما نال من شواء متنوع من مختاراته لـدى أصحاب المجـامـر المصـطفين أمـام المقاهي والمـطاعم المقابلة للمجـزرة مباشـرة . وجلستـه المفضلة تبدأ بعد المغرب ، حيث يقبل أصدقاؤه وفيهم جملة من مـدخني الكيف ، يشتغـل بعضهم في إعـداد الكـومـة وتقـطيعهـا بـالشفـرة عـلى اللوح ، بينـما سي سليمـان ينشـر أطـايبـه أمـامهم من أمخـاخ وألسنـة وملوج ، يعـالجها بـالأفاويـة والتقليـة الأوليـة والتقليب ، قبـل أن يسلم أمرها أخيراً إلى راضية زوجته ، أو إلى ربيبته فطومة تراقب طهيها ، دون أن يفـتر هو نفسـه عن إلقاء النصـائـح والتـوجيهـات ، والتحـرك نحـو الطنجرة آونة بعد أخرى ليطمئن على تطبيق تعليمـاته ، ويلقي نـظرة الى

لعر الطنجرة ، لتفعم روائحها المنعشة المكان عند إزالة الغطاء ، تدغدغ الحس ولحرك كوامن الشهية .

والدي الحاج مهدي كان لـه مقام بـين الجماعـة ، صداقـة قديمـة تـربطه بسي سليمـان وجوار وتعـامل ، إذ قلّما كـان والدي يشتـري لحماً ونحوه من حوانيت الجزارين . فالبـركة في سي سليمـان ، وقلما تحاسبـا على الثمن إلا وعلا الحلفُ بينهما ، كل يريد أن يؤثر صاحبه . ورغم أن أحدهما كان ملاكا للمسكن (الحاج مهدي) والآخر مكتـرياً ، فلم تكن لذلك من أثر على عـلاقتهما . لم يكن الحـاج مهدي مدخناً للكيف ولا لغيره عندما أدركت ما حولي . ربما كـان على شيء من ذلـك وأكثر قبـل الحج ، لكنه منذ وعيت وأنا أصغر أبنائه من زهروية كان مهتـماً بحانـوته في بيع وكراء الأواني النحاسية للطبخ في الأعراس والمنـاسبات الكبيـرة . رغم أن الحاج مهدي لم يكن مدخن كيف ، فقد كان حضوره ضرورة في مجلس سي سليمـان ومأكـولاته الـطيبة . أعلم الآن ان والـدي كان من النوع الذي تصدق عليه كلمـة « غلاق » عنـدما وعيت ، لا يـدخن ولا يشرب لكنه محب للأكل ، ولم يكن حبه ذاك ليذهب سدى أو بدون أثـر في رأيي . إذ بقدر ما كنت أميل إلى الالتصاق بـالأرض متداخـلاً بعض في بعض طولاً وعرضاً ، كأني أخشى شح المكان ، كان الحاج مهـدي ، ما شاء الله قامة وسمكا وصوتـاً . كنت أصغر اخـوتي ، كلنا ضعـاف ، لكنني كنت نموذجياً في ذلك ، وعندما كنت أسمع حكايات العفـاريت ، كنت أتصورها على عظمـة الحاج مهـدي ، مضخمة أكـثر بعض الشيء مـع مميزات النـار المتطايـرة من المنخرين والعينـين ، والقدرة عـلى كلمتان فيكـون ، وما شـابه ذلـك . كنت أيضاً أدرك المفـارقة بـين خلقة الـوالد العظيمة ، والأعواد المركبة بلحمة نحافتها زهـروية أمي . عنـدما وعيت بعض الشيء تساءلت : كيف يحتمل هيكلها الغش هيكله الذي ما شاء الله . . . كما تساءلت كيف تحس أو تعير أهتمامـاً شجرة الجميـز العتيدة أمي راضيـة لضآلـة وزن سي سليمان ، الـذي كـان لا جسـد لـه رغم

طيبات الأكل التي يسهر عليها بنفسه . أين تصرف المخاخ والمملوج والكلى وأصناف الكبد والطحال . . . إن لم يكن ثم حبل سري منه إلى شجرة الجميز تلك ؟ تساءلت بوعي فيما بعد ، وربما كان التساؤل أزلياً في داخلي : ألم تكن زهروية أولى بسي سليمان ، والحاج مهدي أولى براضية ؟! مقارنة بسيطة عادية جداً ، وكنت أفضل أن اكون ابن سي سليمان ومن زهروية على كل حال .

* * *

شمس محرقة جميلة ، جو رائق،زملاء نلعب الكرة . كرة سحرية رائعة منمقة بألوان زاهية على شكل أهلة أتى بها أخي الأكبر محمد ، تطير هنا وهناك ، يطير معها محمد يعلمنا طريقة اللعب ، يحتج وينهر . أحياناً تطير الكرة ناحيتي لا أحسن إمساكها ، تتجاوزني ، أجري وراءها ، تغيب في حفرة صغيرة ، ربما كانت بئرا قديما طمر وامتلأ ، حتى أصبح قعره بقد قامتي أو أقل . الكرة تتمايل في مركز القعر ، وأنا أطل عليها . هذا يضيع الوقت ، وصوت أخي محمد يستحثني . بنصف قفزة أقف على حافة الفوهة . . . الكرة تتمايل في القعر الجاف القريب . بقفزة بسيطة أرتمي إلى القعر . لا تغيب قامتي في العمق ، أجرب أن أرى الآخرين وأنا واقف في القعر أراهم فعلا ، الحافة حدو أذني عندما أقف ، أنحني على الكرة حيث كانت في المركز لا أجدها . أدور حولي . . . لا أجدها . أرفع رأسي . أخي محمد يقف على الحافة ، يطلّ علي يشجعني ويحثني على البحث . . . هنا . . . إنها هناك في الركن . . . هنا . . . محمد يحرك صخرة عاتية يسد بها الفوهة علي . أستغيث في الظلام . . . أصرخ . . . أستغيث وأختنق . . . أفيق .

كل شيء قسمة ونصيب ، كل شيء في مكانه منذ الأزل . كنا وسطا فوقنا فوق وتحتنا تحت ، من عين الدار في الوسط كنت بالصدفة

واقفاً ، أطل على التحت وأبصق محاولاً في كل مرة أن تنزل البصقة على مكانها الذي تحدده إرادتي على الزليجة البيضاء أو السوداء . تف . تف . تف ، تفو . . . هكذا حميت معركة التباصق من فوق ، ومن تحت منذ قصدت فطومة للغارة ترد العدوان بمثله . كنت في موقع القوة من أعلى وكانت في موقف الضعف في الأسفل بالصدفة ، لكنها كانت عنيدة قوية ومرحة ، إذ سرعان ما أخذتنا حمية المعركة بعد جد البداية ، وتحولت ضحكاً وعبثاً وهرجاً هز أركان الدار من تحتها ومن فوقها ، وأمسكت برقبة كل منا في لحظة واحدة من الخلف أيدي لا ترحم ، علا صياحنا متوازيا وكان ذلك بداية تآلفنا .

* * *

انزويت أرتعش كفأر في ركن مصيدة . أعلم جرمي وأعلم أنه عظيم ما دامت الجارة تعلي صوتها على هذا النحو . تشير بأصابعها إلى إبنها الضحية الذي شاركني في العبث الصبياني عن طواعية ، سمعت زهروية تحاول أن تخفف منذرة إياي بشديد العقاب ، والمرأة لا تقتنع ولا تكتفي بالوعيد ، فللكرامة جرح لا يستهان به ، أخيراً تقبل عليَّ زهروية تمسكني من حيث ما اتفق وأنا أرتعش ، تصفع وتركل وأنا أتكور على نفسي متدحرجاً هنا وهناك ، لم أشعر بألم ، لكني كنت خائفاً مما هو أكثر . . تتفرج الجارة وابنها عليّ برهة ، ثم تمسك بأمي تحاول إيقافها عن ضربي ، فيزداد غيظ هذه علي ويزداد وعيدها قبل أن تنصرف مع جارتها المهدئة ، وتجلسان معاً لشرب الشاي ، أظل أرتجف ، وأنا أسمع زهروية تحدث جارتها بخوفها علي من الحاج مهدي إذا سمع بالحادث . تطمئنها الجارة ، وهل يصح ؟ عبث صبية يجب ألا يتكرر والسلام ، والكلام من الفم للقبر .

أفلتت من العقاب الحقيقي ، ضرب زهروية ليس مؤلما بالمرة . لكنني بدأت أشعر بأنني أحياناً أسير عارياً . إنهم يعرفون عني كثيراً

بسبب حماقة هذا الصبي الأخرق الذي كان مصدر الاقتراح ومصدر الشكوى بعد ذلك . لم يكلمني الحاج مهدي بشيء ، ربما لأنه لم يسمع بالأمر ، وربما سمع لكنه آثر الصمت لأنه لا يليق أن يتحدث عنه بأي شكل من الأشكال ، وقد تأتي المناسبة ليجمع لي كل الحساب ، ويواجهني به دفعة واحدة . وإذا كان لم يعرف بعد ، فقد يعرف في يوم ما ، يحدثه بذلك زوج الجارة مثلا ، او زهروية نفسها في تساهل منها ، باعتبار أن الحادث قد تقادم . ليتها تعلم أن أي تساهل منها في إفشاء مثل هذا السر ، مهما كان السبب ، أشد علي من القتل ذاته . شعرت بعدها بأن كل ضحكة أو إبتسامة من عبد الله أو محمد ، من أي كان كبيراً أو صغيراً تعني شيئا مفتضحاً من أمري .

* * *

حدث فجأة بلا مقدمات ولا انتظار ، شحمة أذني بين طرفي سبابته وإبهامه ، وأنا أرتعش أشعر بالذنب دون أن أحدده بالضبط ، أنت أيها الفأر المخادع ؟ اسمع . أنا عالم بما تفعل ، وإذا بلغني عنك شيء في المرة القادمة ، فسآخذك الى الشرطة بيدي وأطلب منهم سجنك ، اتسمع ؟ وهناك تكون آخرتك . زهروية إذن فضحتني ولم تحترم السر والعهد ولا تدري ما سببت لي من الم .

لم أصدق أنني أفلتت بجلدي رغم شدة القرص على أذني ، هذا ليس عقاباً ، خشيتي الكبرى مما قد يأتي فيما بعد ، خشيتي من نفسي ذاتها ، أن تخدعني وتغرر بي ، وتكون تلك آخرتي .

دخل الحاج مهدي وقت الغذاء دخولاً عادياً إلى الدار ، نزع البلغة من رجله ، ورمى بكتلته على السداري . نزع العمامة وطلب الغذاء بعد لحظة ، كنا على المائدة القصيرة المستديرة ، زهروية تقابل الحاج مهدي ونحن الثلاثة بينهما ، محمد أكبرنا وعبد الله الأوسط ، وأنا أصغرهم احمد . كنت أفضل أن أتناول غذائي على انفراد مع أخويّ ، وأفرح بذلك عندما تسمح به الظروف ، لكن أبي يؤكد أننا يجب أن

نأكل معه على مائدة واحدة ليراقب طريقتنا في الأكـل . باسم الله ، لا تبدأ قبل الأكبـر منك . لا تمـد يدك لما ليس أمامـك . لا تترك مكـانك وتنهض قبـل الأكبر منـك ، لا تسرع ، لا تكن آخـر من يرفـع يـده عن الطعام . اجعل اللقمة معقولة . . . أمي كانت تنوب عنه في تبليغ هـذه التـوجيهات . لم يسبق لحـد الآن أن « أكلت » العقاب عـلى مخالفـة مثل تلك الأوامر ، لا لأني أحمد ، أصغر الأبناء ، بـل لأني رأيت غيري ينـال جزاءه بما يكفي ليجعلني مؤدباً أكثر من اللازم ، وربما حظيت بالتنويه . انتهت عملية الأكل . كانت زهروية أول من قام رافعا صحن الطعـام ، وبدأنا نغادر مجالسنا ، حين أخرج أبي من شكارته العريضة حبلاً مفتـولاً من الـدوم الأخضر الغليظ ، نـاوله لأخي محمـد طالبـاً منه بلطف وشبـه همس أن يضعه في سطل ماء ، ويتركه فيه لحين الحاجة .

* * *

اليـوم عـطلة مـدرسيـة بـالنسبـة لمحمـد وعبـد الله عـلى الأقـل . أمي ، خرجت في زيارة معتادة لخالتنـا ، منتصف النهار يقتـرب ، ونحن الثلاثة نرتع في الغرف بألعاب صبيانية ، دخل الحاج مهدي في وقت غير مألوف ، فاجأنا ، جمدت حـركتنا ، دخـل إحدى الغـرف ، وما لبث أن نـادى إليه محمـداً ، طالبـاً منه أن يحضـر إليه حبـل الأمس . أغلق باب الغرفة عليهما بقوة من الداخل ، سمعنا حديثـاً ، لم نتبين منـه إلا صوت استرحام ، ثم أخيراً صراخاً متعالياً ، وانهيال سوط ، دهر طـويل مضى قبل أن يتميز السوط وحده عن الصـراخ الذي اختنق . كنت وعبـد الله في الغرفة الأخرى نرتجف لا ندري أي مجهول ينتـظرنا ، ولا أي مجهـول يحدث في الغرفة المغلقة وربما فكر عبد الله في أن يقفز ويطير الى أمه عند الخالة ، يعود بها ، لكنه بلا شك قدر عـواقب مثل هـذه المغامـرة ، فلم يفعل . فتح الحاج مهدي أخيـراً باب الغـرفة ، تنحنـح مرارا ، وخـرج دون أن يمسنا بسوء . ظللنا جامدين فترة طويلة بعد خروجه ، ثم تحـرك عبـد الله نحو البـاب الفـاصـل يغلقـه ، ودلف إلى الغـرفـة الأخـرى ،

تبعته . رأينا محمداً مجرداً من ثيابه إلا السروال ، وجلده متورم بخطوط متقاطعة من أثر انهيال الحبل المفتول المبتل .

* * *

عرفنا السبب ، عرفته بشكل غير متكامل ، من الجو السائد ، زهروية رغم علاجها لجراح محمد ، لا تخفي تأنيبها له وأنه يستحق ، القضية مدبرة من قبل الحاج مهدي ، وتعود لأسبوع كان يراقب فيه جيوب محمد أو على الأصح زوايا جيوبه ، في غفلة عن الجميع يفتش عن بقايا التبغ ليتأكد من أن ابنه الأكبر أصبح مدخناً . يقول محمد إنه بمجرد أن دخل الغرفة على والده ، وأغلق الباب ، بادره الحاج مهدي طالباً منه أن يريه أطراف أنامله .

تبين صفرتها ولم يملك محمد إلا أن يعترف ، وإلا أن يؤكد توبته ، وأن يعلن اقتناعه بأن انحرافه الى التدخين هو سبب فشله في الدراسة ، وهو يكرر فصل الشهادة الابتدائية للمرة الثانية . . . هي إرادة الحاج مهدي تصدر اعترافات غير مجدية من فم محمد وإبتدأ العقاب . . .

* * *

كنت منبطحاً على بطني ممدد الرجلين واليدين كالمصلوب ، عبد الله ومحمد كل من جهة ، يهويان علي بخيوط من الصوف طويلة كأنهما يضربانني ، الخيوط تتلوى في الهواء قبل أن تصيبني ، كأنها تقاوم ، لكنها بعد المحاولات تصيبني بخفة لا تؤلم بقدر ما تمتع . أتظاهر بأنني أتألم ، أصيح وأستغيث ، لكنهما لا ينفكان عن الضرب الوهمي . . . أتبين أن الخيوط ليست صوفية كما كنت أعتقد . لا يعبث بها الهواء والمقاومة ، وإنما هي حبال مجدولة قوية تترك أثرها خطاً دموياً على ظهري . مقاومة تشد يدي ورجلي الى الأرض وتجبرني على أن أبقى مصلوباً مسلماً ظهري العاري للجلادين . . . أتصفح بعيني الاثنتين الخطوط الدامية المتقاطعة على ظهري ، والألم يبرح بي . . . أستغيث وأفيق مذعوراً . .

* * *

حال محمد لا تصلح . لا يتقدم خطوة في دراسته مطلقا . صراعه مستمر مع الابتدائية . سمعت زهروية تنذر والدي بأنه سيقتله دون فائدة ، إذا استمر معه في العقاب . ولم تذخر جهداً أثناء ذلك في أن تبخر وتعقد التمائم لمحمد ، عسى أن يرتفع عنه الضرر الخفي من الجن والناس . سمعت الحاج مهدي يتهم نفسه بالتساهل الذي أفسد محمداً عليه . لكنه لن يستسلم . ولا بد أن يعيد الضال إلى طريقه . وفي يوم ما . . . في يوم أكيد سيدفنه حياً !

* * *

المسألة لا مجاز فيها . حق صارخ أن يدفن الحاج مهدي إبنه حياً ، حقا انه لم يفعل ذلك ، ولكنه قرر أنه سيفعل ذلك في يوم ما ، وهو سيفعل ذلك بلا مجاز أو مبالغة ، وتتم العملية على النحو التالي بالضبط : عندما يستغرق الإبن في النوم ، أو عندما يتأخر في نومه صباحاً ، يغريه الكسل والدفء ، لا حاجة إلى إزعاجه باللوم ، أو جر الغطاء أو إفراغ كوب ماء على وجهه أو حتى ضربه . . . لا حاجة إلى كل ذلك . ليترك نائما هانئاً . وليأت الحاج مهدي بالآجر والأحجار والاسمنت والجفنة والملاسة ، وليعجن عجينة البنائين ، وهكذا يأخذ الآجر والحجر واحدة ، واحدة ، بهدوء ، ويغلق فراغ الباب ،ويملسه على النائم أو النائمين ! حتى ضوء النهار لن يزعج النومة السعيدة الهانئة ، ولا ضوء المصباح ،لأن يد المعلم قد قطعته من الخارج .أتخيل ماذا يحدث للنوّم في الداخل ، فأراهم يتقلبون يمينا وشمالاً كأصحاب الكهف يقوم أولهم أن كانوا ثلاثة مثلنا بعدما شبع نوماً ، يقوم ليشعل النور ، فلا يجده ، يتوجه إلى الباب ليفتحه فلا يجده ، يبحث عن النافذة فلا يجدها . . . كل شيء مغلق مصمت . وإذن هو في قبر !؟ مات حقا وهو الآن يستيقظ أو هو في قبره أو يحلم حلماً مزعجاً . يتلمس أخويه ، يوقظهما ، يتحركان ، يخبرهما ، يقومان ، يستنتجان مثل ما استنتج . ما العمل ؟ وأين هم الآن ؟ كل شيء يوحي بأنهم في قبر حقيقي أو في

حلم مزعج . يتصارخون ، يبكون ينتحبون ، بجنون . . . وكائنات الظلام تزحف حولهم شيئاً فشيئا من كل ناحية ، تمد خراطيمها الخشنة ، تطير أمام وجوههم ، تصفر في آذانهم تفتح أفواهها النارية ، فتبدو أجوافها كأعماق البراكين . . . تتقدم رويداً رويداً نحوهم ، تمد ألسنتها . لا تأكلهم ، وليتها تفعل ذلك دفعة واحدة ، إنما تظل تتحرك في كل اتجاه كأنها لا تتحرك ، ولا يراها أحد . الإحساس بوجودها يملأ المكان والزمان . . . يتهافت الثلاثة بعضهم على بعض ، يتماسكون ، يتلوون تتصبب أجسامهم عرقا ، ويبدأ الاختناق يعصر صدورهم واحداً واحداً ، هنا قد يلين الحاج مهدي لتوسل الجيران والأهل . ليفتح القبر كما لان أحد اسلافه ممن قاموا بالعملية أصلا وتركوها ذكرا خالداً . وقد لا يلين ، ليحقق أنه خير خلف لخير سلف ، فيظل من بالداخل فريسة للاختناق المتأني وكائنات الظلام المرعبة .

***

مرارا سمعت الحاج مهدي ، يتساءل مع زهروية عن الطريقة المثلى ليرد بها محمداً الى صوابه ، ولتأديب غيره أيضاً إذا خرج عن حدود الاستقامة في أي شيء ، ولم أكن أتصور غير طريقة الدفن يمكن أن تكون ناجعة ومهولة ، كل ليلة قبل أن أنام ، كنت أظل أرنو الى ستارة الباب وحركتها ، أحاول أن أرى ما وراءها من حركتها مع الهواء الخفيف ، حتى لا يكون هناك بناء ماهر يغلق فراغ الباب بالإسمنت والأحجار ، وعندما أفيق ، كان أول شيء أبادر إلى التأكد منه هو زر النور وفضاء الباب .

***

أخيراً وجد الحاج مهدي طريقة لعلاج حال محمد ، لم تكن منتظرة لمن يفكر في طريقة الدفن ، بل كانت خفيفة جداً . الولد محمد لا حظَّ له في الدراسة ، ضربه الانس أو الجن أو سكنه عفريت أزرق . . . المهم لاحظ له ، ولا خير يرجى منه في دراسته . وطريقة العلاج يجب

أن تحمل في طياتها تحقيراً لشأنه لا بمضمونها بالذات ، بل بطريقة معاملته على أساسها ، منذ اليوم لن تعرف طريقك إلى المدرسة يا محمد . طريقك منذ اليوم إلى درب بنجدية عند المعلم عبد السلام النجار لتكون متعلمه وعبده طول الحياة . على محمد الآن أن يفيق باكراً حوالي السادسة ويقطع المسافة الطويلة من درب الشرفاء إلى درب بنجدية راجلا . المعلم عبد السلام صديق قديم للحاج مهدي ، لا يرد له طلباً ، ويعرف فوق ذلك قصد صديقه من ائتمانه على ابنه ، ويعرف أكثر من ذلك ما يصلح للمتعلم الجديد ويصلحه .

* * *

ما كرهت شيئًا في حياتي رغم طاعتي ، كما كرهت شراء الشفنج ، والشفنج ذاته رغم اشتهائي لأكله . كانوا يتندرون علي بذلك في ساعات ابتهاج الأسرة ، فيتراهنون علي إن كنت استطيع أن آتيهم به ، طبعاً كنت أحاول أن أتملص من المهمة متعللاً بوجود عبد الله ومحمد . حانوت الشفنج مكان مفضل لوقوف عمي بوشعيب البوليسي ، كلما كان في فراغ ، يقف مزهوا ببذلته وقامته يتدخل في كل شيء . . . في مشاريع النزاع ، بل يخلقها خلقاً بين الناس ليقضي فيها ، أما نحن الصغار ، إن غفلنا عن أنفسنا ومررنا بقربه فهو يوم الحساب ، من أنت أيها العفريت ؟ اسمك ؟ ابن من ؟ ألى أين تسير ؟ ماذا تحمل ؟ ولماذا تتهاون في حمل هذا الشيء ؟ أتريد أن تسقطه عمداً أيها العفريت ؟ أهذا ما بعثوك من أجله ؟ ماذا تمضغ ؟ ماذا في جيوبك ؟ من أعطاك هذا ؟ . . . وينتهي الموقف بوعيد يشمل الماضي والمستقبل إن عدت لفعل السوء (أي سوء ؟ !) ، وبمشروع صفعة أو ركلة على المؤخرة ، من حذائه الغليظ ، يتعمد ألا ينفذها بدقة بالغة . عندما نتظلم يضحكون علينا . لأن عمي بوشعيب والله هو الوحيد الذي يعرف كيف يحد جماحنا ، وكيف يجعلنا نحترم آباءنا وواجباتنا .

* * *

كنـا على العشـاء ، انتـظر بفـارغ الصبـر أن تنتهي هـذه العمليـة الشاقة ، كل شيء سائر في طريقـه المرسـوم ، حتى أبي بدأ يـطلق بعض الحكايات المسلية . الجو رائق . حتى محمد ربما شارك ببعض ملاحـظات حول معلمه الجديد ، بعد استئناسه به . . حكايات عن مراوغته لزبنائه أو حذقه في صناعته . فكـرت بأن شيـطاناً مـا قد عبث بعبـد الله الذي كان متعقلا مثلي تقريباً ، لا يكاد يتكلم تقريباً ، لا يكاد يتكلم إلا إجابة لـطلب أو سؤال . شيطانـا جعله يقول وهـو يسمع أذان العشـاء يتناهى الينا ونحن على المائدة : « عشانا الليلة حـلال » أدركت أن الشيطان هـو الـذي أنطقـه بذلـك من نتيجة قـوله الـذي أطلقه في عفـويـة وبـراءة . زهـروية تنـظر إليه شـزراً مستنكـرة : لمـاذا يقـول هـذا ؟ يجيب متـابعـاً ببراءته ، لأننـا لم نكن نسمع الأذان وقت العشـاء ، كنا نتعشى قبـل أو بعـد الأذان . الشيطان أنـطقه ولا زال ينـطقه . وهـل عشاؤ نـا حرام في الأيام السابقة ؟ هل كنا نسـرقه ؟ هل كنـا نزهق الأرواح من أجله ؟ هـو الشيـطان الحرامي الـذي أنطقـه بهذه الأفكـار . . . احسست بصـدمتـه تصيبني ، شعرت برعشة الخوف والحساب كأنني صاحب القولـة ومتلقي النتيجة . لم يعلق الحاج مهدي بشيء ، ربما لأن تدخل زهروية كان قوياً ورادعاً كافياً ، وربما ـ ويا للهول ـ أن تدخله سيكون بشكل آخر في وقت آخـر ، رأيت عبد الله وقـد تغير لـونه إلى صفـرة الموت ، حنجـرته تعلو وتهبط ، كأنه في بلع متتابع مستمر ، أحسست برغبة في البكاء ، واكتناز حاد في الحنجرة .

* * *

ظللت أترقب أن يحل العقـاب بعبد الله ، وأتخيـل كيف يكون ، لكنه لم يحدث في الوقت الذي انتظرته ، ولا بالكيفيات التي تخيلتهـا ، أو رأيتهـا في حلمي . رأيت مائـدة شهية عليهـا من أصناف الحلوى مـا لذ وطـاب منظرا ومـذاقاً . مصفـوفة مـرصوفـة يتقاطـر منها عسـل العيد ، وتتوزع ناتئة على رؤ وسهـا وحافـاتها حبـات اللوز ، أمد يـدي بتهيب ،

تمتد مع يدي يد عبد الله ، أصيب ويصيب، يزول التهيب، شرعنا بالالتهام كأننا في سباق ، أشرق بالكم والكيف . ألوح بيدي باحثا عن شيء استنجد به ، ماء أو ضربة على القفا ... عبد الله ينظر الي ضاحكاً بشكل هستيري مغيظ. كانه لا يقدر جدية الوضع ، يمد يده بقطع الحلوى يدفعها في فمي المتخم وحنجرتي المحشوة ، يزيد من أزمتي تعجز يداي عن دفعه فيستمر في عبثه السخيف القاتل إلى أن تزهق روحي وأفيق .



دخلت الكتَّاب وكانت فطومة بجانبي ، نلعب في الزنقة وفي الدار والكتَّاب . دخلت المدرسة وتخلفت هي . ظلت بعدي تختلف الى الكتَّاب ، ثم توقفت لتبقى بالبيت . سي سليمان يعرف أن البنت لدارها رائحة ، فلدارها تهيأ ، وفوق ذلك فحبيبتها أمها راضية أحوج إليها،عجز أصاب راضية زوجة سي سليمان قعد بها عن الحركة إلا ما كان يسيراً .

مع ذلك ظللنا نلعب ، أحياناً نصعد إلى السطح ، وأحياناً في صحن الدار السفلى أو الوسطى . تكبرني بسنة أو سنتين على الأكثر لكن من يراها وكيف تترعرع ، يدهش ويتعجب ... في الثامنة ... في العاشرة... في الثانية عشرة... عجب كيف تستدير يوماً عن يوم ، وكيف يتورد الخدان، ويتحفز الصدر، كنا نلعب ألعابنا المفضلة... الغميضة والقفيزي... تدرجنا... لعبنا لعبة العرس... قليل من فتات الخبز ، وأحياناً تراب النمل المفتول إذا وجد ، يمثل الكسكسو ، وقطع من مكسرات الفخار أو الزجاج ... تمثل الأواني ... وبقايا القشور تمثل اللحم والخضر ... أحيانا نضع وسائد تمثل المدعوين ، وأحياناً تمثلهم مجرد أسماء وأماكن وهمية فارغة ، تدرجنا إلى لعبة الدرس ، وأنا معتز بالصف الرابع في المدرسة الابتدائية . بدأت أحكي لها من الكتاب المصور متفننا في الحقيقة والخيال ، دهشت ... أعجبت ... أحبت أن

تتعلم . بدأنا في الدروس ، لم تعد لعبة العرس تثيرنا ، لعلها رابضة متخفية في ركن ما ، لكننا بدأنا نعرف رعشة متبادلة ، وتمنّعاً من طرف لطرف ، وحباً في إطالة الجلسة لا حد له ، واهتماما بالتفاصيل : تقول قالت عمتي . . . أقول قلت لأبي . . . عملت . . رأيت . . . كل شيء من طرف له استجابة مباشرة عند الطرف الآخر . . . له قيمة كونية ، كنا وحدنا المصيبين في هذا العالم الجاهل الذي يستحق الانتقاد والسخرية والضحك ، فعلا بدأنا نضحك ، نضحك كثيراً ولأقل سبب ، لأقل بادرة وأقل انتقاد من أحدنا لهذا العالم الآخر . تدرجنا بالفعل إلى لعبة الضحك . ووصلنا إلى الإستحياء والخجل . . . في الحادية عشرة أو الثانية عشرة تكبرني بسنة أو سنتين على الأكثر ، لكنها تنمو وتستدير وتتفتح على نحو لا يصدق ، أضاف إليه روعة تباطؤ كياني في التفتح وتضاؤله . غرقنا في الاستحياء والخجل ، وأنا في زهو الشهادة الابتدائية ، كنت انصرف إلى السطح ، أتعمد أن أرسم على ورق المربعات قلوباً تخترقها سهام ، وصفحات وجوه متقابلة في مشروع قبله ، وشعوراً مهدلة ، وسيف فارس على جواد يسعى لإنقاذ حبيبته ، تسألني ، أشرح بالرمز والإيماء عن هذا السهم في هذا القلب المتفطر وعن قطرات الدم المنسابة منه . . . وعن هذا الحبيب . . . و . . . تقاطعني وقد تركز تورد خديها خجلا وتبتعد متمتمة : حشومة . أسرع إليها معتذراً شارحاً المقصود ، تنصت ، تستمع ، نبدأ الرسم بطلب منها ، كانت تحب أن أرسم لها ، لا أرسم إلا قلباً تخترقه السهام ومشروع قبلة وسيف حبيب يخلص حبيبته . تقبل كراسة الرسم هدية ثمينة مني ، تخفيها تحت حزامها وتنزل بها من السطح . أبقى وحدي مخدّراً في عالم أطياف وألوان ومشاعر . . .

يهزني صوت الحاج مهدي قوياً : أنت تضيّع وقتك تترك الدرس وتلعب . أقفز مفزوعاً ، أحتمي بالجدران ، مقلّصاً نحو الارض من هيكلي المتواضع . تستمر لعبة الرسم والدرس والخجل ، يتخللها صوت

أمي هامساً إليّ : « بركة من الطلوع للسطح . البنت كبرت . . . هي امرأة وانت رجل » .

أهي حقاً بنت ؟ ! قاموس جديد ! وامرأة ؟! لم تكن فطومة بالنسبة لي بنتاً فأحرى أن تكون امرأة ! وأنا رجل ؟! كنت لها أحمد . وكانت لي فطومة فقط لا غير ، وبما يحمله الاسمان البسيطان من استحياء وخجل ورسم وضحك وعرس ، البنت كبرت . . . رجل . . . امرأة . . . لهجة غريبة ، لغة عارية جداً ، ومفزعة كوزن ريشة سي سليمان إلى أمي راضية ، كريشة زهروية لحجم الحاج مهدي ، لغة لا تحتمل رسماً ولا ضحكاً . . . لا أحمد ولا فطومة . . . لغة لا تفهم ولا هي قابلة للفهم .

لا يطول الأمر ، أبي يشرح هذه اللغة بوضوح بعد فترة وجيزة من ذلك . يتزوجها ! نعم ، فطومة يتزوجها الحاج مهدي !

***

صحن دارنا التحتية تحيط به الغرف الثلاث ، يحده الباب الفاصل الداخلي ، لكنه أشبه بالسطح الفوقي تحده جدران بقدر نصف قامة متوسطة ، تتقاطع على فضائه حبال الغسيل بعضها فارغ وبعضها مليء تتدلى عليه قطع أثواب متنوعة . الحاج مهدي وزهروية متقابلان منكفىء كل منهما على ركبتيه ومرفقيه ، يمارسان لعبة الخرفان المتناطحة . لعبة غير مؤلمة . قبل أن يتماس رأساهما يتباعدان ضاحكين ، ويقبلان كل منهما على الآخر ، بهدوء وتؤدة ، يحكان الرأسين قليلاً ، ثم يتضاحكان . كنت واقفا عند مدخل السطح على الدرجة الأخيرة . فاجأت الموقف ووقفت متردداً جامداً ، لا يمكن ان اتقدم ولو تحركت راجعاً لانتبها إلي . حيرة وارتباك لا مزيد عليهما . ركبتاي تثاقلان بحملي ، ولو تهاويت لانتبها . لو لم أفعل شيئا إلا أن أبقى هكذا ، لانتبها إلي أيضاً . لو كان هناك سحر يذيبني لكان حلاً موفقاً للموقف . يتمازحان بالتناطح على الركبتين . لعبة ساذجة أشعر أنها محببة إليَّ الآن كما كانت محببة إليّ

في الماضي والمستقبل . فجأة تلتفت صوبي زهروية بوجه فطومة ، تنظر إلي مقطبة معبسة عن هذا التجسس ، تشير إلى الحاج مهدي ، يقطب وتتقد عيناه شراً ، يظهر قرناه الملتويان المدببان ، ويحبو نحوي منذراً تتبعه فطومة وزهروية التي انضمت إليهما أخيراً بقرنين ملونين !

* * *

الحاج مهدي لا بد أن يكون على صواب ، الزاوية التي أشعر منها بالحرج ليست زاوية الخطأ والصواب ولا من قاموسه ، ألمي من أحمد وفطومة ، لهما ، بهما لا أكثر . الخطأ والصواب ، الصالح وخلافه ، المفيد وخلافه ، قاموس آخر . سمعت أن سي سليمان رحب بالزواج منذ تلقاه من شفتي حميمه الحاج مهدي ، سمعت أيضاً أن خالة فطومة ، الجميزة الضخمة المنخورة ، حبيبتها أمها راضية زوجة سي سليمان ، ما قبلت إلا لعجزها ، ولأنها فكرت بأن من الخير لها وهي في حالة العجز ، أن تتزوج فطومة على القرب لتحظى برعايتها . سمعت أيضا أن الحاج مهدي بالمقابل يهيء لحميمه سي سليمان زواجاً مماثلاً يعوضه عن عجز كتلته الرصاصية ، وسمعت أن عجز أُمي راضية إمرأة سي سليمان هو السبب ، وأنهما سي سليمان والحاج مهدي ، اغتنما حالة ضعفها لتمرير المشروع . . . وأن زهروية ذات شخصية ضعيفة وإلا ما حصل . . .

حاولت أن أقتنع بأن الحاج مهدي لا يكون على خطأ .

مأتم كبير ، الحزن يجلل الناس ، يعتصر قلوبهم . الجنازة لحبيب عزيز ، أعز من الأم والأب والإخوة ، أعز من النفس ذاتها وكل ما في الدنيا . الحاضرون جميعاً يشعرون بأنهم فقدوا كل شيء بفقدانه ، حتى حياتهم ذاتها ، كأن الفقيد لهم العون والنصير والمحسن والمعالج ، ينتظرون إتمام المراسيم الدينية لحمل الجثمان العزيز . أشعر بالحزن يعنصرني اعتصاراً . ما من شك في أن الميت يمثل بالنسبة لي ما يمثل للآخرين ، لكن لوعتي كما أشعر بها لا تحتمل أن تكتم ، تريد أن

تنفجـر ، مع اعتقـادي بأن إعـلان الحـزن والبكـاء والنحيب ليس عـين الحزن الحقيقي . الحزن الأصيل الكريم اللائق بالكرام يتطلب التجمـل والصبـر . كل الحـاضرين كـرام أوفيـاء ، كلهم متجملون صـابـرون ، ولكنني الوحيد الذي أتفجر انفجـاراً بالضحـك . أحاول أن أمنعهم من النحيب والعويل ، فلا أستطيع إلا أن أضحك وأهتز ضحكاً . النظرات إليّ شـزراء ماقتـة مستهجنة ، ولكني لا أملك إلا أن أهـتز ضحكـاً بـل أطـرب وأرقص ، يتحرك الكـرام الأوفياء المـاقتون نحـوي صفـاً واحـداً بخـطوات وئيدة منتـظمـة . خـرقت كـرامتهم . خـرجت عن إجمـاعهم بحمـاقتي . . . فيتقدمـون بخطى وئيـدة صامتـة متوعـدة ، أقهقـه دائـماً متـراجعـاً عنهم . أعلـم أن الجـدار خلفي سيـوقفني ، وأعلم أن مـوقفي شـذوذ غريب حتى عن مشـاعري وإرادتي ، يتقـدمون ، فجـأة يبـرز من بينهم وجه الحاج مهدي ، يمد يده يصفعني حتى أغيب في الجدار !

* * *

زهروية . . . تتألم صامتة أم تحتج ؟ تشكو إلى المعارف تؤلبهم على الحاج مهدي أم تعارك بذاتها وتناهض ؟ تهدد بمغادرة الـدار مع أولادهـا أم تتمسك بالبقـاء ؟ . . . كل ذلـك كان . أكـثر من ذلك كـان . فعلته زهروية بهيكلها النحيل الذي أصبح في قـوة عفاريت سيـدنا سليمـان . أين يكمن هذا الصراخ في هذا الكيان النحيل ؟ أي مصدر فيه تنبع منـه كل هذه الدموع ؟ أي قاموس قذر ساكن تفجر ؟ أية قدرة على احتمـال الضـرب والرفس وصنـوف الإذلال ؟ كل ذلـك كـان ، أكـثر من ذلـك كان ، الحاج مهدي وهو مـا شاء الله . . . لا يمكن أن يخـطىء ، وأكثر من ذلك أن يتراجع وفوق كل هذا وذاك لم يبق ما يمكن التراجع عنه .

* * *

استسلمت زهروية . . . لا . . . بـل قل قـاومت بالاستســلام ، الحرب الآن باردة عـوان بين الضـرتين . لم أر فـطومة منـذ زواجها فهي حبيسة الفوق في غرفة من غرف دار سي سليمان ، أفـرغت لها وفـرشها

الحاج مهدي ، زهروية في التحت . القطيعة تامة مطلقة بين الفوق والتحت . الحاج مهدي وحده ، ما شاء الله ، يستطيع أن يتحرك بينهما . يمر علينا في الدار التحتية يسأل بقوة وجمود أو يتفحص الوجوه . قد يحلو له أن يداعب أحدنا (إلا زهروية) مداعبة أشعر بأنها مخيفة مرعبة ، ثم لا يلبث أن يصعد إلى عروسه ، ليلهُ كله لها . جزء كبير من نهاره ما عدا ما يتطلبه الحانوت ، فكره . . . ماذا ننتظر ؟ الحرب باردة عوان بين الضرتين ، رأيت العجب وما يسخطُ : ذلة زهروية تصطنع العناد ، استسلامها يتصنع المقاومة . أصبحت أكثر اعتناء بنفسها ، كحل وسواك مستمر ومشط . . . كانت تتصدى له كلما دخل دون أن تكلمه ، أو تصدر إليه خطاباً ، في غير إتجاه كأنها تكلم الجدار . . . لا يستجيب غالباً إلا بأن يضع إحدى القفتين لنا ، ويصعد بالأخرى إلى الدار الثانية مردداً إن كيدهن عظيم !

* * *

في كيانها النحيل أضحت قوة عفريت . . . أذكر جيداً كيف رماها أكثر من مرة بركلة قاتلة . كانت ترتمي وتعيد ، يعيدها بقوة دفعه ، لكنها تتحامل وتعيد لِتهاجم متشبثة بالأثاث الذي كان يخرجه من الدار الفوقية الى عربة كارو عند الباب لنقله إلى داره الجديدة ، كنت وعبد الله لا نملك إلا أن ننزوي في الركن ، نمسك بأمنا لمنعها ، لكنها تنفلت منا كمجذوبة لتعاود وتعاود . كانت تمانع في أن يخرج الأثاث أو ينقل لأنه « رزق اولادها » والحق أن سعرها كما ارتسم في ذهني إذ ذاك ، وكما بدا لي فيما بعد ، كان خوفاً من أن يفلت الحاج مهدي من يدها دفعة واحدة ، فلا تعود تراه . على الأقل في الوضع الذي اعتادته الآن كانت تعرف متى ينام ويستيقظ ، متى يكون ومتى لا يكون . . . وتستطيع أن تعترض سبيله ولو لم تكلمه ، وتستطيع أن توجه إليه بالرمز والتلميح بعض ما تشاء من خطاب . . . وربما هناك ما هو أهم ، أنها تستطيع وهو على القرب منها أن تؤمل في تأثير السحر والتعاويذ ، لاعادته إليها .

أما هو فقد اكترى شقة فوق حانوته ، لعل جلسة مجموعة سي سليمان العتيدة أصبحت تضايقه في داره ، أو لعل تصفية حساب ودي بينه وبين سي سليمان ، تقضي بأن يترك لحميمه فراغاً لإتمام زواجه المنتظر أيضاً . . . وذلك بعد أن ارتحلت امرأة سي سليمان إلى الأبد مريحة ومستريحة .

أنهكت أخيراً ، تدخل الجيران أمسكوا بها . كنت وعبد الله جامدين لا نستطيع حتى البكاء ، أقدّر الآن أن الحاج مهدي كان يعطف عليها في سره . أقدّر الآن أن رجالاً من أمثال الحاج مهدي وفي زمانهم كانت قلوبهم من الاتساع لمحبة أكبر ما يمكن من البشر ومن النساء خاصة ! إطمأن الحاج مهدي الآن إلى حياة جديدة ، شقته ومتاعه وعروسه بعيداً عن العيون المحاسبة .

* * *

غاب الكحل والسواك والمشط ، غاب التصدي وحتى التحمل . الحاج مهدي الآن بعيد لا تستطيع زهروية أن تبدو أمامه تخاطبه أو تقاطعه ، تذكره بوجودها ، كان يحضر إلينا باختياره وبإستمرار ، لكن دائماً باختياره ، بقفته . . . يناديني أحياناً أو ينادي أخي عبد الله ويعطيه نقود المصروفات ليسلمها إلى أمنا . لم تكن زهروية تهتم بتسلم النقود بل ترميها جانباً إلى حين . كثر عندها الصديقات المواسيات والمشجعات ونعمنا عبد الله وأنا في عالم من الحرية فريد . لا رقيب . لا تخوف . لا صوت يرتفع مرعباً ولا شبح ، لا أمر ، بل ولا تكليف بشيء حتى عن طريق التلطف ، حتى أكبرنا محمد ، بدأ عليه أثر النعمة الجديدة . بدأ تأخره المسائي يطول تدريجياً ، إلا أنه بالمقابل كان يحاول أن يمارس علينا بعض السلطة أثناء النهار ، عندما نلتقي أثناء الغداء ، يسألنا عمّا نقرأ ، ويتوعدنا إن تخلفنا في الامتحان . الحق أن توعداته كانت تثير في الرجفة وفي عبد الله أيضاً بلا شك ، لا لأنها صادرة عنه ، بل لأنها تذكرنا بتوعد الحاج مهدي وصدقه فيما يتوعد به ، ولأنها تجعلنا نتصور أنّ من

الممكن لأخينا محمد إذا أراد أن يكون نذلاً ، أن يتوسل إلى الحاج مهدي بأخبارنا . . . فيما عدا هذا كنا نشفق على محمد ، لأننا نعرف ضعفه الحقيقي ، ولأن لهجته المتوعدة نفسها كانت مترددة خجولة ، ولم تكن مقنعة .

* * *

عرفت فيما بعد أنهم يتربون نخب النجاح والتفوق . نعم لكننا نحن إذ ذاك لم نكن نعرف هذا النخب ، ولا ندري كيف نصرف طاقة الفرحة التي تعتلج بها جوانحنا ، تريد أن تطير بنا لكنها لا نريد على أن تخنقنا . نجحنا في الشهادة الابتدائية . أمامنا الثانوي ، عالم فسيح غامض وأمامنا أيام من الحرية ، حتى الحاج مهدي بدأ متسامحاً ، وقال بلهجة متعالية وهو يمسح رأسي : « هاك : يا الله اخرج . . . تلعب مع اقرانك . . ! » مجموعة من الناجحين وقفنا في الدرب لا نكاد نقبل أن تحمل اقدامنا أرض ، كنا نستمع في تواضع مصطنع لتجارب من سبقونا إلى عالم المدرسة الثانوية ، نظام مغاير في الدخول والخروج . أسماء طنانة لمواد غريبة ، وتصنيف للمدرسين . . . سخرية حيناً وإعجاب حيناً آخر . تسابق وتعاون في إتمام الأحكام والحكايات على المواد والدراسة . . . فجأة يهجم ولد الزياني على الموضوعات : أين نحن وأين يجب أن نكون ؟ في فرحة بالناجحين أم في قاعة موحشة للدرس ؟ هل معنا فلوس ؟. . . معكم فلوس أيها الناجحون ؟ كم ؟ يا الله كونوا رجالاً واتبعوني . . . تبعناه . . . قال : قفوا . كنا في بداية درب البشير ، بنايات صغيرة متراصة من طابق أو طابقين لا تختلف عن غيرها من الدروب إلا في شيء زائد من القذارة والعتاقة والقتامة . أوقفنا عند زنقه يتلكأ فيها بضعة متجولين بخطوات متئدة ، يختالون . أيديهم في أنصاف الجيوب يرنون إلى أبواب مغلقة أو إلى شبابيك مفتحة أو شبه مفتحة . يرمون كلمة هنا وكلمة هناك . قال : أعطوني اثنين منكم فقط . تعال أنت وأنت ، سرنا معه ، يتقدمنا ونتبعه جنباً إلى جنب وفي

تهيب ، فجأة انفتل يسارا ، دفع الباب ، دخل وأشار إلينا بيده دون أن يلتفت . دلفنا . واجهتنا على خطوات أمام الباب . سلم عليها . يبدو أنها تعرفه ، مزوقة الوجه ضخمة . . ما شاء الله ، تنفث الدخان وتمضغ العلكة في آن واحد . سألها عن اسم او اسمين ، سألته عن الفلوس ، قال يا الله هاتوا ، دفعنا واحتفظ بالباقي عنده ، ظللنا ننتظر وهي تنفث وتمضغ وتدندن على كرسي قصير بدون ظهر ، عليه حشية عريضة . ولد الزياني يهمس فينا لنكون رجالاً حقا نختار ما نشاء من بنات . ظهرت واحدة ، ما رأيك أنت ؟ وأنت ؟ كنت متهيباً جداً ، مضى معها عبد الرحيم ، نادت صاحبتنا الضخمة عن أخرى ، زينب . . . أقبلت ، رنت إليَّ القوادة ، غمزت وابتسمت لي ابتسامة عريضة . سرت وراء زينب . أغلقت الباب ، قرصت خدي وقبلتني ، شممت رائحة دخان عميقة مركزة من جوفها . داعبتني مداعبة فاحشة وهي تسألني إن كان معي إضافي من الفلوس . فتشت جيوبي . قرصت خدي مرة أخرى . بدأت تنزع . . . جرتني وارتمت أمامي على السرير . غشيتني الرعشة . تداخلت الأشياء . . بدأت ضجة تعلو في الخارج . . . تقترب وهرج . . . رمتني بعيداً عنها بعنف . . . البوليس لا مك . . . البس . . . البس . . . فتح الباب على مصراعيه ، يملؤه كتفان ضخمان مزرران ووجه مجهم منذر . لا أدري لكياني رأساً من قدم . . . جرها من ذراعها إلى الخارج ، فانصاعت في تذمر . لا قدم لي ولا رأس . . . الحزام وفردة الحذاء اللعين . لا يد لي تمسك ، ولا قدم تثبت . أمسك بي من أذني بقوة كادت تقطعها . . . أولاد الحرام . . . أولاد الزنى . . . هذه هي المدرسة والتربية والاخلاق ؟! حشرنا . بضعة ذكور بيننا نساء ورجال ، عبد الرحيم أيضاً . . . وولد الزياني لا أثر له . صاحبة الدار ترغي وتزبد محتجة تنفث دخانها وألفاظها الفاحشة . . . الشرطيون الثلاثة لا يردون عليها ، لا يعبأون . . . أحدهم فقط ، ذاك الذي دخل علي ، هو الذي كان يتوعدنا بين الحين

والحين مما تقشعر له الأبدان . سيرمي بنا للمجرمين المحرومين من النساء . . . ونرى . . . هذه آخرتكم يا أولاد الزنى . . . . سترون يا أولاد ال . . . وهنا نعرف عمل الرجال حقاً . . . يقعدوننا على أعناق زجاجات فارغة مطلية بالصابون ونشرب البول ، تغطس رؤوسنا فيه إلى الاختناق . . . نتنفس ونعاد . . . ونعاد . . . ! سترون يا أولاد الكلاب أولاد الفاسدات ال . . . ! عبد الرحيم يبكي ، يقبل الأرجل . يستعطف ولا رحيم . لم أستطع أن أجاري . أين الدمع ، أين غاب ، ولسان الاستعطاف أين ؟ والقدرة على التلوي والانحناء ، جمدت والحزام اللعين والفردة لا شيء يثبت أو يطاوع . . . لا بكاء يجدي ولا استعطاف ، لا رد على هدير القوادة إلا وجوه متهجمة في انتظار الفاركونيت. . . أزيزها يتوقف عند باب الدار، الأبواب تصفق. قلوب تطير في كل إتجاه بلا نهاية ، خطو قوي يتقدم ، خيوط وأزرار صفراء تلمع في سماء زرقاء . بركان القوادة يهمد فجأة . صمت تام .

جروهم . كلمة واحدة تحرك همم الشرطيين الثلاثة . . . الحزام الخبيث والفردة اللعينة . . . تتوقف علي النظرة النارية . . . هذي آخرتي . . . اسمك ؟ أحمد . . . أبوك ؟ الحاج مه . . . من . . ددد . . . انفجرت بالبكاء والدموع ولا أدري ما حصل ولا كيف ؟ . . . ارتميت مطوقا ركبتي الضابط متمسكاً بهما تمسك الموت بالموت ! الأشياء تتداخل وتدور أتبين من خلالها صدى صوت خافت بأوامر تصدر الي بفك ربطة يدي

دون جدوى . . . قوى عاتية تجرني . . . لا جدوى . . . تمسك الموت بالموت . . . لا جدوى ولا فكاك فوهة الفاركونيت فاغرة تنتظر ! ضرب بالحديد كالحديد بالمطارق كالمطارق يصيب كعاب يدي . . . قوة تجرني ، عاتية تحاول انتشالي عن ركبتي الضابط . . . لا تمسك الموت بالموت . لا جدوى شبح الحاج مهدي وفوهة الفاركونيت وبركان البكاء والدموع والنحيب كيف تنفجر مرة واحدة بلا توقف ؟ أمر بالصمت والهدوء لا مجيب له ، ركبني ألف عفريت أزرق ، أهتز كمقرور أبكي وأنتحب

وأتمسك . . . تقتلع أطرافي بشدة لا أعى منها . . . يدا شرطي تشدان يدي أخيراً إلى الوراء . . . يتقدم الخطو الثقيل نحوي متأنياً . . . صفرة في زرقة سماء عالية زرقاء تلمع بالنجوم الذهبية تملأ عيني ، والخطو الثقيل المتعد يملأ السمع . فوهة فاغرة . . قعر مظلم وشبح . . . صفرة في زرقة متجهمة جهنمية ، خطو ثقيل في أرض في سماء ، يختلط في رأسي في جوف في نسيج كيان يهتز مقروراً . . . عاصفة قاسية هوجاء يشتعل لها خدي . . . صفعة في لمح البرق . . . السماء الزرقاء تلمع نجومها ببريق خاطف وتعيد . . . نزَّ بولي وأحسست به خيطاً ساخناً ينساب إلى أسفل القدمين . . . رنت في قعر سمعي في عمق عمقه كلمة : اطلقوهم ! طرت ، يداي على الحزام اللعين ، قدم في الفردة وأخرى في الفراغ . . .

* * *

أجري وأجري بلباس العيد الأبيض كأنني في حفلة ختاني أو ذاهب إلى صلاة الجمعة . كل شيء أبيض . . . أجري لأدرك صلاة الجمعة لكني أجري بأكثر مما يلزم لصلاة . . . البلغة في رجلي تعثر خطوي . . . خطوات ثقيلة تجري خلفي كأنها تريد ان تدركني ، أعلم ذلك دون أن التفت ،حذاء ثقيل ورائي ، وأمام عيني أزرار (الحذاء) الصفراء اللامعة على كتفيه . اكتشف أني لا أجري لا أتحرك رغم إزادة الحركة والجري . ركبتاي لا تطاوعان . . . محمد . . . ومع ذلك يظل الحذاء يجري خلفي ليدركني . أمتنع عليه . أشعر به يجرد مسدساً كالسيف ، يمده نحوي وهو يجري . يستطيل السيف ليدركني . . . ويستطيل . . . أشعر بسن رأسه المدبب يقترب من عمودي الفقري ، يكاد يلمسه ، اجري بسرعة خاطفة ، أتحرك الآن بسرعة ، سرعتي مضافة إلى سرعته تسهل عليه أن يخرقني من الظهر إلى البطن ، ويرفعني مبقوراً الى السماء !

* * *

موعد الامتحان الدوري يقترب ، كنت في الأول ثانوي ، عبد الله في الرابعة منه . بضعة شهور مرت على رحيل الحاج مهدي وعروسه . في غرفة الحاج مهدي كانت زهروية مع بعض النساء يشربن الشاي في الغالب . في غرفة زهروية القديمة كنت وعبد الله وصديقين لنا نلعب الورق . كنت وعبد الله مبتدئين نتعلم على الرفيقين . دخل أخونا محمد . أخذ شيئاً من خزانة في الغرفة دون أن ينتبه إلينا أو يهتم بنا ، كان مستعجلاً فيما يبدو لسهرته ، تلكأ عند الخروج واهتم بنا أخيراً ، ليقول :

ـ مزيان . مزيان ، لو كان الوالد شافكم يعمل عرس !! لا أدري ما الذي وقع ، لم أفكر أو أتريث أو أدرس الموقف ، كل ما وعيت أن ردي انتهى ببساطة :

ـ ولو كان شافك أنت ؟!

انصرف محمد على الفور بدون كلمة إضافية . عدنا للعب ، لم أقدر فعل الرد البسيط ولا عبد الله ولا الصديقان ، لكن النتيجة كانت فوق التصور ، نبهني إليها عبد الله من يومذاك ، لم تصدر عن محمد كلمة تنتقد سلوكنا ، حياد تام ومُرض .

* * *

قال الراوي . . . وكان في أقاصي بلاد الشرك ، من ديار العجم قديماً رقعة من أرض الله ، على طرفي الإقليم الخامس والسادس من المعمور ، يقال لها « كغاشي » ومعناها بالعربي « التربة الملحة » أو بلاد الملح أو ما شابه ذلك ، وكان على رأسها إذ ذاك عظيم يقال له شهراموش ، عرف بالقوة والبأس والشدة في الحرب والنزال ، حتى ليروى من أخباره الكثيرة أنه هزم كتيبة كاملة من أعدائه بمفرده في آخر عام من حرب الملح التي استمرت عشر سنوات طوال بينه وبين أعدائه « التراجان » . لقد دامت هذه الحرب سجالاً بين الطرفين طوال سنواتها العشر ، وحاقت الهزيمة بجيش شهراموش حتى أوشك أن يولي الأدبار .

فثارت حمية العظيم . وتملكته سورة مخبول غريبة ، فارتمى إلى الأرض من هودجة الظليل حيث كان يشرف على المعركة الفاصلة ، وامتطى صهوة أدهمه ، وصاح في الكون صيحة اهتزت لها الجبال ، ورددت صداها الوديان ، وهجم على أعدائه بلا درع ولا زرد ، إلا سيفه البتار يشق بريقه الفضاء ، واخترق صفوف التراجان ، يحصد الأجساد حصداً . تتطاير حواليه الرؤوس والأطراف ، وهو يعمل فيها يمنة ويسرة وأماماً وخلفاً كأنه عشرة أشداء ، أو كتيبة كاملة مستديرة ملتحمة على نفسها ، لا يصاب فيها منفذ ولا ثغرة .

قال . . . فسرى الهلع والرعب في صفوف التراجان وانخلعت قلوب أبطالهم من هول ما يلقون ويرون ، فترامـوا إلى كل فـج متخاذلين ، يتسابقون إلى النجاة . . . وانفتل عليهم جيش شهراموش . مستعيداً نظامه وحماسه ، مجهزاً على أجنحة التراجان وقلوبهم . . .

قال . . . كانت معركة رهيبة غاصت فيها الخيل والفرسان إلى الركاب في برك الدماء ، وأوحال الطين واللحوم البشرية ، بلا هوادة أو توقف ، حتى أوشك قرص الشمس على المغيب ، قال . . . عند ذاك تأكد عظيم التراجان أن النهاية محققة على جيشه ، فارتقى قمة جبل كان قد اتخذه حماية لظهره ، وأيقن أن قوة الخصم من عظيم كغاشي نفسه بالذات لا من جيشه . فنادى بأعلى صوته أن يا كلب كغاشي ، يا شهراموش الجبان ، إذا كنت عظيماً حقاً فنازلني صباح الغد !

* * *

قال الراوي . . . أطلت شمس يوم مترددة صباح الغد ، كأنها تختفي وراء السحب تخوفاً وإرتعاباً مما سيجري ، واصطفت جيوش شهراموش ، تقابلها على البعد متبقيات جيوش التراجان ، وساحة القتال ممتدة بينهما تفوح بالدماء المتخثرة ، والأجساد المتراكمة ، والأطراف المتناثرة تحوم فوقها كواسر الطير . وبرز شهراموش مدججاً بسلاحه

يغوص في الفولاذ حتى حافر فرسه الأدهم ، وبرز عظيم التراجان في مثل ذلك على جواد أصهب .

قال . . . وقف الفارسان على بعد متقابلين يترنح بكل منهما فرسه ويختال ، كأنه يستبطىء لحظة النزال . وهلل كل جيش لصاحبه محمساً متحمساً فترة ، قطعتها إشارة من يد عظيم التراجان وعلا صوته ينشد بما معناه :

جبان كغاشي ، أنت مقتول لا محاله
سيفي لم ينب يوماً ورمحي لا تصد أمثاله
عد لبطن أمك أو إلى القبر إن رمت نزاله !

قال . . . وما أتم عظيم التراجان وعيده ، حتى امتشق سيفه ، في لمح البصر ، وحركهُ في الفضاء حركة لمع لها البرق وقصف الرعد وصفرت ريحٌ أطارت خوذ الجند عن رؤوسها !

قال . . . أما عظيم كغاشي فلم يتحرك قيد أنملة أو يتزحزح ، بل هدر صوته أن يا خنزير التراجان :

إني لك اليوم طبيب
لم يمتنع عنه داءُ
إذا لم يسعفك خوف
فالموت عندي دواء
لا تمن النفس بالرجا
حان الحين وحم القضاء

قال . . . وما أتم كلامه ، حتى بسط يده إلى الوراء ، فرموا اليه بعمود رمح ثقيل ، طويل السنان لماع ، وجذب شهراموش إليه لجام الأدهم ، فرفع هذا قائمتيه الأماميتين ووقف على خلفيتيه ، واستقام

الثلاثة على اتزان واحد ماثل ، الفرس والفارس والرمح اللماع الطويل ثم مرق الرمح من يد عظيم كغاشي بأزيز وصفير ماثلاً يخترق الفضاء ، حتى أصاب سرباً من كواسر الطير شتتها أشلاء .

قال . . . ورمى عظيم التراجان سيفه ، وتقدم بفرسه إلى الأمام ونادى خصمه أن أيها الجبان ، أثبت في مكانك إن كنت تقدر ، لأطوح بك إلى الطير ! ثم همز جواده فطار به نحو عدوه حتى إذا اقترب منه ، مد إليه يده ليقتلعه من حزامه عن ظهر جواده ، فإذا به كالجبل الراسخ أو أثبت . . . حينئذ قهقه عظيم كغاشي ، وقال مستهزئاً أن أثبتي أنت يا ريشة الدجاجة . . . قال . . . وأخذ عظيم التراجان مكانه ثابتاً فوق فرسه وكر عليه عدوه بدوره ، في هجمة شرسة ، حتى إذا حاذاه ، ومد يده إلى حزامه ليطوح به ، وجده جلمودا صامدا . . .

قال ، وظل الفارسان يتناوبان الدور دون كلل أو ملل ، ترتفع منهما الصيحات المنكرة ، ويسمع لفرسيهما لهاث وزفير. . . فلما لم ينل أحد منهما مراده ، بسط كل منهما يده إلى الوراء ، فرموا إليه برمح عظيم ، وتقابل الفارسان على البعد ، كل منهما في طرف من ساحة القتال الفسيحة ، وهجم كل على الآخر بصياح مفزع ورمح مشرع في سنه الموت الزؤام ، فلما التقى الرمحان تجاوبت قعقعتهما في الأرجاء ، واهتز الفارسان من على سرجيهما لقوة الصدام ، واختل الجوادان ، ولكن أحداً من المتقاتلين لم يسقط صاحبه أو ينل منه قليلاً ولا كثيراً ، فتابع كل وجهته ، ليتقابلا ويعاودا الكرة من جديد . . .

قال . . . كان يوماً تشيب له الولدان وتضع من هوله ذوات الأحمال أحمالهن في الخدور ، ومضى الفارسان على ذلك ساعات طوالاً لا يعتريهما كلل ، ولا يصيبهما ملل ، فتكسرت الرماح تلو الرماح ، وتجدد السلاح تلو السلاح ، وجنود كل طرف وراء صاحبها تهلل وتحمس بلا فتور ، تنقطع أنفاسها ، خوفاً وترقباً ، وتخفق قلوبها هلعاً وتحسباً ، حتى

جاوز النهار عصره دون جدوى ، حينئذ رمى عظيم التراجان رمحه ونادى أن السيف السيف يا من يأبى إلا أن يموت . . . !

قال . . . تناول كل منهما سيفه ، وصاح بصاحبه وظلا يناوران يهاجم العزم عزماً . وتتقي الحيلة حيلة ، يتلقى هذا ضربة صاحبه ويرد عليها بأصدق منها ، ويكر ذاك بما هو أشد . . . حتى إذا مضت على ذلك ساعات دون أن ينال أحد منهما مراده . صاح عظيم التراجان : أن اثبت لسيفي إن كنت تقدر .

قال . . . ابتعد الفارسان كل عن الآخر بمسافة كافية ، للكر ، وثبت عظيم كغاشي في مكانه صامداً للتحدي ، فكر عليه عظيم التراجان يلوح بسيفه في الفضاء ، تلمع على خديه البروق ، وتتراقص أطياف المنون ، حتى إذا حاذى صاحبه ، هوى عليه بضربة صادقة ، تلقاها بعزيمة السيف ومضائه حتى تطاير الشرر من فولاذيهما المسنون . . . وتناوبا الصمود والهجوم ، كل يثبت بدوره لصاحبه على التوالي حتى أوشكت الشمس على المغيب في يوم ظلت شمسه غائمة أصلاً .

قال . . . حينئذ صاح عظيم كغاشي في صاحبه أن أنزع دروعك ، كما أفعل ، وهاجمني إن كنت تقدر !

قال . . . فبدا كل من الفارسين ينزعان ، ما عليهما من دروع واقية ، حتى بقي كل منهما أعزل عاطلاً إلا من سيفه وثيابه ، وثبت عظيم كغاشي على فرسه متيحاً لخصمه أن يكر عليه .

قال . . . هللت جنود التراجان محمسة متحمسة،وهي لا تشك في أن صاحبها سينال من عدوه في هذه الفرصة السانحة ، فيعاجله بالضربة القاضية ، لما تعرفه فيه من شدة البطش ، وقد أصبح جسم عدوه مفتوحاً لسيفه . . . وهللت جنود كغاشي كذلك محمسة متحمسة موقنة بأن النصر حليف صاحبها ، وهو البادىء بالتحدي والمبادر ، إلى هذا

النوع من النزال ولما تعرفه فيه من خفة وقوة عزم .

قال . . . وكر عظيم التراجان على خصمه بعزم وإصرار يزن موقع الضربة القاضية على خصمه ، تكون نهايته ونهاية اليوم . . . قال . . . وتلقى عظيم كغاشي الضربة بمضاء السيف ، ولكن الحد انزلق على الحد في آخر لحظة فلم يفلت من موت محقق إلا بأعجوبة انحبست لها أنفاس القوم هولاً .

وجاء الدور على عظيم التراجان فثبت في مكانه وكر عليه عظيم كغاشي كرة جمع فيها كل حزمه وعزمه صائحاً صيحات مدوية ، حتى إذا حاذى صاحبه ناور بسيفه كأنه يريد أن يبقر في الصدر ، ولكنه نزل بضربة مرقت في الفضاء كاللمح الخاطف ، وتجاوز عدوه خفيفاً ثم توقف والتفت فإذا عظيم التراجان لا يزال ثابتاً في مكانه كالجلمود يقول بصوت كأنه واهن من شدة السخرية أن حاد بك الخوف عن هدفك بإجبان . . . فيرد عظيم كغاشي بنفس اللجهة الواهنة من شدة السخرية : ولكنك مشطور ، فتزحزح !

قال . . . فتحرك عظيم التراجان فإذا به وفرسه ينشطران شطرين إذ كانت الضربة قد مرقت فيهما بمضاء وعزم قاصمين !

قال . . . وما رأت جيوش كغاشي ذلك حتى ارتفعت اصواتها بالتهليل ، وشرع عظيمها سيفه متجها نحو أعدائه ، تتبعه جنوده يعملون السيوف والرماح في فلول التراجان المندحرة ، حتى أرخى الليل سدوله ، وامتنعت الرؤ ية والمتابعة .

قال . . . وانصرف جنود كغاشي على أضواء المشاعل يجمعون الغنائم ، وانقلبت معسكراتهم اعراساً فانصرفوا إلى أفراحهم يغنون ويرقصون ويشربون ، حتى لعبت بعقولهم الخمرة وهد أجسامهم النوم والتعب . . . وفي الهزيع الأخير من الليل هزهم شيء كالرعد الشامل من كل فج ، أحسوا له كأن الأرض تميد تحت أقدامهم ، والسماء

تنقصف فوق رؤوسهم ، فانطفأت مشاعلهم وهلعت قلوبهم وانقطعت أربطة خيولهم وساد ظلام حالك وغبار لا تبرق فيه بارقة .

وما ان أشرق الصباح حتى فوجئوا بمشهد غريب: رأوا عظيمهم على صهوة جواده فوق قمة جبل لم يكن لهم به عهد من قبل في مكانهم ، تفصله عنهم هوة سحيقة غريبة لم يكن لها وجود !

قال . . . فلم يعرفوا لذلك سبباً ولا معنى ، ولا دروا كيف يتصرفون ، وبينما هم في حيرتهم تلك ، وارتباك أمرهم نادى مناديهم : ويحكم يا أبطال كغاشي وصناديدها هذا عظيمنا قاتل الأعداء وقاهر الأرض والسماء . . . ارتحتم وطربتم ونمتم بعد قتال التراجان ، لكن عظيمكم بات يقاتل في الظلام أعداء لكم غير منظورين من الجن والأبالسة جاؤوا ليأخذوا ثأر التراجان ، حتى دحرهم وحده ، وتناثروا قددا أمامه واختفت بقيتهم بطلوع النور . . . هيوا طائعين ممجدين لعظيمكم .

قال . . . عند ذلك رفع القوم أصواتهم بالتمجيد داعين عظيمهم بلقب شهراموش (كلمة مركبة تعني عظيم البر والبحر والسماء) وانبطحوا طائعين خاضعين ، حينئذ كر عظيمهم شهراموش على جواده وقفز فوق الهوة نحوهم وسار يختال بين أصوات التعظيم نحو مدينته[1] .

لكل شيء نهاية ، تبقى ذلك في ذهني من مرثية اندلسية قرأتها ، ربما سبق لي أن سمعت مثل ذلك من قبل ، لكن ، لماذا أنا بالذات ؟! فضلت أن تقوم قائمة الأم هذه المرة وتهاجم الحاج مهدي ، بكل ما يقع تحت يديها ولسانها ، وأن تحتمل الركل والرفس والسب أضعاف ما سبق أن احتملت ، لماذا تلتزم الحياد في هذا الموضوع بالذات ؟ ولماذا أنا لا

---

(١) ان حادثة ظهور الجبل هذه . . . مذكورة في عدد من اللوحات المنقوشة التي أبانت عنها حفريات بداية القرن ، بحيث لا يرقى إليها الشك تاريخياً ، والمؤرخون يفسرونها بحدوث زلزال في تلك البقعة صادف تلك الأحداث . فنسج القوم حوله اسطورة .

عبد الله ولا محمد ولا حتى زهروية ؟! يقف الحاج مهدي ، يضع قفته ، يجلس قليلاً على السداري . تتظاهر زهروية بأنها تدبر بعض أشغال الدار ، لكن كل جارحة فيها متفتحة لكل نأمة تصدر عن الحاج مهدي . . . حركة أو كلمة . . . كانت آذاناً تترصد . لم يفعل شيئاً : بعد لحظة استراحة وصمت ، كنا نرمقه عبد الله وأنا بالنظر المحترس ، ورؤ وسنا في الدفاتر . . . قال قائماً : « أحمد . يا الله معايا أنت ! عبد الله يبقى هنا ومحمد قادر برأسه . يال الله اطلق رأسك ! » .

لماذا أنا بالذات ، ويظل عبد الله منعماً بحريته ويمضي محمد إلى تشييد قصور رحيبة في تأخره المسائي وسهراته خارج الدار ، يرتع كما يشاء ؟! تصورت الأصدقاء اثنين ثلاثة جماعة يسهرون مع عبد الله هنا في هذه الغرفة ، أو يسهر معهم في منازلهم ولماذا أنا بالذات أذهب معه ؟! ومؤقتاً أم نهائياً ؟ نبهني إلى أخذ ملابسي . جمعتها بنفسي . الصمت تام شامل ، لا أرى شيئاً . زهروية ساكنة واقفة متربعة أو مقرفصة ، لا يهمني شيء لا أرى شيئاً ، أسمع الصمت الشامل ولماذا أنا بالذات ؟ جمعت ملابسي ، اتكأ يحزمها بنفسه ويحملها متأبطاً . لم أشعر بالحاجة لأرفع رأسي أو ألتفت لاودع أحدا . حملت محفظتي . لم أعرف كيف كنت أخطو ولا إلى أين أتحرك وراء الحاج مهدي ، لماذا ؟ لماذا أنا بالذات ؟ .

* * *

لا أصدق . مذهولاً وقفت . مأخوذاً . لا يمكن أن تكون قد انقلبت إلى هذه الحال ! أية روعة . أي جلال ! طول وإمتلاء وتفتح لا نظير له . سلم على خيتك فطومة . ظللت مذهولاً جامداً تقدمت إليّ . أخذت يدي وصافحتني . منذ أكثر من سنتين لم أرها . منذ زواجها بل قبله بفترة . أية إمرأة أصبحت ؟! أقسم أنني لو التقيت بها قبل الآن في الشارع ، في أي مكان آخر لما عرفتها . لم يبق من معالم الصبا شيء ، لا ، بل لا زال ذلك القاسم المشترك الأعظم : جمالها . لكن شتان ما

بين جمال وجمال . زادت فتنة . . . زادت توردأً . . . قال الحاج مهدي : سلم على خيتك فطومة . وقال كلاماً كثيراً ، أحمد أعقلهم . سيؤنسنا . لعله ظن تجمدي من حقد عليها لصالح زهروية . لعله ظن بي كراهية الأبناء لضرات أمهاتهم زوجات آبائهم . ما كان بي بعيد عن ذلك ، جد بعيد . ما هو؟ دعتني للدخول إلى الغرفة الأولى ، أخذت حوائجي منه . حلت لفافتها ترتبها . مأخوذاً لا أزال ، وقدرت أنني سأبقى على ذلك عمري كله . عذرت أبي في داخلي بشكل غامض . على الأقل شعرت إزاءه بشعور خاص هذه اللحظة . إعجاب إغباط حسد ، ارتياح ؟ لكنه ليس إتهاماً أو تحاملاً في هذه اللحظة . . . كنت متأكداً من أن أي كائن في العالم لو وضعت أمامه فطومة هذه في جانب ، وزهروية والعالم أجمع في جانب ، لما تردد في الاختيار . كيف يتنبأ الحاج مهدي بأن فطومة القديمة الطفلة تلك ، هي هذه فطومة اليوم ، جلال اليوم ، وامتلاؤه وجماله وفتنته التي لم تر مثلها عين ولا خطرت على قلب بشر . إنه ما شاء الله لا يمكن أن يخطىء .

جاملتني كثيراً ونحن على المائدة . الحاج مهدي مرتاح لذلك . وبيني وبين نفسي كنت أتمرن على أن انطق « خيتي فطومة » عند كل طلب أو خطاب . في عينيها وكلامها جرأة ومعرفة ، إنها لم تعرف قط الحاج مهدي الذي نعرف ، أهذه التي كانت تلعب الغميضة والعرس والخجل ودفتر الرسم ؟! الفرق شاسع . أي الصورتين أحب الي ؟ تلك أعرفها بسيطة . . . كانت حية أكاد أتحسس مشاعرها بمشاعري ، أقرأ أفكارها بأفكاري ، وهذه عالم آخر معقد عميق وفسيح . هذه إمرأة وتلك كانت فطومة . لا أثر لتحيزي لأمي . لا أثر لذكرى قريبة أو بعيدة عنها الآن رغم أني كنت أنتظر تجدد لوعتي بمجرد رؤية زوجة أبي ، لا أثر لشيء من ذلك ، بدأت أتحسس مشاعري القديمة خفية . . . لم أعثر عليها ولكني لم أعثر على فراغ . لعل الجرح القديم بقدر ما كان قديماً عميقاً وسريعاً بقدر ما التأم ، خفيت معالمه . لعل الالتئام ليس إلا

ظاهرياً خادعاً . لعل المشاعر القديمة ثاوية كامنة . تحسستها خفية ، لم أجدها ولم أجد الفراغ . الواقع أنني كنت غير ممتلك لشيء مني . ربما لو رأيتها من قبل أو تصورتها بمجرد خيال على هذه الفتنة والسحر ، ما كنت أتحمل ما تحملت في الأيام الأولى لزواجها من أبي . . . لو عبرت خاطري في طيف خاطف صورتها على هذه الروعة لتهيأت لذلك ، وتجنبت ما أبدو عليه من جمود وإرتباك . وإذا كنت الآن مرتاحاً من مشاعري القديمة فربما يرجع ذلك إلى أنني أمام إمرأة أخرى ، فطومتي لم يتزوجها الحاج مهدي أبداً . هذه أروع ، ليكن ، هذه فتنة أشد ، ليكن ، لكنها ليست فطومتي . رغم الاندهاش ، بت مرتاحاً ، نمت هادئاً كما لم أكن أقدر . حتى قربي الشديد من الحاج مهدي الذي حسبت له ألف حساب لم يزعج راحتي بكابوس أو شبح .

***

ما أزال أستأنس بأخبار الدار القديمة ، أتنسمها بكل وسيلة . ليس فيها جديد حقاً . ولكنها مغرية لمثلي ، الأخوان هناك ينعمان بحريتهما . الدار الفوقية حيث سي سليمان وازنت بين طرفي معادلتها . سي سليمان تزوج أخيراً إمرأة جديدة على قدر وزنه : ريشة لريشة ، حليمة ، مجلس « الكويفة » وقطع الشواء المختارة منتظم دائماً مع نفس الرفاق ، ينقصه شخص الحاج مهدي وحده ، يذكرون عن سي سليمان أنه الأن متشوق للإنجاب . بدا يصرف إليه اهتمامه ، ويصرف عليه ماله ، تتسلمه منه أيدي تعرف كيف تحكم الغيب ، وتحدد الذكر من الأنثى ، قبل الحمل ذاته ، وتعرف كيف تقول للمرأة المترجية حملاً : احسبي تسعتك إبتداء من صفر الخير ، فإذا مضى نصف التسعة أشهر دون ظهور بشارة ، فاللائمة على المترجية لأنها فرطت في التعليمات ، ويجب البدء من البداية وصفر الخير . . .

***

فطومة وحمى كالهمس في أذني . تتوحم . قرأت ذلك في احتفاء

الحاج مهدي . . . في كثرة ما أصبح يحمل من زيتون أسود بالفلفل الأحمر . . . كانت تتعشقه ، بل أصبحت كذلك ولا تكاد تأكل غيره . عزفت عن الطبخ وأصبح الحاج مهدي يحمل معه المأكولات من الخارج . لم يظهر عليها شيء ، أصبحت أتابعها دون أن تدري ، أتحسسها بالعين رغما عني لأفاجيء بطنها منتفخاً دون جدوى . لا شيء ، لعلها الأيام أو الأسابيع الأولى للحمل . كل صباح ، كنت أنتظر أن أجد بطنها مكوراً . كنت مسحوراً أو كالمسحور بذلك . هل كنت أرغب في ذلك أم أكرهه ؟ لا أستطيع أن أجيب الآن . إلا أنها كانت لهفة . ربما لمجرد أن أرى التغيير .

عصراً عدت من المدرسة . وقت مناسب لشرب الشاي ، كان الحاج مهدي يحافظ عليه ، يترك حانوته مفتوحاً لرقابة جاره البقال ، ويصعد لشرب كأس منعنع مع فطومة . ومعي ، عندما أكون حاضراً . كان ذلك قبل أيام الوحم . منذ أسابيع لم يعد يصعد في ذلك الوقت لأن مؤنسه لم يعد كذلك . لعله لا يريد أن ينغص عليها وعلى نفسه بأن يشرب وحده أمامها ، فأصبح يفضل أن ينزل بشايه إلى حانوته . عدت فوجدت الشاي جاهزاً لكن لا أحد يشربه ، الحاج مهدي لم يصعد وفطومة لا تشربه . والبراد ساخن ملفوف بالفوطة الثخينة . صبت لي منه كأساً . بدأت أشرب لم أكن راغباً في المزيد . أخبرتني أن زيتونها نفذ . رجتني أن آتيها بشيء منه ، وأن أنزل بالصينية إلى الحاج مهدي . . . كل شيء عادي ، مأموريات بسيطة جداً قمت بها ما لا يحصى من المرات . . . عدت بالزيتون . ربما تذوقت واحدة أو اثنتين ، فلفل قوي لاذع لا يطاق ، يكوي ، تفلته كعادتي معا (الحار) . . . أشتهيه ، أتلمظ لرؤيته ، لكني لا اطيقه مذاقاً ولا هضماً . دفعت لها الزيتون الملفوف ، بلهفة فتحت الورق ، ورمت في فيها واحدة أو اثنتين . . . قالت بلهجة صدق : ـ أحسن زيتون ذقته في حياتي . ذق .

مدت أناملها لفمي بزيتونة ، رائعة . رائعة المذاق . لا ألذ .

عسل ؟! أكثر . رائعة المذاق .

ـ هه ؟

تتأكد من رأيي. قلت :

ـ ألذ ما ذقت في حياتي !

ـ بصح يا أحمد ؟

وضعت الزيتون جانباً ، تقدمت ، ظهر كفها على خدي بلطف :

ـ صحيح ؟

ألف رعشة . ألف رجفة . ألف قرب . ألف هوة سحيقة .

همست بعمق :

ـ والله العظيم .

بأذرع أربعة التقينا . . . هكذا . . . بالشفاه . غبت في الحزفة والدوخة والصمت مرتفعاً في قضاء ، معزولاً عن الأرض والسماء والجدران ، عن كياني نفسه . . . غبنا لحظات ، برهة ، عصوراً . . . ثم توقف الكون ، وقف الكون كله ، تيقظ فجأة وانتبه شاهداً صارخاً صاخباً . . . أغوار تفتحت عند أقدامنا . تكسرت الجدران ، تشققت وأطلت منها رؤوس المردة ترج الدماغ ، ألسنة نيران مترامية تلهب كل جارحة ، طرق وصراخ . طرق يعصف بالجدران والأبواب ، عويل ، رعد بركان . أفقت وأنا أفتح الباب مندفعاً إلى الخارج تضج أعماقي بصخب مرعد : تتداخل الكائنات . . . الى أين ؟ ماذا أنا ؟ توقفت . كيف قطعت كل هذه المسافة ؟ إلى أين ؟ الناس تسعى متزاحمة في كل إتجاه ، تعرف الاتجاه . أعود ؟ كيف وبأية قدمين ؟ بأي وجه وكيان ؟ هكذا الجحيم ؟ لم يكن إلا بهذا القرب ؟ هل رآني أحد ؟ المقصود هل كان طرق على الباب ؟ الحاج مهدي مثلا كان الطارق ؟ ومن يكون غيره ؟ ليس هناك غيره . خرجت مندفعاً تملؤني المطارق والضجيج والصخب دون أن أنتبه إن كان هناك طارق واقف بجانب الباب أو أمامه ، أهي النهاية ؟ وهي ماذا فعلت ؟ ماذا جرى لها ؟ يكون الآن قد

قتلها ، قطعها إرباً إرباً ؟ الناس الآن مزدحمون على الباب . جمعهم مـلأ الـدار ، وجمع آخـر يتزايـد يمـلأ الشـارع ، مـاذا ؟ الحـاج مهـدي قتـل زوجته ؟ لماذا ؟ وجدها تخونه ؟ مع من ؟ اللعنة على الضجة المتـزايدة في مركز الدماغ ولهيب النار في الجوف . أليست هي النهـاية ؟ فـطومة الآن واقفة بجلالها تشرح بعبـارات واضحة للحـاج مهدي وقـاحة فلذة كبـده أحمد معها ، عليها . تروي قصة يوسف وزليخةفريدة في بابها . يستمـع ، يقف . كأنه بخير ، كأنـه غير منفعـل ، يخفي اضطرام مـا بداخله عـلى فلذة كبده ، ينتظر عودته ، ولا بد من العودة . لا بـد . بأيـة قدمـين ، بأي وجه ، وكيـان ؟ أليست هذه هي النهـاية ؟ أحمـد الآن يقف جامـداً أمام الحاج مهدي ، لا حاجة إلى الكلام ، كل قد عرف دوره ، استسلم لمصيره ، الحاج مهـدي متأبط سكينـة عيد الاضحى ، يلمـع بريقهـا في الخفاء ، جرب كفاءتها قبل ذلك ، بأن حز بسنها على ظفـره ، كما يفعـل عادة قبل الذبح ، وجدها لابأس . . . محتفظة بمضائها . ينظر حواليـه ، إلى السقف قليلاً كأنه يتملى شيئـاً ، فجأة ينـزل بحد السكـين على نحـر أحمد ، يغرزه إلى الأعمـاق حتى يطل رأسـه من الظهـر . . . اللعنة عـلى الضجيج الصاخب في مركز الرأس . . . الحاج مهدي يستل سكينـه من النحر ، يرفع كيان أحمد الدامي من شعر الرأس بيسراه ، كأنه يقيمه ثم يضـرب العنق بحد السكـين من اليسار إلى اليمـين ضربـة بتـار تفصـل الرأس عن الجسد . . . أحمد وفطومة زليخان واقفين كالعاريين أما ثيابهما قدت من قبل ومن دبر ومن كل جـانب . أخزاكـما الله أيها المجـرمان . الشيطان نفسه يعجز عن فعلكما . مـا جزاؤ كـما ؟ ماذا تـظنان أني فـاعل بكـما ؟ أقتلكما ؟ لا . أكـثر من ذلـك ، وأقـل من ذلـك . يـظل يـدور بينهما . يطيل أمد عذابهما ، ثم ينادي أحمد فيقبـل عليه مـرتجفاً خـائفاً . ودون أن يكلمه يناولـه سكينة العيـد ، ويأمـره بكلمة : اقتلهـا . يتقدم احمد كالمنوم يدفع السكين الطويل أمامه . يتقـدم . لا تتحرك فـطومة . يتقـدم ، رأس السكين عنـد البطن . فـوق السرة ، لا تتحـرك ، الـدم

ينبجس من الثوب فوق الحزام . . . حد السكين ينغرز تدريجياً ، الخرق يتسع والدم يتكاثر متقاطراً يتدفق . . . يغيب السكين الطويل حتى النصل . تسقط أخيراً . يسحب أحمد النصل بأمر . يمده نحو الحاج مهدي وفي لمح البرق تطير رأس أحمد . اليوسفان القديسان واقفان . الحاج مهدي يقف مستغفراً . . . ابنتي يا فطومتي ويا فلذة الكبد أحمد سامحاني ، إني ظلمتكما سامحاني على سوء ظني . لا بد من العودة . اللعنة على الضجة . الناس مزدحمون يملأون الدار والشارع . ماذا حدث ؟ لا شيء . الحاج مهدي قتل زوجته . وجدها وابنه عاريين ملتحمين . قتلهما معا وقتل نفسه اللعنة على الضجة . المجرمان ماتا في الحين أما الزوج المخدوع والوالد المفجوع ، فلا يزال به رمق . اللعنة على الرؤية والسماع وضجة الدماغ . لا بد من العودة . كيف قطعت كل هذه المسافة ؟! لا بد من العودة لا بد . لا بد .

أعود . الأرض تميد بي عند موطىء كل قدم وأنا أعود . كيف ألقاهم ؟ ما أول مشهد سيواجهني ؟ تجمع الناس أم بريق السكين ؟ كيف يظهر ذلك على وجهي ؟ ما ملامحي ؟ عند كل خطوة يتضخم التهيب والجزع . هل أستطيع مواصلة الطريق ؟ مع ذلك عدت ! عرفت ذلك من باب الدار ، لطخة اللون الاخضر والرقم ١٧ وضوء المصباح الذي يسطع من الحانوت الركني للحاج مهدي تلمع أوانيه النحاسية الضخمة أمامه ، لا تجمع في الخارج . الضجة داخل رأسي . والمأساة داخل الدار . الحاج مهدي لا يتوعدني ولا ينتظرني بسكينة العيد ولم يقتل فطومة ، بل قتل نفسه ، وترك الحانوت ملكاً مشاعاً مضاءاً مفتوحاً توقفت عند عتبة الدار أتسمع . لا حس . لا صوت من الداخل عدا داخلي الهادر . الدار ميتة من الداخل . الموت لا صوت له ولا حس . خطوة . تجاوزت الباب ، خطوة ثانية وثالثة . لفني صمت الموت برودة القبر وظلامه . دفعت الباب الفاصل . لا صوت . فطومة تواجهني تهرع إلي . أين كنت ؟ ماذا فعلت ؟ أين ذهبت ؟ تحركني من

كتفي عبثاً . أنتظر أن تقول لي ما حدث وكيف وما سيحدث ؟ كيف بماذا قتلت الحاج مهدي وكان المنتظر أن يقتلها هو؟ تهزني تحركني . إسمع ، كن عاقلاً ، إسمع أيها الأحمق . ستخرب علينا الدنيا إذا لم تتعقل . كيف تخرج في تلك الهيئة ؟! لو رآك الحاج مهدي ماذا كان يظن وماذا يفعل ؟ اسمع وكن عاقلاً . سيعود بعد قليل للعشاء . كن عاقلاً . انس كل شيء . لا تظهر شيئاً ، اذهب اغسل وجهك رتب حالك وكن طبيعياً هادئاً . أمسك كتابك واشتغل كعادتك . لا تخرب الدار عليّ وعليك وعلى والدك ؟ أتسمع ؟ اسمع . اسمع . سمعت . لا أستطيع أن أتحرك ، إرتفع صمت الموت عني وعما حولي ، لم أعد أسمعه ، غابت الضجة من داخلي والأزيز وانطفأ البركان . حل الجمود الأبله .

* * *

لعلي كنت أقرأ . على كل حال كان بين يدي لا شك كتاب أو دفتر . سمعته يدخل . خطواته تضرب في أذني . خشخشة الورق الملفوف سمعتها قوية في أذني وهو يسلمها مشتريات العشاء في صحن الدار . جاءني صوتها خافتاً جداً متضخم الخفوت ، لا يلتقطه غير سمع مرهف كسمعي ، كانت تتكلم من داخلي في داخلي ، لم أسمع بأذني بل بكل جارحة في بالمسام ورؤوس الشعر . لا تحرك نحو غرفته . انتهيت . تخبره الآن بما شاءت وتأتي نهايتي أكيدة محسوبة ، لا تفزعني النهاية ، رؤيته هي الفزع الأكبر . كيف هو الآن وكيف سيكون ، عيناه ، لحيته ، قبضة يده الغليظة ، رأسه ؟ أشعر أني لم أر أبي أبداً . لم أره ولا أستطيع أن أتصور الآن ملامحه ، كيف تكون عيناي أمامه ؟ كيف أهتز أرتعش ؟ ساد هدوء قاتل ، هدوء ما قبل العاصفة الكاسحة ، لعلها تخبره بهمس يعز عن كل إرهاف . طبعاً . أنا أكبر أحمق ومخدوع في العالمين . كيف لم أعرف أنها كانت تحت رحمتي عندما كنت خارج الدار . كان بإمكاني أن أتوجه إليه في الحانوت وأخبره ، فيكون لي

السبق ، أعترف بذنبي وذنبها . على الأقل أخفف من خيانتي له وأنا إبنه ، لا . كان من الممكن أن أعترف بذنبها هي فقط وأبرىء نفسي ، يوسف !؟ نعم . يوسف الصديق . وكانت تقدر ذلك وتنتظر أن أفعله وتخافه . الآن لم أخبره بشيء ، ولم أنهض لاستقباله . بل إني أتخفى عنه ولا أستطيع مواجهته ، والقياد بيدها هي الآن ، تخبره بما تشاء بالصورة التي تشاء ، وتكون سباقة وشريفة ويوسفة قديسة ! هل فات الوقت حقاً لأخبره ؟ أقوم وأصرخ بكل قوتي ! إنها تكذب عليك ، كانت البادئة ، كانت الظالمة كانت زليخة ؟! لا يزال متسع لأفعل ذلك . بالتأكيد ويجب حتماً . ربما لم تخبره بعد ، أو على الأقل لم تنته من إخباره . لا يمكن أن يعتقد أنني أخبره الآن لمجرد أني سمعتها تقوم بذلك . بل سيعتقد ذلك حتماً . انتهيت . ليتني أنتهي .

ـ أحمد .

انتفضت . يدعوني ، ذعرت ، ارتبكت ودرت حولي مرات أبحث عن ماذا ؟

ـ أحمد .

توجهت لا أدري كيف ؟ لكنني أدري حقاً أن فكرة واحدة كانت هي الخاطر الوحيد الذي يملؤني ويغزوني مرات مع كل خطوة من مسافة الغرفة للغرفة ، إذن تنقصني شجاعة التنفيذ . ووصلت أخيراً عتبة الغرفة كالمخدّر المسطول ، قالت بصوت ضعيف :

ـ ادخل تتعش .

لعلها تشجعني ، كانت قبالة الباب . لا تفوتني الصفرة التي تجلل وجهها رغم أثر الزينة . أحسست بي أجلس بجانبه ، لم أرفع بصري ولا أستطيع مواجهته . المائدة المستديرة القصيرة يتوسطها طبق سمك مقلي ورؤوس فلفل أخضر ، تحيط به قطع الخبز الأسمر. كان قد بدأ يتناول ، وأمرني أن أفعل دون أن يلتفت :

ـ كل أنت.

مددت يدي كالمخدَّر. انتبه إلى أنني بعيد عن المائدة ، أمرني بأن

أجلس قبالته ، فعلت دون أن أرى أو أسمع . فطومة كان لها عذرها الأكبر . غبطتها كثيرا على حالها ، الوحم يمنعها من الأكل وهو يعرف ويوافق ، بل هي لا تتحمل أن ترى مشهد الأكل . هو يعرف ذلك ويوافق وأنا أيضاً أعرف . . . ومع ذلك مدت يدها ، التقطت بضعة رؤوس فلفل أخضر وقامت لتحتفظ بها لنفسها . أكلت زيتوناً اسود . وهو يعرف ويوافق وأنا أيضاً أعرف وأوافق ، لكن يجب أن آكل . لا عذر لي ، ليت لي عشر معشار عذرها . مددت يدي مرة ومرة . أحسست بعد مرات ، أن اللقم تتزايد في شدقي ، أمضغها بعضاً على بعض ، ولكن قوة البلع منعدمة . آونة بعد أخرى كنت أهتز كالمقرور ، حاولت أن أسيطر على ذلك . فشلت أصبحت الهزة نظاماً رتيباً ، انتبه اليَّ إلى الهوة الرتيبة الغريبة ، بلعت دفعه واحدة قال : مالك ؟ ماذا قلت ؟ لمحة لا تقدر ، التقت عيناي بعينيه وهما تعودان الى المائدة ، رأيت فيهما بياضاً ، ولا شيء أكثر ، أفضل أن يهوي علي ليريحني من البلع . الهزة تذوب شيئاً فشيئاً ، أنتظر عودتها لأستعد لها ، لكنها بدأت تتلكأ وتماطل . عالجها بنظراته . فطومة الآن ترقب الموقف متكئة على مبعدة منا : لا شك أنها مفتحة العينين على أقصى سعتهما . وهذا يزيد من غصتي ، اللقم تتراكم في شدقي ، أجاهد للبلع فلا أجد إلا مقاومة معاكسة .

ـ كل . ما لك أنت ؟!

بلعت ، هزة وشهقة في آن واحد . تلاحقت الشهقات ، أحس بنظراته تتفحصني عاجزة عن أن تعالج حالي ، جاء بكأس ماء ، قال : اشرب . امتلأ شدقي بالماء . مع ذلك بلعت وأخذ الماء طريقه . . . إلى أن انفجر كل شيء في رجعات قيء مندفعة مفاجئة ولم أعد أذكر شيئاً .

* * *

قال الرواي . . . في أقصى حدود كغاشي شمالاً ، ترتفع سلسلة قمم وعرة تتخللها وديان جافة ، وفجاج ضيقة ، عرفت بمناجم الملح المتوافرة فيها على شكل آبار وأنفاق عمودية وأفقية حفرتها أظافر الإنسان

قبل أن يعرف الفأس والرفش . . . ولم يكن لرقعة كغاشي هذه شأن لولا وجود مناجم الملح هـذه في ذلك العهـد السحيق ، حتى أن إسم الرقعـة نفسها مشتق من الملح أو منسوب إليه كما مر بنا .

قال . . . كانت فجاجاً ضيقة ، ودياناً جافة ، تعبرها كل حـين ، في صفـوف طويلة سـلاسل من بني آدم ، حـافية الأقـدام أو كالحـافية ، عـارية الأجسـام ، أو كالعـارية تـرسف في الأغلال ، تتقـدمها ، وتسـير خلفهـا بنفس النظام ، كـوكبة من الحـراس الأشداء عـلى بغال قـويـة ، وكانت قوافل الراسفين في الأغلال تمثـل جموع السجنـاء البائسـين ، من الـذين تكتب عليهم الجريمـة أو يعتبرون من مـرتكبيها ، تمضي قـوافلهم تحت الحراسة والقيود حتى يسلموا إلى حراس المناجم . . .

قال . . . كانت فجاجاً ضيقة ووديانـاً جافة تعبرهـا أيضاً كـل يوم صباح مساء في إتجـاه معاكـس لقـوافل السجنـاء ، قوافـل الحمير والبغـال المحملة بـأثقـال الملح منحـدرة إلى قلب كغـاشي ، حيث يـوزع بنـظام وحساب دقيق ، وتحمله قوافل أخرى إلى بقاع المعمور المختلفة ، بما فيها التراجان أنفسهم . . . في عالم لم يكن في ذلك الـوقت السحيق ، يعرف منجماً للملح أو مصدراً غير هذه الـرقعة السعيـدة . وكان ذلـك سبباً في كثـير من الغـارات والحـروب التي شنت عـلى كغـاشي ، ومن أشهـرهـا حروب الملح التي مر ذكرها .

قـال . . . وكان لـوظيفة « صـاحب الملح » شـأن عـظيم في بـلاد كغاشي ، وهو منصب كبير يخول لصاحبه حضـور كافـة المجالس العليـا والمشاركة في تـدبير أمـور البلاد ، فقـد كانت كغـاشي بلد الملح الوحيـد المعروف إذ ذاك ، تصدر للمعمور بأسـره ما يـطيب طعامـه . ومن ثم لم يكن يتولى هذا المنصب إلا ذو حنكة ودهاء ، لا يكاد يضاهي سلطتـه في كغاشي كلها أحد . وكان يلي ذلك في الأهمية منصب « صاحب العصا » وهـو منصب هام أيضـاً ، يخول لصـاحبه حضـور كافـة المجالس العليـا والمشاركة في تسيير البلاد ، ويتحكم صاحبه في المحـاكم والسجون وسن

القوانين ، وبصفة عامة كل ما يمس القضاء . ويعتبر هذا المنصب مكملاً لمنصب صاحب الملح ، فلا قيام لأحدهما بدون الآخر إلا إذا اجتمعا لواحد . ذلك أن مناجم الملح ، تحتاج إلى الأيدي ، وهذه لا تتيسر إلا عن طريق السجون ، أي عن طريق المحاكم والقوانين التي تصدر أحكامها على المتهمين ، فيقادون مجرمين سجناء مباشرة ، لاستخراج الملح . وهناك منصب صاحب السيف وهو قائد الجيش . . . وتوجد مناصب أخرى عديدة ولكنها تنفيذية كرئيس المناجم وغيره .

قال . . . وقد اجتمع لشهراموش عظيم كغاشي في عصره المجيد وعزه التليد ثلاثة رجال لا أصلح منهم لتولية أهم المناصب : وهم شيهوك صاحب الملح ، وهمشير صاحب العصا وقد مر الكلام على أهمية وظيفتيهما . أما الثالث للمنصب الثالث فهو زاهور . . . مرّوض الوحوش ، الذي كانت مهمته العناية بالحيوانات المفترسة وما إليها وترويضها .

قال . . . ولم تكن مهمة ترويض الوحوش ، ترفيهية فحسب ، بل إنها بالإضافة إلى ذلك مهمة رسمية وطنية ، نظراً لما كان يعقد من مناسبات كبرى ومهرجانات ، تتركز الفرجة فيها على المشاهد الغريبة التي تؤديها مختلف الحيوانات نتيجة الترويض ولا سيما المفترسة منها أو السامة .

قال . . . وكانت حدائق شهراموش حافلة بأنواع تلك الحيوانات التي يباهى بها عظماء المعمور .

قال . . . وكان منصب مرّوض الوحوش يضمن إلى ذلك مهمة الجلاد الذي ينفذ فصل الرؤوس عن أجسادها ، عندما تدعو الضرورة إلى القيام بذلك في المشاهد الرسمية ، وأمام الملأ ، وكان ذلك يحدث بالذات بالنسبة للأعداء الشخصيين لشهراموش ، أو من يعتبرون خطراً عليه ، فمثل هؤلاء ، لم يكن من المحتمل في حقهم أن يقضوا حياتهم

في مناجم الملح ، بل ينهي أمرهم مباشرة على يد زاهور ويقدمون فريسة لوحوشه .

قال الراوي . . . جلس شهراموش كعادته على سريره المذهب ، تحمله ست قوائم دقيقة الصنع تمثل كل منها حيواناً مفترساً منبطحاً مكشراً ، وقد نصب السرير على مرتفع سبع درجات في بهو فسيح مستطيل ترتفع في وسط قاعته قبة هرمية الشكل ، تتراقص فيها ألوان المعادن النفيسة المذابة ، وأشكال الحيوانات الغريبة المنقوشة ، وتتدلى منها المصابيح الزجاجية بمختلف الأحجام والأشكال .

قال . . . وقف علية القوم بين يدي شهراموش ، في صفين على يمين ويسار المجلس ، يتقدمهم شيهوك صاحب الملح بقامته القصيرة وجسمه المكتنز ، وهو يتحدث بصوت مرتفع كله إعتزاز بما تحقق على يديه من مداخيل الملح لذلك الحول ، حتى لقد ذكر في حديثه أن حصيلة ما جمعه من الذهب مائة ألف ألف « دوز »[1] ومن الفضة ألف ألف ألف . ومن العاج سبعون ألف « قارو »[2] ومن خشب الصندل مائة وخمسون ألف . . . ومن الأنبوس . . . ومن أنواع العطور الجيدة والنادرة . . . ومن الحرير . . . ومن . . . ومن . . .

قال . . . وإن لمتعجب أن يتعجب من تجميع هذه المواد النفيسة دون المال المتعارف عليه ، مع أن تجارة الملح لم تكن تجري بالمقايضة بل بالمال ؟ وسبب ذلك كان من جملة ما يفخر به شيهوك ويعتز في خطابه في هذا المجلس ، فقد رأى من حسن تدبيره ، إصدار أوامره للقوافل المتجهة إلى الجهات الأربع من المعمور ، بأن يستبدلوا مال كل بلد يبيعونه الملح ، بمواد نفيسة في عين المكان ، سواء كانت معادن نفيسة

(١) وزن عندهم يقارب الوصل .

(٢) وزن عندهم يقارب القنطار والربع .

مسكوكة أو غيرها . ذلك أن صاحب الملح في كغاشي لاحظ أن المال يدعو الى صرفه بالإضافة إلى صعوبة الحفاظ عليه ، وإلى ما يدعو أحياناً عن تقيد التعامل بعملة ما ، مع عين البلد الذي يستعملها عند صرفها . . . وهكذا فكر واهتدى إلى هذه الطريقة الجديدة التي أعجب بها علية القوم وعظيمهم بالذات لأكثر من سبب ، من ذلك أنها ولدت للقوم تجارة داخلية جديدة ، وفتحت أسواقاً وآفاقاً ، فالمواد النفيسة أصبحت بدورها تشكل تجارة في أسواق جديدة خلقت خلقاً ، وأدت إلى رواج تجاري هام في كغاشي .

قال . . . وبعد عرض هذا الجانب عرج شيهوك على عدد القوافل التي يملكونها ، والتي تنتقل بالملح وتنقلها ، وهي فيما قال أصبحت تزيد عن مائة وعشرين ألف وحدة[٣] كما أن عدد المجرمين العاملين بمناجم الملح ، أصبح يناهز ثلاثمائة ألف شخص . . . والحاجة تدعو إلى المزيد منهم إلى حدود مضاعفة العدد لرفع الانتاج ، ولاحظ شيهوك أن الإنتاج في مناجم الملح يعرف ثباتاً منذ ستة شهور ، ويخشى أن يبدأ في التنازل بينما الطلب يزداد . . .

قال . . . وكان شيهوك ماهراً بليغاً وحاذقاً في تنظيم أفكاره وعرضها ، والعناية بالشاذة والفاذة ، دقيقاً في الإحصاء والحساب وأساليب البيع والشراء . . . فلما أنهى عرضه قال مخاطباً عظيم كغاشي :

ـ والآن أيها العظيم ، هذه محصلاتنا .

وأومأ شيهوك إلى زاهور مرّوض الوحوش ، الذي تقدم خطوات إلى الامام ، حتى برز على من في المجلس ، وظهرت قامته الفارغة ، وجذعه وأطرافه الضخمة ، يستر ما بين سرته وركبتيه بقطعة من جلد فهد مرقط ، ويتقاطع على صدره ووسطه أحزمة جلدية غليظة تلمع

---

(٣) الوحدة عشرة دواب من بغال وجمال .

عليها قطع نحاسية مستديرة ، وتشد على عضديه وساعديه مثل ذلك ، قال . . . كان زاهور ببشرته البرونزية ، وكيانه الضخم المتكامل ، وخطوات الاعتداد ، والسوط الملوي الذي لا يفارقه صورة جيدة لمثال القوة الجسدية .

قال . . . تقدم زاهور وصفق ، وانفتح باب كبير في أقصى البهو ، وبدأت تدخل منه متتالية في نظام فيلة وفهود وأسود ونمور . . . واحداً واحداً تحمل على ظهورها أمتعة وصناديق وسلالاً مما كان شيهوك يعد أمام المجلس منذ برهة . وكلما اقترب أحد هذه الوحوش من أولى درجات سرير شهراموش ، أصدر زاهور أمره إليه بفرقعة السوط والصوت ، فيثني الوحش قوائمه وينحني تحية ، بينما يتقدم شيهوك ـ في حماية زاهور ـ ليأخذ عينة من الحمولة ويعرضها على أنظار شهراموش وعلية القوم ، شارحاً نوعها ومقدارها وكيفية الحفاظ عليها في المخازن .

* * *

حديقة مردوخ . لم أكن أعلم أن بها أشجاراً مثمرة رغم أني ترددت عليها مراراً . عنب وتفاح وإجاص وبرتقال . . . فصل غريب تجتمع فيه كل الفواكه وكل البهجة والفرحة . أنغام الطير صداحة ، عيون ماء ملون مفتحة . عرائش طبيعية ظليلة من دوالي علت فروعها ثم التوت وتشابكت ، وتدلت فواكهها متنوعة شهية ، بكل الألوان والأطعمة والأحجام . الحاج مهدي في لباس حريري أخضر مطرز الحواشي بالقصب ، أمي زهروية في بياض . . . جالسان تحت العريش الظليل يقطفان العنب والرمان والخوخ . . . ثماراً دانية ، يجري أمام مجلسهما جدول ماء لجيني رقراق ، يتسع ويتضخم ، وتتسامى منه أبخرة . . . يتصاعد ويتضخم يستحيل خريره شخيراً ثقيلاً وماؤه الرقراق كتلة حامية سائلة من حميم البراكين ، يجرني في تياره البطيء المتأني يحرقني ويخنقني ، ويكتم أنفاسي بروائحه الكريهة ، يمر أمام العريش الظليل بمجلس زهروية والحاج مهدي ، لا يتأثران بشيء من

ذلك . منعمان يأكلان ويشربان من قطوفهما ، يتحدثان ويضحكان من بهجتهما . . . هنيئاً مريئاً ، أناديهما وأنا على مقربة شبرين منهما ، يسوقني تيار الحميم المتأني ، فلا يسمعان ، لا يريان ولا يسمعان ، كأنما حاجز سميك شفاف ومعتم يحجبهما ، ويحجبني عنهما . أستغيث وأناديهما دون جدوى ، يبتعد بي التيار البطيء عن مجلسهما ويبدأ مجراه في الإسراع . أدور في فوزة سرعته ولكني دائماً منساب في اتجاه مجراه . أختنق في أعماقه دون أن أموت أو أحيا .

ألسنة اللهيب تترامى داخلي ، لا يمكن أن أفيق ، لا يمكن أن أنام ، لا أجوع ولا أعطش . النار في الفراش ، الشوك في الغطاء على كل جنب . أطفىء النور ، أبرد أسخن . أخفي رأسي تحت الغطاء أخرجه . أتنفس أمتنع عن التنفس . أشعل النور مرة أخرى ، ومرة أخرى أطفئه وأشعله لأقرأ ، أقرأ الزبانية تتقافز على الحروف ، تظهر وتختفي بين السطور ، لا أدري ماذا أقرأ ولا أي كتاب أو دفتر في يدي . أطفىء تشتعل النار . الراحة لا راحة . هوس اليقظة والحلم . أفيق لأبكي . شيء حاد مكتنز أشعر أنه ينضغط في حنجرتي ، لا يصعد ولا يهبط ، ينحصر كرة صغيرة صلبة حادة ، ولا يستطيع أن يخنقني نهائياً أو يحررني ، لماذا لم يأخذني إلى الشرطة من سنوات أو إلى الخيرية الجهنمية التي كان يفزعني بها ؟ أعض على يدي ، أعض على الغطاء . أضرب جبهتي ، مراراً بكفي بقوة لا تميت شيئاً ولا تحيي شيئاً ، أبكي وأنتحب ، أقاوم ألا يسمعني احد . لكن يفتح الباب وأسمع صوت الحاج مهدي :

ـ أحمد ، أشعل الضوء .

أشعل ، أجلس في الفراش متحفزاً . لا مجال لإخفاء شيء ، وجهي ينبىء بحالي ، يقترب مني وأشعر بها خلفه دون أن أراها يسألني : مالك ؟

يزداد الضغط الحاد على حنجرتي من الداخل بشيء ثاقب مكتنز ، نهرني :

ـ أحمد . مالك ؟ قل مالك ؟

يأتي منها جواب أسمعه دون أن أراها :

ـ قلت لك . . .

يضع يده على كتفي ، يضمني إليه . قالت له إني بلا شك اشتقت إلى أمي وإخوتي ، هذا واقع ولكن . . . كنت انتفض بشكل جنوني أغالب البكاء والنحيب لأغرق في البكاء والنحيب . أعارض الضغط بضغط أشعر بأنه يتضاعف ويضعف ، ويصدر بكائي اهتزازاً جنونياً ونحيباً . يمكنني أن أعود إلى أمي . سمعته يقول ذلك . أنا أعقل أبنائه سمعت ذلك أيضاً . انفجرت ولا سبيل إلى التوقف . أهتز ، بدأت أنتف شعر رأسي وإزداد إنتحاباً ، شعرت به مجمداً ، شعرت بها ترشني بالماء . . . لعلي بدأت أهدأ ، حين حسم الأمر .

ـ يا الله . قم إجمع حوائجك .

دخل بي على أمي . ارتاعت لحالي . عبد الله يفاجأ في موقف يعلم أنه لا يسر الحاج مهدي . لكن أبي لا يعبأ بشيء . محمد لم يرجع بعد ، والحاج مهدي لا يسأل عنه ولا عن أي شيء زهروية تسألني وتسأله مباشرة ، يرد عليها مباشرة . لا أسمع شيئاً ، فأنا لست هنا ، ولن أنام ولن أفيق . لن أحيا ولن أموت .

* * *

مشهد ٧

(شهراموش على سريره المعتاد . أمامه يجلس أصحاب المناصب إلى اليمين على مقاعد وثيرة واطئة ، إلى يساره يجلس علية القوم من كبار الأعيان والتجار ورؤساء القوافل يبدو شهراموش مكدر المزاج) .

ـ شهراموش : (موجهاً كلامه إلى الجميع) : إعلموا أن الناصح شيهوك صاحب الملح قد صارحني بما آل إليه إنتاج الملح من تناقص مستمر ، وتعلمون أن عظمة كغاشي قائمة على هذا الإنتاج وامتلاك سوقه إمتلاكاً مطلقاً ، وتعلمون أن لنا التزامات مع عظماء المعمور ، لتلبية احتياجاتهم للملح ، وقد كانت حروب الملح التي خضنا غمارها عقداً من الزمان ناتجة عن الطمع في الاستيلاء على مناجمنا ، بعد أن عجزنا عن تلبية احتياجات البعض ، بسبب قلة الإنتاج أو بسبب امتناعنا عن بيع ملحنا لبعض العظماء ، فما كان التراجان في حربهم لنا إلا مدفوعين ومتواطئين متحالفين مع الطامعين في مناجمنا . . . لا أريد أن أعيد عليكم تفاصيل

حـرب تعرفـونها وتعرفـون مـا حـزنـاه فيهـا من نصـر ، ومـا دفعنـاه من ثمن . . . ولكني أريـد أن أعرف بـالضبط وبكل تفصيـل ، سبب نقص الإنتاج لنصل إلى معالجته . فليتكلم كـل منكم بما عنـده دون مواربـة أو تلكؤ .

ـ**رئيس القوافل** (متهيباً) : إذا أذنتم لي أيها العظيم . . .

ـ**شهـراموش** (يقـاطعه في تـذمر): أذنت لـك ولغيرك فقـل مـا عندك .

ـ**رئيس القوافل** (متشجعاً) أيها العظيم . . . ليس الإنتاج وحده هو الآفة أعني ليس المشكل في الكم بل في النوع أيضاً .

ـ **شهراموش** (مستعجلاً ومتعجباً) أفصح .

ـ**رئيس القوافل** : أيها العظيم لقـد ذكر لي بعض رجـال القوافـل أن أجساماً غريبة حية كالديدان والنمل وغيرها أصبح ملحنا ينغل بهـا ، وهي إلى ذلك كله تفرض الأكياس والتلاليس طيلة مسافة ومدة السفر ، بحيث تضيع أحمال كثيـرة وثروة هـائلة من مقاديـر الملح ، بالإضـافة إلى نتانة الملح التي ترجع إلى الأجسام الغريبـة الحية وغيـرها ، فقـد وجدنـا بالفحص أن النتانة تفوح من ملحنا ووجدنا قطعاً متنوعة من بقايا أجسام حية تركزت فيها النتانة . . . وهذا يؤدي إلى نفور من بضاعتنا .

ـ**شهراموش** (دهشا) : نتانة في الملح ! هذا غريب .

ـ**رئيس القوافل**: صدقت أيها العظيم .

ـ**شهراموش** (للجميع) ما رأيكم فيما تسمعون ؟

ـ**رئيس المنـاجم** (يتقـدم نصف خـطوة بمـا يبـرزه) : أيهـا العـظيم . . . إننـا قـد انتبهنـا الى العفـونـة التي يتحـدث عنهـا رئيس القوافل ، وعرفنا مصدرها الوحيد ، المحتمل ، وقد إتخذنا بعض ما يلزم للحد منها والقضاء عليها .

ـ **شهراموش** : فيم تفسرون ذلك ؟

ـ رئيس المناجم : السبب الوحيد المحتمل للعفونة وسائر الأجسام الغريبة هو أجسام بعض المجرمين الذين يمرضون ويموتون في أعماق المناجم . ويتهاون المجرمون الأخرون في التبليغ بأمرهم وإخراج جثثهم إلى السطح ، فتبقى أجسامهم لتحلل في المناجم ، يضاف إلى ذلك ما اكتشفنا أثاره من أن بعض المجرمين فيما يبدو عندما يصعدون بعد إنتهاء يومهم في الأغوار يمارسون صيد بعض الأرانب ، وسرقة الشياه ، رغم الحراسة المشددة ، ويدخلون بها المناجم لافتراسها هناك . فتبقى من ذلك بقايا تفسد وتشيع النتانة . . . وهناك أيها العظيم فضلات هؤلاء المجرمين الذين لا يتورعون عن إتيانها في الأملاح رغم العقاب المسلط عليهم مقابل ذلك . . . على كل فلم يبق بعد الآن خوف من كل هذا بفضل تعليمات الناصح صاحب الملح .

(يتأخر رئيس المناجم مستأذناً بإيماءة في العودة إلى مكانه . . . ويتقدم من صف اليمين صاحب الملح ، شيهوك خطوتين نحو سرير العظيم) .

ـ شيهوك : الامر بسيط أيها العظيم ، فبالإضافة إلى مضاعفة الحراسة ، أمرت بخلق « مشمسات » وهي متسع من سهل الأرض يبعد شيئاً ما عن جبال المناجم . يعرض فيه الإنتاج للشمس طيلة أسبوع ثم يغربل هناك قبل وسقه . وهو عمل سهل التحقيق سيعيد إلى إنتاجنا جودته ويطهره من النتانة ، ولكن . . .

ـ شهراموش : (وقد بدا مستبشراً يتتبع عرض شيهوك) ولكن ماذا ؟ قل .

ـ شيهوك : (بأناة) ، يتطلب منا خلق هذه المشمسات ، البحث عما بين ألف إلى خمسة الآف مجرم إضافي للعمل في كل مشمسة حسب أهميتها . . . ولكن هناك مشكل رفع الإنتاج الذي يحتاج بدوره إلى أعداد كبيرة من المجرمين في الوقت الحاضر . . . (يتوقف عن الكلام ويومىء إلى رئيس المناجم) .

ـ رئيس المناجم (يتقدم) : إن الأمراض تهدد إنتاجنا أيها العظيم ، فالمجرمون يتساقطون يوماً عن يوم وتتناقص أعدادهم عند الرواح إذا غدوا وإذا اصبحوا . . . لقد تفشّى فيهم ما يشبه الوباء ، ومن ثم يجب الكف عن تغذية المناجم الحالية بمجرمين جدد ، بل من الضروري فتح مناجم جديدة لهؤلاء يمكنها بالتدريج أن تكتمل إلى أن تعوض الإنتاج كله .

ـ شيهوك (باعتزاز ظاهر) : إحصائياً أيها العظيم . يتبين أن استمرار الحال على ما هي عليه سيؤدي إلى انقراض مجرمي المناجم الحالية خلال عامين تقريباً . . .

أقول إحصائياً أما عملياً فيمكن أن ينقرضوا خلال ستة أشهر إذا سارت وتيرة الإصابات على ما هي عليه .

ـ صاحب العصا (يتقدم وهو يعدل طوق بذلته بحيث يبدو الرسم المذهب للعصا والميزان في منتصف صدره تماماً) : أريد أن أقول ـ إذا سمحتم أيها العظيم ـ أن من الصعب التفكير بوضع اليد على حوالي ثلاث مائة ألف شخص خلال عامين فقط ، بالاضافة الى ما تتطلبه المشمسات الجديدة من مجرمين . . . أقول يصعب ذلك لما وصله ثمن الخبز حالياً في الأسواق مع قلته . . . فأغلبية المجرمين الذين نغذي بهم المناجم هم من المزارع ، فبقدر ما ندفع بأعداد منهم إلى مناجمنا ، تقل أعداد العاملين في المزارع ويرتفع ثمن الخبز . . . وبالاضافة إلى ذلك فقد وجدت أن القبض على واحد من هؤلاء كمجرم يكلف تماماً ، ما يكلفه المجرم العامل في المنجم طيلة سنتين ، ذلك أن القبض على مجرم يسبب خسارة أولية بسبب الفوضى التي يثيرها عن القبض عليه ، وبسبب الظروف التي يجب خلقها قبل ذلك كتوجيه التهمة اليه ثم محاكمته بعد ذلك . . . فهذا كله مكلف ، ولا سيما إذا احتاج الأمر إلى مئات الآلاف . . . . صحيح أن الشخص بمجرد ما يصبح مجرماً ،

يصبح كله ربحاً في المناجم ، ولكن حساب ما تكلفه ثلاثمائة ألف قبل وصولها للمناجم ، وبوجه خاص ما تسببه من فراغ في المزارع يجعل من الأفضل التفكير بطرق أخرى . أقل تكلفة .

ـ شهراموش (بعد تأمل وفي شيء من الضيق): هل هناك طريقة أخرى ؟ .

ـ شيهوك : إذا تجاوزنا طريقة العلاج الطبي لمجرمي المناجم ، نظرا لكلفتها وعدم نجاعتها في حالة الوباء أو ما يشبهه ، فتبقى هناك طريقة اقتصادية بنسبة النصف .

ـ شهراموش : قل ما هي ؟

ـ شيهوك : إننا نحتاج الآن إلى معدل ما بين أربعمائة إلى ستمائة مجرم يومياً ، ولمدة عامين لنستطيع تعويض المناجم الحالية بمن فيها ، لكن إذا كان المجرمون من القادرين على الانتاج حقاً ، لا من الشيوخ والمرضى أو الضعاف ، فيمكن أن نكتفي بنصف العدد ، وربما بالثلث منه . . . ومعنى ذلك أن اختيار المجرمين يجب أن يكون مدروساً بدقة .

ـ صاحب العصا (وقد أدرك ما في كلام شيهوك من تعريض) : إن صاحب الملح ـ إذا فهمت مقالته ـ يستصغر القبض على عشرات المجرمين يومياً . فيطلب المئات ويشترط أن يكونوا من الشباب القادرين الأقوياء . . . ولكن ، ليكن في علمه أن الناس قد يعتقدون أننا على خطأ في توجيه تهمة الإجرام ما دمنا نقبض على الأشخاص بطريقة كالصدفة من كل الأعمار ومن الجنسين أحياناً . . . ولكن عندما تصبح العملية مسلطة على الشباب القوي القادر فقط . . . فماذا يقولون ؟ وهل يبقى الخطأ أو الاجتهاد عذرنا ؟!

ـ شيهوك : إذا كان صاحب العصا يعير كلام الناس بعض الإهتمام فإنهم لا بد يعلمون كل شيء سواء تغيرت الطريقة أم استمرت كما هي . . . ومن جهة أخرى فإن عنصر العمل في المزارع لا أهمية له ، فالمال المتحصل من أثمان الملح كفيل بتغطية النقص في المزروعات .

ـ **صاحب العصا (يهم بأن يتكلم . . .) .**

ـ **شهراموش (يومىء إليه بالسكوت) : لا أريد أن تنصرف المناقشات بينكم إلى غير وجهتها . . . ولا شك عندي في إخلاصكم جميعاً . واجتهاد كل منكم في القيام بمأموريته خير قيام . . . فلنتكلم بهدوء كامل ولنلخص المشكلة في أنها ضرورة العثور على كيفية نقبض بها على أكبر عدد ممكن من القادرين على العمل ، بتهمة الإجرام ، دون أن يثير ذلك ريبة أو شكاً ، أو على الأقل دون أن يزيد في الريبة والشك أو يبالغ ، مع اعتبار ضرورة استمرار العمل في المزارع ، وخدمة الأرض في حدها الأدنى على الأقل . حتى لا تسود مجاعة مطلقة . هذه هي المشكلة وهذه هي الصعوبة . فلنبحث عن حل هادىء .**

***

تخيَّلت الحاج مهدي وقد شعر ببعض الضيق من جراء ما وقع لولده أحمد ، قطعاً لحد الآن لم تخبره فطومة بشيء ، وقطعاً يكوّن أحمد فلذة من كبده ، أما الضيق والكدر الذي أتخيل أنه أصابه من جراء حالة ابنه فيخالط أسبابه أن هذا الولد إذن رغم كل شيء ، لم يستطع أن يتحمل فراق أمه واخوته . وأكثر من ذلك أنه تحمل ذلك وكتمه طويلاً حتى إنفجر رغماً عنه ، ما دام هذا هو التفسير الوحيد . وأتخيله مع ذلك يجد العزاء من هذا الكرب الخفيف في جنته الوارفة الظلال : فطومة ، وقد انحازت إلى ركن خفي جكمته الشهيرة إن كيدهن عظيم . أتخيله الآن مكثراً من تلبية طلباتها ، بعد أن غاب عنها من كان على كل حال مؤنساً لها كلما عاد من مدرسته ، وفي انتظار المؤنس الجديد السعيد . أتخيله وقد لمح صفرة تخالط محيا فطومته ، واكتئاباً يردهما إلى حالة الحمل ، يحاول أن ينجدها بخبرته ، وربما يسمح لها بالاتصال ببعض العارفات يختارهن لزيارتها ومساعدتها ، أتخيله وقد ابتهج أيما إبتهاج وهي تخبره بأنها خارجة إلى الحمام ، فذلك يعني عنده أنها خارجة من كآبتها . الحمام في ذهنه معادل لغسل الهموم والكآبة والأحزان ، وتجديد

النفوس . كلما كان يعود إلينا من الحمام في الأيام القديمة ملفوفاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في الدفء ، كان يمسح العرق عن وجهه المتورد المتوهج بالفوطة مردداً : الله . الله . الحمام نعمة كبيرة . أتخيله أيضاً يعد نفسه للتمتع بنعمة في نعمة . . . أتخيله كثيراً على هذا النحو ، ولا أدري لماذا وأنا في محنتي هذه . ولم أتخيله يطرق بابنا ، يدخل علينا في الدار القديمة حوالي العشاء ، ومحمد خارج المنزل كالعادة ، كنت وعبد الله نطالع بحق ، أو على الأقل عبد الله كان يفعل ذلك ، وكنت أمسك في يدي شيئا يقرأ ، وفكري في خيالاته . دخل علينا . سلم بصوت كالهمس ، ترك بلغته عند باب الغرفة وجلس متأوها ، لم أره يجلس عندنا هنا من مدة طويلة . لم أكن قادراً على تخيل ذلك . لعلي كنت الوحيد القادر على توجس ما بنفسه من أول نظرة وأمي كالعادة لم تنتبه لشيء . عبد الله زاد انتباهاً لما يقرأ احتياطا من مفاجأة غارة ، بينما كنت أتابع من أول وهلة ما يرتسم على وجه الحاج مهدي . وجه أبيض ، بياض العينين الذي رأيته ذات ليلة في لمحة بصر خاطفة . البياض اتسع الأن ليشمل الوجه كله واللحية . يتكىء على المخدة جنباً ثم على الحائط ظهراً . يرفع رجليه فوق السداري ثم يضع صفحتيهما على الأرض . كان يترنح بالنسبة لي . تجمدت . هذه حال أعيشها ولم أجتزها بعد . كنت بدوري أترنح . توجست خيفة من كل حركة من جانبي قد تثير انتباهه . تمنيت أن لا ينتبه إلي ، أو لو استطعت الخروج قبل أن ينفجر البركان ، وتعصف برأسي الصاعقة . . . تمنيت لو كنت حائطاً أو سداري أو ذرة جامدة . . . طال الموقف بقدر لا يحتمل . . . أخيراً تقول زهروية مأخوذة وبصوت ملهوف :

ـ مالك ؟ مهدي مالك ؟

لم يجب لكنه يترنح في عذابه ، كيف يفضي بالأمر ؟ كيف أتحمل وقع الأمر ؟ ما أول كلمة يبدأ بها إفضاء سره ؟ اعترتني دوخة وبدأت الأرض تميد بي وحركة السقف والجدران في إضطراب . . .

ـ مهدي . . . قل مالك ؟

اقتربتُ منه ، وأخذت تهز كتفه وتتطلع لصفحة وجهه المبيضة ، أذكر أن نظرته كانت متكسرة ، لم ترتفع إلى أحد منا ، وكان يهتز في غير استقرار . . .

ـ مهدي . . . تكلم !

بعد لأي قال :

ـ فطومة . . .

قالها بهمس وتثاقل . وعاد إلى جموده . أشعر بتلقائية زهروية تتوقف عند سماع الإسم . صدمة حقيقية تلقتها . تضخم الصخب في كياني وارتفعت الضجة وحركة الاضطراب ورغبة جامحة في القيء .

استعادت زهروية نفسها . تساءلت :

ـ مالها ؟

ظل صامتاً ، ليته يحيي أو يميت دفعة واحدة . كنت الأكثر عذاباً بتثاقله وتباطوء حركاته .

ـ مهدي . . . مالها فط . . . ؟

ـ غبرت !

كلمة واحدة لا غير . كنت مرهفاً جداً لا يمكن أن يغيب عني حديث المتعب الهامس ، لم يقل قتلها أو قتلته ! لم يقل سيقتلني أو أقتله ! لم يقل أخبرته بشيء قال : « غبرت » فقط لا غير .

كيفاش ؟ وعلاش وفين ؟

لا يدري . غبرت والسلام . بالأمس اخذت عدتها للحمام ، أخبرته بذلك عند الفطور ، تركها تعد أمرها . أعطاها ما يلزم من نقود وزيادة للجلاسة والطيابة . . . ولترفه عن نفسها بما تشتهيه النساء بعيد الحمام أو قبله . المهم أن تكون مرتاحة ولا تتعب في حمامها . لم تعد في الغداء . وهذا معقول . النساء يمكثن طويلا في الحمام . . . نصف نهار وأكثر . . . يتحملن الساخن ويجدن فرصة لتفريغ ما بهن من سجن

الدور . لا بأس . لم تعد عصراً . . . هذا كثير ولكن لا بـأس . وهجم الظلام . لا يمكن أن تقضي كل هذا الوقت في الحمام . . . النهار بطوله كثير جداً . . . فكيف تضيف الليـل ؟! أخـذه القلق الحقيقي ، مكـروه محقق قـد نزل ، حتى لـو كانت لا تـزال في الحمام فهـذا مكروه ولـو أنه مخفف ومحتمل .

قصـد أقرب حمـام . وجده قـد أعد للرجـال منذ أكـثر من ساعـة عندما أخلتـه النساء قبيـل المغرب كـما يقضي بذلـك النظام ، مـع ذلك تجاوز حرجه ليسأل الجلاس إن لم تكن هناك امرأة لا تزال في الحمام !!! يا أخي أدخل تـر بنفسك إخوانك الرجال كـما ولدتهم أمهـاتهم . قصد الحاج مهدي أن يسأل عن آخر امـرأة غادرت الحمـام ، متى وكيف وإلى أين ذهبت ؟! يـا أخي ، الجلاس ليس مفتش نسـاء ! لا علينا . يـريـد الحاج مهدي أن يعرف منزل الجـلاسة والـطيابـة ومولاة الصنـدوق . . . وكل النساء العاملات في الحمام ليسألهن عن إمرأة جاءت إلى الحمـام ولم تعد . ليست امرأة الحاج مهدي ، ولكنها ضيفة وافـدة لأول مرة ، وقـد تكون ضلت طريقها في العودة ! طلب معقول . الله يستر . سر يا أخي ويا سيدي والله يبارك فيك طولا مع هـذه الزنقـة . . . في آخرهـا . . . لا . قبل آخر زنيقة صغيرة . الدار الأولى ، الثانيـة ، الثالثـة أو الرابعـة أسأل عن الحاجة ميمونة . عندما تخرج لك قل لها أرسلني ناصـرو . . . كان الحاج مهدي قد انفلت قبـل أن يسمع بقيـة الرسـالة أو يـرد برحمـة الوالدين على المفيد . . . لا الحاجة ميمونة ، ولا اللامبروكة ، ولا حمامات الدنيا والآخرة ، القريبة والبعيدة عندها خبر عن فطومـة ! انتصف الليل والحـاج مهدي يعـود محطماً إلى داره . قبيـل وصولـه خامـره شك ، بـدا يتضخم أملاً في أنها قد تكون أتت في غيبته ، معها المفتاح . . . متـأخرة الى هذا الوقت . . ؟ لا . المهم . . . عذر الغائب معـه . المهم أن تكون بخير وأن تفسر غيبتها . حدثت تساؤلات غير مريحة وهو يسأل أصحاب الحمـامات ونسـوتها . لا يهم . الخـطر ليس كبيـراً . فهؤلاء ليسـوا من

أقرب معارفه ، وكان هو يدعي بأنها ليست امرأته ، هل تكون عادت فعلاً ! ؟

فتح الباب بيد مرتعشة . الظلام يعم الداخل ، لم تعد إذن . مكروه كبير محقق قد حدث حتى لو عادت بعد الآن . . . لو أمكن أن تعود . . . ولكن أبسط المحاكمات العقلية تقول إن إمرأة ما لا يمكن أن تتحرك في الشوارع بعد منتصف الليل ! لكنه بالفعل لم ينتبه إلى أشياء كثيرة غير مرتبة في غرفتهما على غير العادة . أخذت معها أكثر من لوازم الحمام من اللباس والمتاع . معناه ، وهل يخفي معناه ؟ وهل يصدق ؟ لا . السؤال الصاعق . . . هل يمكن أن يحدث هذا وللحاج مهدي بالذات ؟ مع ذلك قضى الليل من أوله إلى نهايته . . . نهايته أصعب من بدايته . قضاه قائماً ومقرفصاً متكئاً وسائراً ، في صمت القبور وهذيان الجنون . . . المهم قضى الليل . . . انتهى الليل وهذه قوة احتمال ، وبدأ النهار ، باكراً ناصعاً فاضحاً . مع ذلك لا شيء يمنع من احتمالات واهية ضعيفة مع أن النهار ناصع فاضح .

يبدأ تجولاته من جديد عند مراكز الشرطة والمستشفيات . قد تكون في جناح للولادة ، لا تلد امرأة في شهرها الثالث أو الرابع . لكن أشياء كثيرة قد تحدث ويسقط الجنين بتأثير الحمامات أو أي شيء آخر . مرة أخرى يتجول بين الحمامات . لا شيء . يعود به الظهر إلى الدار . بطولة أخرى أن يقضي النهار لآخر النهار الذي لم يبق فيه أمل ، ويعود للدار وحيداً مع حاله . وبطولة أكثر أن يتوجه بعد العشاء إلى داره القديمة ، وأن يظهر أمام أسرته تلك بالتحطم والانكسار ويعلن بؤسه .

ثارت حمية زهروية : مع ذلك يجب البحث من جديد في المستشفيات البعيدة ، ومراكز الشرطة ، من يدري ؟ لم تظهر عليه مبالاة ، كان جملة اجزاء محطمة من كيان ضخم ، تريد أن تهبه الأمل ؟ لم يبق ما يفيد . على كل فقد استسلم هو . هيأت له الشاي بسرعة رغم

عـزوفه عن ذلـك . وضعت أمامـه كـل شيء مهيأ . وخـرجت تتصـل وتسعى عند المعارف . أتريد أن تستعرض أريحيتها أم أنها تشفق عليه ؟! لم يكن يبدو عليها تصنع . بماذا تشعر نحو المختفيـة ؟ وهل ذات العـداء أم أنها لا تريد لصاحبتها أن تفلت بما يبدو انتصاراً ؟! وأي انتصار أكـثر من أن تتركه لها حطاماً ، وتدخـل عليها الخـراب إلى قعر البيت بعـد أن عرقت العظم ؟ لو عثرت عليهـا ، لو ظهـرت فطومـة من جديـد ، ماذا تفعل هي زهروية ؟ على كل ، كانت حالة كافية لإثارة الشفقة .

يوم ثان وثالث يمضيان في البحث بمساعي زهرويـة دون جدوى ، فطومة غبرت والسلام .

***

كبـريـاؤه فـوق أن يحتمـل . أصبحت فضيحـة وأصبحت أيضـاً سخرية وتنكيتاً وجرحـاً مقيماً . أن تهجـره زوجه الفتيـة ، فمع من ولماذا وكيف ؟ أسئلة لا بد أنها دارت وتدور على الألسنة ، وكـل جواب تشف جديد يشيـع النتانـة . والناس كـالكلاب تبحث عن النتـانة . وتنبش في المزابل . وهل يستطيع أن يخرج للنـاس ويسعى بينهم بمثل مـا كان دون أن ينافقوه في تجاهل ليديروا ألسنتهم السـريعة الحـادة بما يكـره بمجرد يـديـر ظهـره ؟ إنهم في فتـرات انتقـال الحـوار من طـرف إلى طـرف ، يستغلون فتـرة الانتقال فيـها لو كـان بينهم ، ليتغامـزوا عليـه . وهبهم لم يفعلوا ذلك ، ألا يضمرون له شفقة مـا أكرههـا إلى قلبه ؟ لا يمكن إذن أن يخرج ولا أن يعود لما كان فيـه . أحسبوه الآن من الحـريم ! احسبوني من الآن واحـدة من النساء المحجبـات . الحاج مهـدي انتهى ، والعـالم الآن عليٍ حرام دبروا شؤونكم واتركوني لأمري . تبكي زهروية لكـلامه بكاء مراً كالصامت . أهكذا يا حاج مهدي يؤول أمرك ؟ تدفن نفسـك حياً أمامي ولا استطيع دفعاً للمكروه عنك ، أنا المجـرمة ، لم أنتبـه لنمو الأفعى بجانبي ، وهي تترعرع وتكتنز سماً . أنا المجرمة في حقك يا حاج مهـدي ، حميتني وحميت أولادي ، ألبستنـا وأطعمتنـا أحسن اللبـاس

والطعام في أوقات الشدة والرخاء ، كنت دائماً رجلاً عظيماً ورب أسرة يحتذي . ماذا أستطيع لك الآن وأنت تدفن نفسك حياً أمامي . . ؟

زهروية الآن تؤمن أكثر من إيمان الحاج مهدي قديماً بأن كيدهن عظيم . كأنها ليست منهن أو كأنهن ينحصرن في فطومة ! .

* * *

حبس الحاج مهدي نفسه . سجن اختياري . حلف بالإيمان ألا يخرج للناس ، وحلفه مقدس . إذا كان له من دين ثقيل على زهروية تشعر به رازحاً عليها كالإثم العظيم ، فعليها أن تساعده ليفي بيمينه .

خرجت بنا ، محمد وأنا إلى دار فطومة لاستعادة الأثاث ، دخلنا بالبخور والتعاويذ، بخرنا الأثاث كله دفعاً للشر ، أخرجناه ورتبناه في عربة كارو ، وعدنا به إلى دارنا . أدركت بالفعل من خلال انهمار أسئلة الناس علينا ، وعبارات الاشفاق على والدي ، بل والتحامل عليه ، مقدار صدق تصوره ، أو لعله اعادني بموقفه من الناس إلى مثل ذلك الشعور ، كيف صار المسكين ؟ والله ما يستحق ؟ ذنوبك يا زهروية ! صحيح جُن المسكين ؟ ما لم أفهمه ساعتئذ هو رفضه الانتقال إلى حي آخر والعملية غير مكلفة : كراء مقابل كراء ولا أكثر . القانون الصارم كان اليمين . حلف ألا يخرج ولن يتراجع .

* * *

بعض أصدقائه حاولوا التخفيف بزيارته ، لكنهم توقفوا عن ذلك بعد خيبتهم الأولى . كان يرفض لقاءهم ، وإذا حدث وأدخل عليه أحدهم يلزم الصمت . الصمت الصمت التام الكامل الذي لا يسمح بنفس يخرج . سي سليمان نفسه وهو الأقرب رفقة وسكناً ، فشل ، تجاوز عن إساءات زهروية إليه باعتباره ساعد في زواج أبي من فطومة . . تجاوز بالطبع وزاره مرة وثانية وثالثة بدون جدوى . كان يبحث في الكيان المحطم أمامه عن هدب يتمسك به ، عن خيط مثير أو محرك ، لم يجد إلا

الصمت ، الصمت الـذي لا يشي بنفس ، أخيـراً عـزف سي سليمـان وإكتفى بأن يسأل من يجده منا في طـريقه عن الحـال . . . أحيانـاً يتوقف قبـل أن يصعد لـداره ، ويتقدم نحـونا إلى البـاب الفاصـل يطرق قليـلاً ويسأل ثم يمضي . . .

* * *

أخي محمد كان لـه رأي في الموضـوع ، سمعته يعلنـه لزهـروية ، اسمعوا ، إما الانتقال من هنا أو أفارقكم . سمعتها تنعته بالعقوق يحنث والده ؟ توعدته بعذاب الدنيـا والآخرة إن عـاد لهذا المـوضوع . . . مـرة أخرى خرجت والدتي وأخي محمد إلى الحانوت بحثاً عن شريـك بنصيب محـدد للحاج مهـدي ، النصيب لم يكن كـافيـاً ولا منتـظماً ، والتعـاويـذ والـطلبـة والشـوافـات وضـروب السحـر خفيـة وعلنـاً ، تنهب الـدخـل الضئيل . محمد ضـاق بما يـدفع من أجـرته . أصبـح يدفـع كل شيء تقريباً ومطالب بما هـو أكثر . إن تـذمر فـالسخط وغضب الله في الدنيـا والآخرة يترصده من زهروية والحاج مهـدي الصامت . لقـد بدا الـزمان نفسه متحالفاً مع زهروية في مساعدة الحاج مهدي على الوفـاء بيمينه . لم تمض أسابيع معدودة حتى هاجمت الأدواء والعلل ذلك الكيان الضخم . تهدل وترهل ، شاخ واعتراه العجز الشـامل بسـرعة لا تصـدق . لم يعد يتحـرك لأبسط حاجـاته إلا متكئـاً على الحـائط أو معتمـداً عـلى أحـد . وأصبح مألوفاً أن تدعمه زهروية في حـركته بهيكلهـا النحيف ، وتدخـل معـه المرحـاض وتمكث إلى النهايـة . أي سر في هـذا العجز السـريـع لا تجـدي فيه نفعـاً أعمدة الابخرة المستمرة المتصـاعدة بـروائحها المتنـافرة الزكية الكريهة ولا جماعات المطببين والمعـالجين بـالسائـل والجاف ، الحلو والمـر . . . وتمـائم بـالحـريـر ، بخيـوط الصـوف الأسـود الأصيـل والزعفران . . . ؟! عجز شامل متزايد عجز عنه كل وصف ودواء .

* * *

المفارقة العـظمى أن عجز الحـاج مهدي لم يـوازه عجز في السلطة

والأمر . لا . بقدر ما تضخم العجز تضخمت السلطة ، وصاقت بنا حرية الحركة ، لم يعد لسانه بحاجة ليأمر ، فزهروية أمره ، أبوكم مريض . هاتوا . . . أجروا . . . أجلبوا . . . ماء ساخن . لا ، أقل سخونة . بارد وبارد جداً . برتقال في عز الصيف يقوي القلب . ومشمش في عز الشتاء يعالج الكلي ، والزعفران الأصيل من عطارية بن شماس اليهودي في الملاح القديم ، وكبد الجمل من سوق السبيت على الكيلومتر خمسة وثلاثين ، وقشور الرمان من سانية بنمسيك ، وفلوس يا محمد . . . فلوسك كلها . . . انت عندك كم أب ؟ واحد ؟ ها هو على الفراش ! ما نفع الفلوس بعده وأمام عذابه ؟ لم يدخر الأبناء ؟ ما في سلالتنا مساخيط ، كونوا أولاد الرضى ، الله يرضى عليكم . تحسبونها سائبة والحاج مهدي مريض ؟ زهروية فيها مائة حاج مهدي ، وقادرة على التشمير عن ساعديها وتخرج لتشتغل من أجله ، تبيع العمر كله من أجله ، تقلع أسنانها من أجله . تحمله من ذا الكتف الى الآخر . أهكذا الأولاد والبر ؟! ألم يربّكم وينشئكم ويكسيكم ويشبعكم ؟! لو كنتم بنات ما كان العقوق . لو كنت بنتاً يا محمد أكنت تبخل علينا وتعد فرنكاتك وترميها في وجه أمك ؟ لو يعلم أبوك بما تفعل . . . يموت هماً وحزناً ؟ حتى عبد الله أصبح يهز كتفيه على أمه ، أقول له وليدي ، أبوك محتاج إلى تبخيرة أو خضرة . . . يدفن رأسه في كتاب ! وما نفع الكتاب والقراءة كلها بعد الحاج مهدي ؟! الصغير أحمد ، الله يصلحه ، هو وحده ، لا يزال طائعاً مهدياً ، يقوم بالليل والنهار . . . الله يرضى عليه . . . اسمعوا ، الحاج مهدي حي في تمام العقل والقوة وزهروية حية فيها قوة وإرادة مائة حاج مهدي المعلوم ، والله العظيم إما أن تستقيموا وتطيعوا وإلا فزهروية تعرف ما تعاملكم به . . . مساخيط . ما ولدت زهروية غير المسخوطين . . . ليتها أنجبت بناتاً ! .

* * *

لم يستشر محمد أحداً . فكر واحتمل ، ثم فكر ولم يعد يحتمل ،

ولم يعد للدار . ليلة . ليلتان . . . بحثنا عنه عند معلمه النجار في المعمل ، قالوا لنا غاب عن عمله . أخذ كل فلوسه ، ودعهم وأخبر معلمه أنه مسافر لشغل آخر ومعه زوجته ! تزوج ؟ نعم . أكد المعلم ذلك أو على الأقل ذاك ما أخبره به محمد . عبد الله على أبواب البكالوريا . رسب . كان مقرراً بنفسه أن يرسب : أخبرني بذلك لأنه كان يبحث عن عمل أو وظيفة ، جاءه الجواب بالقبول وهو في منتصف الامتحان ، فاستجاب له . تسلم عمله بشركة كبرى لمواد البناء متمرناً على المحاسبة ، لم يكن من اعتراض على قرار عبد الله . القرار في واقعه كان للحاج مهدي وزهروية أو عبرهما . وكان معقولا ومطابقاً لإرادة الجميع . الاعتراض وقع على مكان الوظيفة وما تقتضيه من إبتعاد عبد الله ، خوفاً من أن يستقل ويغيب كما استقل وغاب محمد قبله . الاعتراض كان من زهروية بلسان الحاج مهدي ، ولكن الوقت غير مواتٍ ، ولا شيء يمكن فعله . لكن يا وليدي يا عبد الله يا ولد الرضى لا تنسنا . أبوك في حالته . وكلنا كما ترى أدوية وطعام وملبس . . . وأخوك الصغير الله يرضى عليه ، ما زال يدرس وإن شاء الله يكمل . . . الله يرضى عليكم كلكم ، حتى محمد الغائب الله يرضى عليه ويهديه . . . ويرجع .

***

لا أدري أية قوة أصبحت في كياني الضعيف ، ولا مصدرها ، إلا أن يكون الحقد الذي لا يبقى ولا يذر . أول عراك ينشب بيني وبين أخي محمد . تذوب سنوات العمر الفارقة بيننا ، أو تنحاز سنواته إلى جانبي بما تمثل من قوة الجسد والفعل والمناورة والصراع . أجد نفسي جاثماً فوقه أكتم أنفاسه ، أضغط على حنجرته بكلتا يدي . باب الغرفة مفتوح لكن زهروية تصرخ ولا تستطيع أن تدخل أو تتدخل ، الحاج مهدي أيضاً أشعر به يتحرك عند الباب ، لكنه لا يدخل ولا يتدخل ، لا بأمر ولا بنهي ، وأشعر به مبتهجاً بانتصاري له على محمد الذي أساء اليه ، وسبب له الغم والكدر . . . يشجعني هذا الشعور على أن أزداد

ضغطاً على رقبة محمد ، حتى لأحس بها تلتوي ، وبملمس فقراتها العظمية تحت قبضة أصابعي ، أشعر باختناق محمد يخنقني ، وألمه يدق رقبتي ، فأستغيث ، أستغيث وأفيق مطوي الرقبة .

* * *

قال الراوي . . . كان الجانب الخلفي الغربي لجبال مناجم الملح ، يمثل منحدرات صخرية وعرة تنبت في سفوحها أعشاب وشجيرات متوحشة ، أغلبها من طبيعة شوكية . وفي هذه الطبيعة الدائمة المزيج من خضرة الشجيرات والأعشاب الشوكية وقحالة الصخور السوداء المسننة ، كان الحكيم روزباه يعيش منعزلاً معتكفاً ، لا يعكر صفو هدوئه إلا زواره وهم قليل من طالبي صلاحه ونصحه ، أو من بعض الرعاة الذين يمرون عليه بقطعانهم فيتقاسم وإياهم الطعام . وكان أقرب هؤلاء إليه يدعى مرقادو وهو أحد رعاة قطعان شهراموش . وقد طالت العشرة بين الشخصين رغم فارق السن ، وضربت بينهما أسباب الألفة . . . كانا جالسين في كوخ الحكيم روزباه ، وقد ضم مرقادو ساقيه بعصا ممسكاً طرفيها بيده ، في جلسة الرعاة المعتادة التي تجعله مستريحاً ومتأهباً عند أول بادرة من نباح أو غيره تشي بخطر الذئاب ، أما روزباه فقد كان متربعاً يرنو إلى الفضاء الممتد أمامه كأنه يتلو في كتاب ، تتوسطهما صرة خبز يحملها مرقادو معه كلما عرج على صاحبه ، لقد بدا كل منهما منهمكاً في التفكير ، كل يتلو كتاباً مختلفاً عن الآخر ، ولكن شيئاً ما كان يشعرهما ، لو عبرا عنه ، بأنهما يشتركان في التفكير في موضوع واحد ، ذي شعب تتوازى وتتقاطع . يسائل مرقادو نفسه : لم ينقاد القطيع لأول مبادر منه ؟ ما أساس تجمعه إذن ؟ ولم لا يحتمل التفرق ؟ وهل يمكن التمييز بالنَّظر إلى لحي الماعز بين من كان سيداً أو مسوداً قبل المسخ[1] ؟ وما سر الفحولة التي تجعل الأقوى هو الوحيد الذي يقفز وحده فوق كل

---

(١) حسب عقيدة مؤداها أن الماعز كان أصلا من بني آدم ولكنه مسخ إلى هذه الصورة جزاء شره ، وبقيت اللحية دليلا على العهد السابق . . .

أناث القطيع . . . كل القطيع عرس له ، كل ليلة ، كل لحظة ولا زمن للقطيع إلا مشيئته . لم لا يجتمع فحلان في قطيع واحد أو عدة فحول إلا وضاق كل بالاخر وقام الحرب والنطاح . . .؟! .

ومضى تفكير الحكيم روزباه في طريق آخر : ما الذي يدفع البشر إلى الشر والصراع ؟ لو تجاذبوا إلى الخير والعدل لما كان منهم مجرم ولا مظلوم ، ما الذي يجعل بعض الشر يطغى على بعض ، وبعضهم يخضع لبعض ، ما الذي ينزع من قلوبهم بذرة الحب ، فتمتص الدماء وتزهق الأرواح بين الآباء والأقرباء والأصدقاء . . . ما الذي يجعل الإنسان عاشق القيم ومبدعها ، يتنكر لكل القيم طمعاً في سلطة زائفة أو مال زائل ؟ ما الذي يجعل الخلل يتسرب إلى محاكمة العقل الرصين فيقبل بديل الشر عن بديل الخير والعدل . . . ؟ .

قال الراوي . . . وضج بأفكارهما الصمت ، حتى أصبحا وكأنهما يتسامعان، فإذا بكل منهما يلتفت سائلاً صاحبه ماذا يقول ؟ حينئذ اقتنع الحكيم روزباه بأن الوقت قد حان لتحقيق ما يراوده من أفكار ، وليسر بها إلى أعز أصدقائه طالباً مساعدته في ذلك . وكان مرقادو عند حسن ظن الحكيم ، متفقاً معه اتفاقاً كاملاً على خطته .

قال الراوي . ولم يمض أسبوع على ذلك اليوم ، حتى كان الحكيم روزباه منهمكاً في تهذيب أجمل وأظرف فتاة في كغاشي كلها ، بوصفها جارية اشتراها مرقادو من سوق الجواري ، بأمر صاحبه الحكيم ، باذلاً في الحصول عليها مبلغ الفين وسبعمائة بلك[1] ، وهو يساوي على الأقل خمسة أضعاف الثمن العادي لأحسن جارية . وكان سبب ارتفاع ثمنها أن مرقادو قد وجدها بالفعل تستوفي كافة المواصفات التي طلبها روزباه الحكيم ، ولكنها في نفس الوقت قد أعجب بها أحد سماسرة شيهوك ، فحميت المزايدة بينه وبين مرقادو والمتخفي في زي تاجر عابر بالمدينة ،

---

(١)عملة ذهبية في ذلك العصر .

وهكذا ارتفع ثمن هذه الجارية التي كانت فتاة مجهولة إذ ذاك وظلت كذلك حتى عرفت فيما بعد باسم الأميرة بيروز واشتهرت به على ألسنة الناس وفي كتب المؤرخين وذلك ما سيأتي بيانه في حينه .

قال الراوي . . . كان الحكيم روزباه قد اهتدى بعد التفكير الطويل إلى أن قضية العدل والسلطة في كغاشي يجب أن تعالج من جذورها . وفكر بأن سطوة شهراموش وجبروته ليست وحدها كل ما يقف عائقاً أمام العدل ، فحتى لو اختفى بكيفية ما عن الحكم ، فإن تربة كغاشي لن تسمح بأن يتولى الحكم إلا مثله أو أسوأ منه . ومن هنا كانت لحكيم روزباه خطة هادئة طويلة النفس ، لتصحيح أوضاع الإنسانية في بلده أولاً ، ثم في باقي المعمور كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى . .

قال الراوي . . . وهكذا أوعز الحكيم إلى صاحبه مرقادو أن يطلق شائعة في حاشية شهراموش والأوساط المقربة إليه بأن هناك في كغاشي ، من يزعم أنه لا يقع تحت سلطة أحد ، حتى العظيم شهراموش نفسه ، وأنه يتحدى أياً كان ليثبت ذلك بالبرهان والعيان ، وكان بالطبع أن أحضر الحكيم روزباه باعتباره صاحب تلك الدعوى ليبرهن على دعواه ويلقى مصيره .

* * *

وفى عبد الله بالعقد . إرسالياته النقدية منتظمة من أول شهر ، لعله يبعث بأكثر ما يحصل عليه ، تبخيرة بن شماس وشواف أولاد سيدي بنعلي . . . أغوار لا قيعان لها ، مهما يصب فيها من رصيد ، والعجز مستمر ،فتترى أعراضه كل يوم بصنف أشد .

* * *

كل شيء يتعب حتى صبر زهروية واحتمالها ، يزداد كيان الحاج مهدي تثاقلاً . تتعب زهروية من تقليبه وتحريكه . لا يعبر لسانها عن

التعب . لكن مظهرها وسخطها على الأولاد ، على الدنيا التي لم ترزقها بنات ، يبين عن ذلك . لم أستطع أن أكون بنتاً ، رغم تطوعي لكل شيء وطاعتي . لم أكن مرضياً . غسلت الأواني كنست ، نظفت الجلاس من قاذرات الحاج مهدي . . . حتى العجين جربته . . . مع ذلك لم أكن مرضياً . ثمة اعمال لا تحسنها إلا البنات فيما يبدو ، حتى الأحاديث لمن كان في مثل حال زهروية ، يبدو أن البنات وحدهن يحسنها أو يكن أهلا لسماعها . لا بد إذن من نجدة ، وهكذا حضرت عائشة بنت الخالة لتعيش معنا وتساعد . راتب عبد الله منتظم ، العجز المتزايد في الكيان المتهالك منتظم . دراستي منتظمة . لم أكن من المبرزين ، لكن كنت أتقدم في خط وسط طبيعي ومضبوط تقريباً ، لا تغلب فيه مادة على أخرى بطريقة حيرت المدرسين . أذكر ملاحظاتهم علي في الرياضيات والعلوم . توجيهي علمي ، وكان من المنتظر أن أبرز في المواد العلمية لكني كنت وسطاً في كل المواد تقريباً . كرروا ملاحظاتهم . الوسط لا يكفي في العلوم . متوسط لكن يجب بذلك جهود أكبر في العلميات الواقع أنني لم أكن قادراً على تخصيص جهد أكبر لمادة دون غيرها . لا لأنني أحب الآداب أو أكره العلوم . لا بل فقط لأني كنت أشعر بثقل متوازن لكل المواد على نفسي ، حتى الثانوية منها والتي لا اعتبار لها في الامتحان تقريباً . الدروس جميعها بالنسبة لي أوامر يجب تنفيذها . . . ودائماً نفس الملاحظات عقب كل نتيجة . المعدل لا يكفي . مدرسو الأدبيات أيضاً كانوا حائرين في أمري وغير راضين . لعلها عملة نادرة أن يجدوا تلميذاً مثلي منتظم المعدل في الأدبيات ، مستنتجين أنني لو توجهت إلى الأدبي لكنت مبرزاً . لا يعرفون أن الخطة مرسومة في أعماقي . واعتقادي انني لو كنت في شعبة أدبية ما كنت لأحصل على غير هذه النتيجة ، رغم كل شيء . المهم : حلت فرحة البكالوريا بذات المتوسط العتيد الذي ما كان مرضياً في الرياضيات والعلوم ولا في الآداب .

ضحك الحاج مهدي في فراشه ، ومد يده إلي متهجياً كلماته ،

وأنا جنبه : أنت عاقل ، أعقل أولادي وأحسنهم أنا فرحان بك . أحس بشبابي وقوتي فيك . الحاج مهدي فرحان بي ، زهروية مبتهجة أيضاً ، تصب لنا الشاي ، بنت الخالة أيضاً ، الكل مبتهج فرح بي . جلسة ابتهاج بسيطة ، لم نعشها منذ سنوات ، وضحكة الحاج مهدي بالذات لم أرها أو أسمعها من قبل . لا أدري متى تساقطت أسنانه كلها تقريباً ، كنت أقرأ في خطوط وجهه أشياء كثيرة غامضة وقد برزت ثنايا شفتيه الغليظتين مطبقتين إلى الامام ، واختلط شعر لحيته القصيرة بشاربه . كان بين الحين والآخر يرفع يداً ثقيلة يعدل بها عمامته المختلة ، باستمرار فوق الطاقية . ما زال يجاملني مبدياً فرحته بنجاحي . أنت تعوض الكل . . . عقوق محمد الذي لم يظهر له أثر . . . وغياب عبدالله ، الله يرضى عليه . أنت الكل يا أحمد ، تملأ الدار وتعمرها . . . كنت مطرقاً ، أحس بكلماته المتأنية أوامر يتحفز في داخلي شيء لتنفيذها في الحال ، إن اقتضى الأمر . ومهما تكن .

قالت زهروية :

ــ عنق باك . بس يديه ورأسه .

أخذت اليدين . قبلتهما . وقبلت الرأس ، وعانقته . تحرك ليضمني أيضاً ، انبعثت من تحت الفراش رائحة رطوبة عفنة .

* * *

جملة رفاق ممن نجحوا مثلي طرقوا الباب يدعونني للخروج ، نتم الفرحة . جاملتهم واعتذرت . في داخلي شعور غامض متوجس يملؤني . رجفة تراودني بين الحين والحين كأن الفرحة شيء لا أطيقه ، أو حمل يرزح تحته كياني الضعيف ، أو كأني أنتظر في كل لحظة أن يحدث شيء مزلزل يذهب بكل شيء فيّ وفيما حولي . . . على كل حال وجدت عزائي في أن ألتزم الجدية والاتزان ، والتمسك بالرصانة ، مظهراً لقوة

محمودة يجب الحرص عليها . هكذا قضيت ليلة نجاحي في البكالوريا مع الحاج مهدي وزهروية ، نرسم خطوط المستقبل بالرمز حيناً وبالتصريح حيناً آخر .

* * *

مشهد ٧

(علية قوم كغاشي في قاعة البهو الكبير الذي مر وصفه ، يجلسون مصطفين على الجانبين يتوسط القاعة سرير شهراموش المذهب .
يظهر البابان المتقابلان للقاعة قرب مجلس شهراموش ، يفتح الأيسر منهما ، ويظهر منه زاهور مروض الوحوش ، يقف لحظة ، ثم يفرقع بسوطه ويتقدم متنحياً جانباً ، ويظهر خلفه من نفس الباب أسدان يتقدمان بهدوء ليأخذ كل منهما مكانه عند أسفل الدرجات المؤدية إلى سرير شهراموش ، يقفان قليلاً ثم يفرقع سوط زاهور ، فيقعي الأسدان ككلبين أليفين ، بعد لحظات يعلن مقدم العظيم ، ويدخل شهراموش فيقف له الجميع محيين ، بما فيهم الأسدان ، يجلس شهراموش ، ويومىء الجميع بالجلوس ويفرقع زاهور بسوطه فيجلس الجميع حتى الأسدان) .

ـ شهراموش (مشيراً إلى حراسه) : أدخلوا ذاك الدعي !

(يظهر الحكيم روزباه بين حارسين يسلمانه إلى زاهور الذي يسير به إلى

حيث يجب أن يقف على مبعدة من الأسدين).

ــ **شهراموش** (يحدق قليلاً في هيئة روزباه . في دهشة من وقاره وهيبته) : تقدم أيها العجوز من أنت ؟ وما إسمك ؟

ــ **روزباه** (يتقدم خطوة إلى الأمام بهدوء) : اسمي روزباه ، عابد معتكف .

ــ **شهراموش** : مع من تعيش ؟ هل لك زوجة أو أولاد ؟ .

ــ **روزباه** : إذا لم ينبت الغيث فليصقل حصى الأرض وليمسح أدران الخلائق !

ــ **شهراموش** (كالمتجاوز عن غموض الجواب): هل لك ممتلكات ؟ .

ــ **روزباه** : مملوك ربه لا يملك شيئاً .

ــ **شهراموش** (في حركة من يغالب تضايقه) لنخرج من هذه المتاهات . . . بلغنا عنك أيها العجوز أنك تصرح علناً بخروجك عن سلطتنا ، أو أن لا سلطة لأحد عليك . . . قل ولا تكذب .

ــ **روزباه** : (في ثبات) إنما يكذب من يرجو أو يخاف وما أنا بواحد منهما .

ــ **شهراموش** : تكلم إذن بدون مراوغات ولا غموض .

ــ **روزباه** : نعم، ولا .

ــ **شهراموش** : أفصح أيها الشيخ .

ــ **روزباه** : قلت ذلك صدقاً بغير لساني وعن غير شخصي .

ــ **شهراموش** : أفصح . . . مرة أخرى .

ــ **روزباه** : علمي بالأمر حرك به لساني ، وموضوعه لا يخصني .

ــ **شهراموش** : (متحفز في هيئة المتلهف أكثر مما هو في هيئة الغاضب) : أفصح بسرعة وإيجاز .

ــ **روزباه** : بيروز بنت السماء هي التي قالت ذلك .

ــ **شهراموش** : من ؟

ــ **روزباه** : أميرة سماوية نزلت بها رعدة في جبلي ، وظهرت

متخفية في زي راعية ، رأيتها مراراً مع راعيك مرقادو ، وقد قالت ذلك عندما سمعت مرقادو يتحدث عن خوفه وخوف الناس منك وخضوعهم لك .

ـ شهراموش : (متعجباً) تتحدث عن أنثى ؟!

ـ روزباه : نعم إنها ما تزال فتاة .

ـ شهراموش : (متأملاً) مرقادو أيضاً يعلم ؟ (يرفع وجهه إلى الحكيم) : أعد علي ما قالت تلك . . . ؟

ـ روزباه : تقول إنها سماوية ، ولا يمكن لسماوي أن يخضع لأرضي ، وأن بلاد الأرض لا حدود لها كفضاءات السماء ، فهي ليست في أرض أحد ، ومن ثم لا سلطة لأحد عليها .

ـ شهراموش : (يوقف روزباه عن الحديث بإشارة منه) : أريدها . . . وهاتوا الراعي أولاً ، ولا يغادرنا هذا الشيخ حتى نتأكد من قالته وقصده .

قال الراوي . . . ومثل مرقادو مرتعشاً في مجلس شهراموش وإن كان مطمئناً إلى خطة صاحبه الحكيم ، فأجاب عن لهفة شهراموش بما سبق أن تهيأ له من قبل ، ولم تحل عشية ذلك اليوم حتى كانت الأميرة بيروز تحت الحراسة في طريقها إلى شهراموش .

قال الراوي . . . ولم تكن بيروز هذه سوى الجارية الجميلة التي اقتناها مرقادو بمشورة صاحبه ، وقد ثقفها الحكيم بما يتفق وأهدافه ، كما أعلمها بتفاصيل خطته، وحاجته إلى مساعدتها وربما إلى تضحيتها ، وكانت ذكية طموحة ، فوافقت .

* * *

قال الراوي . . . وعقد مجلس عظيم ضم أصحاب المناصب وأعيان كغاشي وعلماءها ، تصدره شهراموش في مجلسه العتيد ، ولم يكد يستقر به الجلوس حتى طلب إحضار السماوية المدعية والشيخ العجوز روزباه والراعي مرقادو .

قال . . . كان الكل يتطلع بلهفة إلى ما سيحدث ، وزاد من تطلعهم ولهفتهم علمهم بأن شهراموش لم يكن يطيق النساء كما سيأتي بيان ذلك ، لدرجة أن قصره لم يكن يحتوي على امرأة واحدة ، أو فتاة على ما فيه من كثرة الخدم والحشم ، وكان الناس قد عرفوا ذلك من عظيمهم وألفوه ، فلم يكن يجري بمحضره حديث عن النساء . ومن ثم كان عجيباً حقاً ان يعقد مجلس رسمي لشهراموش تحضره امرأة بل من أجل إمرأة .

قال . . . ولكن الفضل يرجع إلى خطة الحكيم روزباه الذي شوقه شهراموش إلى الأميرة السماوية على حد تعبيره ، وجعله يرجىء غضبه عليها إلى حين الاستماع إليها . . . قال . . . ولم يكن بعيداً أن شهراموش ربما كان في باطنه قد تخوف من المكانة الحقيقية للأميرة فقد تكون سماوية بالفعل ، ولها سلطة ما ، وإلا فلماذا تخاطر بنفسها وتجر عليها هذا البلاء وهي لا بد تعلم عنه ما تعلم ؟! قال . . . ولم يكن بعيداً أيضاً أن شهراموش فيما بينه وبين نفسه يخامره بعض الشك في سماويته هو ، عندما تسمح له الظروف بالتفكير في أمره خفية على الأقل ، رغم أن تكرار الاعتقاد بذلك منه ومن غيره جعله أصلاً متأصلاً .

قال . . . أما ما كان من الأميرة بيروز فقد كانت تعلم عظيم ما هي مقبلة عليه ، ولكن ثقتها بمربيها الحكيم ، محررها وولي نعمتها ، وإخلاصها له ، وإيمانها بفكرته ، كل ذلك جعلها تتحمل كل شيء وتتهيأ له في سبيل ذلك .

قال . . . قيدت الأميرة إلى مجلس شهراموش على ما وصفنا ممن يحضر ذلك المجلس من أكابر وعلماء ، وكان شهراموش متلهفاً للتعرف على أمر هذه المرأة ، كما سبق ذكره .

قال . . . وأحضر الحكيم روزباه نفسه إلى هذا المجلس ، فلما مثلت بيروز تمالكت نفسها ، وأخفت اضطرابها من هذا الحفل الذي لم يسبق لها تصور مثيلة ، واطمأنت وهي ترى شيخها ومعلمها حاضرا

فأدت التحية بالإحترام اللازم دون أن يأبه شهراموش بتوجيه كلمة إليها ، وإنما أشار برأسه إلى الحكيم روزباه أن تكلم يا هذا .

قال . . . فتقدم روزباه نحو الأميرة بيروز وقال : « أي بنيتي ، لقد سمعت منك كلاماً سيكون رأسي ثمناً له ، وأنا عجوز مسكين ، فتكلمي بالصدق ففيه نجاتي ولعل فيه نجاتك أيضاً » . قالت : « ليهدأ روعك أيها الشيخ ، فما أنا بكاذبة ، ولا خائفة ، وما بي نية سوء وما مثلي من يخاف . . . » .

قال . . . فكان لفصاحتها ، وجرأتها وقوة بيانها ، وثبات جنانها وصراحتها ، وقع عظيم على القوم ولم ينبسوا ، وقالوا في انفسهم إنها لهالكة لا محالة . قال . . . رفعت بيروز رأسها إلى عظيم كغاشي ، والتفتت إلى المجلس يمنة ويسرة وقالت : « اعلموا أنني لم أعرف لي أبا ولا أما ولكنني عندما أدركت وجدت نفسي في قمة جبل . . . وفي الحين برز لي راع طيب قال إنه رآني أنزل من بين البرق والرعد ، فاختفى بي ، وأكرمني وقد عشت أتفاهم مع الفراشات والأزهار والطيور والنحل والنمل ، وكل ما خلق الله من حي أو جماد ، أعرف سر كل ذلك من حيث لا أدري ولا يدري أحد . وكان ذلك الراعي المسكين وهو الذي ترونه هنا في المجلس يمر بي بين الحين والحين ، فيؤانسني ويناولني من زاده . وإنه ليشهد بأن حاجتي إلى الزاد كانت قليلة ، فالكسرة والجرعة كانت تكفيني أياماً دون أن أشعر بجوع أو عطش . ولا أذكر أنني عانيت تعباً أو مرضاً ، ولا خوفاً أو طمعاً . وقد علمت من الراعي مرقادو الشيء الكثير عن هذا البلد الذي يسمى كغاشي وعن غيره من البلاد ، ومن ذلك ما ذكره لي من أن الناس هنا وهناك يخاف بعضهم بعضاً ، وأنهم طبقات ، أرزاق بعضهم بأيدي بعض ، وأن لا استثناء لهذه القاعدة عند بني الأرض ، فحتى أولوا السلطة والأرزاق المتحكمون والمخيفون يخافون بدورهم من هم أعلى منهم، أو من الهة أكبر يتصورونها أكثر تحكماً وبطشاً ، أو من تقلبات الأيام والظروف . . . فيتضخم الخوف ويتكاثر أجناساً وأنواعاً ، ويولد زيادة احتكار وتسلط

وصراع . . . علمت كل هذا وعلمت في نفسي أنني بعيدة عنه بعداً مطلقاً ، مفارقة لكل ذلك معارضة له ، إذ لا يخامرني خوف أو طمع ، ولا رهبة أو رغبة ، ولا يمكن أن تكون لأحد علي سلطة ، فأنا بذلك فوق السلطة والحكم والجوع والتعذيب ، بل إنني أشعر بأن سلطتي لا حدلها على نفسي أولاً ، لما سبق أن ذكرت من انعدام معاناتي لأي من مشاعركم الأرضية وعلى الغير ثانياً ، لانني لا يمكن أن أتصور إلا أن سلطتي المطلقة على نفسي ، هي في نفس الوقت منبع سلطتي على الغير، إذ هل من كائن مهما كان من بني الأرض أن يمارس عليَّ أية سلطة إذا كنت لا أرغب ولا أرهب ، لا أطمع ولا أجزع ؟! وقد سمعت أن عظيم كغاشي نفسه يخيف الناس بقوته وبطشه فعلمت أنه أيضاً يخاف ، بل يمكنني حسب ما هداني إليه التأمل والتفكير ، أن أقول بالنسبة لأي زمان ومكان ، إن الرغبة والطمع أصل الخوف ، وأن خوف الحكام والمحكومين هو أصل خوف سائر الناس . . . وقلت في نفسي لن يوجد إذن في كغاشي شخص سليم من الخوف حتى الحكيم روزباه ، الذي تعرفت عليه فيما بعد ، والذي كان أحرى الناس بألا يخاف . . . ولا أتحدث عن مرقادو الراعي المسكين ولا عن قطعانه ، فهو وهذه القطعان تجسيد لكل ما يمكن لمنظومة الخوف الشامل أن تحققه في بني الأرض من إنسان وحيوان على السواء . . . قال . . . كانت الأميرة بيروز تتكلم بثبات ورباطة جأش لا نظير لها . فلما أتمت كلامها التفتت نحو روزباه الحكيم الذي كانت علامات الرضى والارتياح تشع من عينيه ، وقالت : هل هدأ روعك الآن أيها الشيخ العجوز ؟ هل هذا ما حدثتك به أم هناك شيء أخفيته ؟ إذا كان الخوف لم يذهب ببقية حجاك، فاشهد بما علمت .

قال . . . كان القوم سكوتاً جامدين كأن على رؤوسهم الطير حتى شهراموش نفسه لم يحرك ساكناً ، ولكن لم يكن خافياً على أحد أنه يدير في رأسه فكرة اعدام هذه المرأة حالما ينتهي كلامها ، على أقصى تقدير ، وأنه إن كان يتردد ، فتردده بدون شك إنما يدور حول طريقة

إعدامها ومن معها من أتباعها وأصدقائها . . . أما الحكيم روزباه فقد تحرك عندما وجهت إليه الأميرة الخطاب ، وبدأ كلامه متصنعاً التردد والتلعثم ، وقال : بعد استئذان عظيم كغاشي في الكلام : « أتوجه إليك يا ابنتي ، لقد نطقت بالصدق ، وجئت بما سبق أن أخبرتني به ، وأخبرت به عنك ، على احسن وجه من الصراحة والوضوح . فأعتقت روحي إذ نجيتني من تهمة الكذب عليك ، وعلى عظيمنا ، وهي تهمة ما كنت لأرضى أن يتوج بها شيبي وتكون ختام حياتي . . . وإذا سمح لي بالاسترسال في هذا الحديث ، فإني أقول بأنك صدقت فيما وصفتني به من الخوف الذي يعتريني رغم سني وحكمتي وانصرافي عن متاع الدنيا . . . فما كان إفشائي لسرك أولاً ، ولا كان رجائي إليك لتقولي الحقيقة ثانياً ، بمحضر هذا المجلس الموقر الا تجسيداً لخوفي من شيء غير واضح في ذهني تمام الوضوح ، قد يكون الخوف من الموت أحد جوانبه ، أو الخوف من الحاكم أو غير ذلك . وأشهد الآن أنني بقدر ما عرفت من علمك ، بقدر ما أعرف الآن من خلقك ، وبقدر ما أشعر في أعماقي أن أخزى المخزيات لمثلي أن يستشعر الخوف كيفما كان جنسه ونوعه عند أول امتحان يعرض له . وقد قررت وشعرت بأنني قادر على إثبات ما قررته ، ألا أخاف شيئاً ، وأن أقول ما أراه حقاً وصواباً مهما كانت العواقب ، أقول يا بنية إن مجيئك الغامض إلى بلدنا هو تدبير خير كبير يراد لهذا البلد إذا عرفنا كيف نستفيد منه .

قال . . . ثم توقف الحكيم عن الكلام قليلاً ، ورنا إلى المجلس المطبق على صمته ، واستأنف قائلاً : إن هذا جوهر ما أشعر به ، ولي نظر مفصل في الموضوع أرجو أن يصادف الصواب وسأبوح به عندما يحين الوقت المناسب لذلك .

قال . . . لم يصدر عن القوم صوت ، ولا نَدَّ حِسٌ. الكل صموت جامدون كالأموات في انتظار إشارة عظيمهم أو علامة تفتح الطريق ، قال . . . واستطال الزمان بالقوم ، حتى بدت ثوانيه دهوراً

قبل أن يتحرك شهراموش ، ويخرج من تأمله مصدراً أمره بعودة مرقادو إلى قطعانه ، وإبقاء الشيخ تحت الحراسة بأحد قصوره ، حتى يرى رأيه .

* * *

قال الراوي . . . وظل شهراموش يقلب الرأي على وجوهه ، ويستشير أعوانه وأصحابه ، فمرة يرجح رأي القائلين باستئصال الشر من جذوره ، والقضاء على هذه المدعية الوقحة وكل من ينتسب إليها ، ومرة يبرز رأي بسجنها أو إبعادها . ولكن ، ماذا لو صدق رأي الحكيم روزباه ، وأمكن لعظماء آخرين ، في بلاد أخرى ، الانتفاع من وجودها بينهم ، وماذا لو فرط فيها ، وفاتته بالفعل فرصة الاستفادة من وجودها ـ إذا كانت سماوية بالفعل لخير كغاشي وعظيمها ؟

قال . . . وقد يعجب المرء كما عجب لذلك أعوان شهراموش ، من همه وتردده ، بل وعجزه ، غير المعهود عن الحسم والبطش ، هو الذي بنى عزه ومجده على ذلك .

قال الراوي . . . والواقع أن ما يمكن أن يعتبر سبباً في أزمة شهراموش ، هو أنه بالفعل كان أكبر معان للخوف رغم ظاهرة المخالف ، ومن يدري ؟ فقد يكون موقفه الغريب من النساء تعبيراً عن خوف غريب كذلك ؟!

* * *

يجب أن أجد وظيفة ، هذا أساسي ومستعجل . وفيما عدا هذا أبحث لنفسي عن أية دراسة مسائية تناسب ظروفي ، الخطة تلقى أكبر الترحيب من الحاج مهدي وزهروية . . . وبنت الخالة . . . يكبرون في كائني الضعيف ، هذا الفكر الجبار المتروي . تعثرت في الشهرين الأولين . خانات السجلات الإدارية تسكن في ذهني في الفراش ، تنام معي وتفيق . اهتممت بأن أحقق إن كان مثلث سيري متساوي الساقين ، من الدار إلى الإدارة ، إلى المدرسة المسائية .

كل رفاقي من الباكالوريا انتقلوا إلى العاصمة لمتابعة الدراسة . لم أكن راغباً في اجتلاب أصدقاء جدد في دراستي المسائية الجديدة . كنت أشعر من أول يوم بأن الوقت جد ضيق . بأن لا وقت لي للأصدقاء . في الإدارة رفاق كلهم أقدم مني ، ويجب أن أثبت مكانتي بتقصير مدة احتياجي إليهم في فترة تمريني . مرة ، في مكتبنا نحن الثلاثة ، أفقت على ضحكة مشتركة من حميد ومسعودي : (ارخف شوية على رأسك) طوال ساعة وربع ظلا يراقبانني ، فلم أرفع رأسي ، أو أحرك بصري عن السجلات . من الدار ، شعرت بأن المطالب التي علي قد ارتقت إلى مستوى آخر . لم يعد مطلوباً مني أن أصبح بنتاً ، ولا مجال لأن أحاول ذلك الآن . بنت الخالة عائشة ، الله يبيض سعدها كفاية وفوق الكفاية . الآن ، أنا رجل ، موظف عاقل . . . هذا الكيان الهزيل ، هو الآن رجل موظف عاقل جداً ، براتب شهري يدفعه كاملاً أو كالكامل إلى زهروية ، تقدمه بدورها إلى الحاج مهدي يقربه عيناً . هذا الولد كنز . نقرة صافية ، ذهب خالص ، ورجل ، الله يحفظه ويرضى عليه .

الحاج مهدي بثاقب نظره كان يتوسم في مطلع الخير ، ويتوقع أن أكون ما كنت وما سأكون .

عندما احتاج بعض النقود القليلة التي لا مصرف لها عندي ، إلا ثمن حافلة النقل وشطيرة ما بين الإدارة والمدرسة مساء ، فان زهروية تدفع لي ذلك بابتهاج وسرور . كلنا لك يا ولدي ، كل شيء منك وإليك .

عبد الله يزورنا بين الحين والآخر ، في أوقات العطل خاصة ، الحديث لا يدور عليه كثيراً منذ نجحت ، وتوظفت ، رغم أنه الله يرضى عليه ، لا ينسى أهله ، وما ينفك يرسل شهرياته ، المثلث متساوي الساقين تقريباً متساوي الأضلاع تقريباً ، وخطوي فيه منتظم مضبوط .

اخترت لدراستي المسائية مادة الرسم الميكانيكي ، مدرستي كانت صناعية ، أصلها فيما وراء البحر وفرعها في الوطن . كان مدرسي الأجنبي في الثانوية يلح كثيرا على أهمية مثل هذا التخصص ، الذي لا نلتفت إليه كثيراً في بلدنا . دروس بالمراسلة وأخرى توضيحية وتطبيقية بالحضور المسائي . تعثرت في الشهور الأولى . يختلط في ذهني إيقاع السجلات الإدارية ، وتقاطع الخطوط الهندسية في النقاط المركزية .

* * *

عائشة ، يبيض سعدها عيننا ويدنا وقلبنا . الحاج مهدي ما خيب الله ظنه ، رزق بنتاً من صلبه في آخر عجزه وحياته ، وأكثر من بنت صلبه . ليقر عيناً بعائشة الغالية . وأين البنت التي تعمل عمل عائشة بهذا الرضى وهذه البسمة والحذق ، وهذا التفاني والتحمل والإخلاص ؟ باسم الله عليها ، في يدها وفمها عسل . لا تنطق إلا حلوا طيباً . وكل شيء لمسته ، أصابته حلاوتها . الحاج مهدي لا ينام ولا يفيق دون أن يرسل عبارة تطمئنه عليها . وهي ، عائشة المرضية المهدية ، لا تغفل عنه طرفه عين ، لا ترتاح ولا تفيق إلا على راحته ونظافته وأكله وفراشه . زهروية المسكينة البائسة أدركتها نعمة الله الشفيق الرحيم ببنت الأخت الحلال . الطيبات للطيبين كما يكرر الحاج مهدي . اسمع يا كبير العقل ، يا أعز من ولد ، هل تقبل أن تفرط في خيرنا لغيرنا ؟ لا . وأنت العاقل ، ألف لا . هذه بنت لا يستحقها على وجه الأرض غيرك . الطيبات للطيبين . النقرة للنقرة ، والنحاس للنحاس . كل لمعدنه . عاقلة وزينة تبارك الله . قد وقامه . وبنتنا منا وإلينا . خالتك لن ترد لنا طلباً ، ولا تطمع في أكثر من ذلك . أنت ما عليك إلا القبول فقط ، والباقي على زهروية والحاج مهدي ، الله يمتعه بك وبذريتك الصالحة . خبيزة الوالدين كلها عندك ، حزتها عن جدارة ، مرضاتها لك غطاء وفراشاً . ونتمتع برؤية ذريتك . . . من يدري يا أعقل من ولد ، من يدري ؟ أبوك الحاج مهدي في آخر أيامه

وعجزه . روحه متعلقة برؤية ذرية أولاده وأنت أعزهم عليه . حرقة الغائب محمد زادت ما به ، جرحها القديم لا زال ينز . . . ثم عبد الله وغربته ، وانت أنت الصغير والذخر الكبير ، تداوي الجراح ببركة الرسول الكريم ، وبنت خالتك عائشة تحبك . اسأل أمك زهروية تخبرك . هذه أمور لا تفهمها أنت ، أمك زهروية عزيزتك زهروية تفهمها . وهل من أحد يحب الخير ويرجوه لولده أكثر من والديه ؟ وهل يمكن أن يفكر عاقل بغير بنت خالته حشمة وحياء . . . وكل شيء ؟ أم نفرط في خيرنا لغيرنا ؟ الطيبات للطيبين . كلام الحاج مهدي ذهب . وافرض اننا لم نخطب عائشة وفرطنا في خيرنا ؟ هل تبقى معنا وإلى الأبد هذه الدرة الغالية ؟ الخطاب يا عزيزي يطرقون باب خالتك صباح مساء ، كلما جاءت خالتك قالت جاءها خاطب ، أمك العزيزة زهروية ، المسكينة تبكي وتنوح على خالتك من أجل إبقاء عائشة معنا . يا أختي يا بنت أمي لمن تتركين أختك بدون عائشة ؟ كيف تعيش زهروية بدونها ؟ لو رزقني الله بنات ما احتجت لأحد .

الحمد والشكر لله على كل حال . يا بنت أمي ارحميني . . اتركي لي عائشة ، أنسيها . هذه ابنتي أنا . أنسيها . تبكي خالتك أمك الثانية العزيزة وتبكي زهروية ، وتمضي الخالة وهي تدعو بالخير والتوفيق . يا عزيزتي ، توفيقك كله ما كان منه ومايكون بحول الله ، كله من دعائنا لصالح لك ، وبفضل عائشة التي لا تنام ولا تفيق إلا باسمك ، وعلى ذكرك ، أمك زهروية تعرف الكثير من الأسرار . طول نهارها مع عائشة ، وأنت غائب ، طول نهارها وعائشة تسأل : يا خالتي ، أحمد يحب هذا أم ذاك . . .؟ القهوة بالعطرية أم بالحليب . . .؟ الساخن أم البارد . .؟ يا خالتي أعطيني قميص أحمد ، أنظفه الأول ـ يا خالتي ميعاد دخوله اقترب . . . ميعاد خروجه . . . يا خالتي . . أحمد . . أحمْد . . . طول النهار . من هذه الناحية اطمئن يا أعز من ولد وأعقله . واطمئن تماماً ، فلا خوف أبداً . تحبك تحبك تحبك ، وأنت من جهتك تحبها تحبها . لا بد أن تحبها وتحبك ، ما شاء الله عليها ، قمر قمر . لا

يملك إلا أن يقع في حبها كل من رآها . بنات الحلال مثل عائشة ياقوت نادرة في هذا الزمان ، زمان الغش والكذب والفساد . بنات الغش والكذب والفساد . سرح عينك واحكم بنفسك يا أعقل من وُلد ، أبوك الحاج مهدي نفسه ، وأنت تعرف الحاج مهدي ، ماذا كانت عقبة أمره لو لم يجد بنت الحلال الأولى أمك زهروية ، وأولاد الحلال منها أمثالك ؟ النساء غدر ومكر ودسيسة إلا القلة القليلة من بنات الحلال ، والعاقل يعرف كيف يختار بعين العقل ، وعين العارفين الناصحين ، وخير البر عاجله، أبوك يرضي عليك وعليها ، ومرضاة أمك إلى مرضاته ، إن شاء الله بعونه تتزوجها وتصلح وتخلف منها ذرية صالحة ، وعلى بركة الله يا عزيزنا ، قم يقوم معك الفرح والربح والسعادة . قم باسم الله الرحمن الرحيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . الحمد لله رب العالمين .

* * *

عين جديدة تتفتح على بنت الخالة ، نفس الشيء من جانبها فيما أعتقد . أصبحت تتهرب من مقابلتي كأنها تحتجب . لا تظهر إلا عند الضرورة ، لم يكن صعباً علي أن أدرك أنها خوطبت بمثل ما خوطبت به ، عين جديدة مني تراقبها كلما غفلت . عين منها تراقبني أحياناً تلتقي عيوننا السارقة فتردها في الحين . زهروية بين الحين والآخر تناديها بحركة مسرحية مصطنعة لتناول شيئا ، أو تقوم بشيء بمحضري ، تنجزه الأخرى بسرعة وتنصرف يتبعها دعاء أمي بالخير والبركات وتعداد حذقها ، قبل أن تلتفت وتغمز لي مبتسمة . كرهت منها ذلك . كانت تحيي في مخيلتي باستمرار ذكرى مقيتة لقوادة محترفة في درب البشير .

حفل بسيط ، العرس في قلوب الأحبة . عائشة منا وإلينا . كل شيء منا وإلينا كلنا أصابع يد واحدة . الصداق لاحد لأقله ولا حد لأكثره . الفرحة الكبرى ، فرحة العمر الأخيرة للحاج مهدي قعيد الفراش زهروية تولد ، من جديد ، تقبل عبد الله وتقول العقبى لك

قريباً ببنت خالتك الأخرى . سطح الدار ، فوق الفوق . ألف من قديم أن يشهد لعبة العرس ، اجتمع فيه الأحبة تحت غطاء كالخباء ، دعوت بعض زملائي في الدرب . من زملاء الإدارة لم يكن عندي غير حميد ومسعودي ، رفيقي المكتب ، سي سليمان بكيانه القصبي العتيد يشارك في خدمة الحاضرين ، بعد ان جاء الزمان على الجراح القديمة بينه وبين زهروية على الأقل . كان بين الحين والآخر يأسف على حال جاره وحميمه الحاج مهدي .

فرحة عادية جداً ، بسيطة المظهر ، لم أشعر أنها تمسني أو تكاد تعنيني . في تصوري أن الشيء الذي يمسني بعمق ، يجب أن أتأمله طويلاً على مسافة مني ، أتهيأ له وربما أشقى من أجله وأتعب عليه ، هنا كل شيء معد ، مهيأ ، العروس منا وإلينا ،العريس كذلك . . . بعبارة زهروية والخالة والحاج مهدي . . : البنت بنتنا والولد ولدنا . الغرفة الثالثة التي خصصت لنا هي نفسها التي كنت أنام فيها وأجلس من قبل مع إخوتي قديماً جداً ؟ ثم وحدي فيها بعد رحيل عبد الله ومحمد قبله . التغيير الوحيد الذي أدخل عليها لا يزيد على إطار خشبي للسرير القديم ، ومضربة مع الحفة جديدة لنفس السداريات القديمة ووسائد وزربية سباعية وخزانة بمرآة .

أول مشاعر التهيب الجديدة التي خامرتني في هذه الليلة ، بدأت مع انصراف آخر المدعوين . وقد شرعت النساء تزغردن وتخلين دار العروسين ، الأمر يهمني إذن ، بدأ التهيب يغشاني . بين جدران أربعة ، على بعد خطوات ، تنتظرني فتاة مهيأة في أحسن زينة ، هي منذ الآن إمرأة أحمد . الحاج مهدي لفظ رغبته في عباراته الخافتة ، التي تنقلب مباشرة إلى أمر يطاع ولا يناقش ، بأن يتم كل شيء بهدوء ، وأن تختصر ضجة العرس إلى حدها الأدنى ، حفاظاً على روح يبدو أنها خفت ، وأصبحت قلقة في كيانه يخشى أن تطير لأي حادث يهزه أو يهزها .

حليمة امرأة السي سليمان الجديدة بحكم قربها ومكانتها كانت وحدها آخر من كلمني بالتشجيع نيابة عن زهروية ، التي كانت تدعوها الأصول لتختفي الآن ، بقيت وحدي . انصرف الكل . الباب الخارجي للدار أغلق . لغط النسوة يتناهى من دار سي سليمان فوقنا . توقفت من الداخل قرب الباب الخارجي المغلق ، ظهري إلى ظهره . أمامي الباب الداخلي الفاصل . ظللت متوقفاً لمدة طويلة بين البابين المغلقين ظهري لظهر أحدهما ووجهي لوجه الآخر . لا بد للتوقف من نهاية . تقدمت خطوتين ، ثلاثاً . . . اجتزت الباب الفاصل ، دفعته خلفي بأناة ، وتوقفت من جديد ، على يساري غرفة الحاج مهدي مغلقة ينم الضوء من شقوق بابها . في الوسط غرفة فارغة الآن ، وعلى اليمين غرفة العرس مفتحة المصراعين ، يسدل على بابها ستار وردي يشع الضوء من ورائه واهناً وردياً كذلك ، وتفوح منها روائح العطر والأبخرة الزكية ، يجب أن أتقدم . فعلت بتروّ ، رفعت ستار الباب . ألقيت التحية . تقدمت خطوتي الأولى نحو صدر الغرفة ، حين انتفضت رغماً عني . هزتني سعلة فطومة من الحاج المهدي كأنه وراء كتفي ! توقفت مذعوراً والتفت ، تمالكت نفسي ، وعدت للباب . رفعت الستار أتطلع لما وراءه . لا أحد . أطلقت الستار وأغلقت الباب بالرتاج من الداخل . فعلاً ، كانت سعلة الحاج مهدي تتناهى إلي مخترقة الجدران ، تقدمت نحو عروسي . قبلتها قبلة الجبين . قمت أفتح المذياع بحثاً عن محطة مرحة ، أغطي بها عن استبداد سعلة الحاج مهدي بي . لم أنجح نسبياً في ذلك . ولم أنجح بتاتاً فيما يجب أن أنجح فيه تلك الليلة .

* * *

طال بي الليل . طال بي الصبح . طال بي العذاب . حضوره القوي في نفسي يشتت كل شيء في آخر لحظة ، يعود به الى الصفر . لم تعد سعلته وحدها تضج في سمعي ، بل حركاته القديمة والجديدة ، كيانه الضخم وعنفوان القوة بالأمس يشير ويأمر ، وهيكله المتهالك اليوم

يسعل ويحمحم . قيل بي سحر ، أو بها مثله ، نوعوا الأبخرة والتعاويذ . ذهب الحياء عن زهروية ، والخالة وحليمة . سي سليمان ، ونسوة أخريات اختلطت علي وجوههن . لا حياء في الدين ، يسألن عن حالات جد خاصة ، جد صميمية ، يفحصن بأيديهم وألسنتهم أجزاء منك تشتت فيك الرجولة والكبرياء ، نوعوا الأبخرة والتعاويذ . جاء ولد سيدي بن علي الشواف بعظم كتف . . أكد أنه (سحر ثقاف) اعترفت الخالة . نعم ثقاف لبنتها لكنها حلته منذ ليلتين ، وهي مستعدة لإعادة حله أمام ولد سيدي بن علي مرة أخرى لتبرىء ذمتها . وفي الحين قامت تبخر عائشة ، وتدمدم على رأسها بالأدعية وأسماء الأولياء والصالحين ، من هذا البر وذاك البر . تركت العروس واقفة ، وجاءت بكأس ماء نضحتها به من كل جانب . . . نضحت به الطريق أمامها ولسانها لا يكف عن الدمدمة . طلبت علبة كبريت جديدة ممتلئة لم تمس ذخيرتها بعد . . . أدخلت رأسها والعلبة تحت ثوب العروس ، واختفت مدة ، لا يدري أحد ماذا كانت تفعل أثناءها . لكن ولد سيدي بنعلي فيما يبدو كان عارفاً ، وربما الأخريات أيضاً . . . يبدو في الظاهر من خلال حركاتها تحت الثوب أنها تقتلع شيئاً خاصاً من اللباس التحتي للعروس ، قد يكون خيطاً . . . أو شعرة بطن . . . أخرجت رأسها أخيرا . قامت وعدت أشباراً على الأرض أمام العروس ، ووضعت علبة الكبريت مغلقة ووقفت بجانب ابنتها ، وأمسكت يدها ودعتها إلى ان تخطو فوق العلبة . بمجرد ما أنجز ذلك ، اختطفت العلبة . أخرجت حقها الداخلي ، وأفرغته من محتواه ممسكة بحزيمته باصابعها ، ثم أشعلتها مرة واحدة ، بجمرة من بخور العود القماري : ثم أطفأتها ، ثم خرجت تشتت خشيباتها في كل اتجاه مع التبخير والدعاء وعادت ، في إحدى يديها الحق الداخلي للعلبة ، وفي اليد الأخرى غشاؤها . . عرضتها أمام أنظار الجميع الشهود ، أرتهما منفصلين ورمت أحدها في الجمر حتى إذا تم احتراقه ، رمت الثاني بعده ثم نهضت تنفض يدها كمن ينهي مسؤوليته .

الكرة الآن في الطرف الآخر . عند زهروية . ولد سيدي بن علي يؤكد ان العروس الآن خالية ، بقدرة أسلافه من كل شوائب السحر والثقاف . الشائبة الآن في العريس ، شعوري بالإنهاك لا حد له ، وطنين الرأس والضجيج والرؤية المعتمة . . النهار ضحى أو جاوز ذلك . وليلنا لا تبدو له نهاية . أبخرة وتعاويذ ، في أبخرة وتعاويذ . سيغلقون علي الباب لننفرد. قبل إغلاقه ظلت زهروية برهةإلى جانبي . ذكرت الحاج مهدي وأنه سيموت هما وكمداً إذا عرف الحقيقة . لم يخبروه بعد ولا يجوز (بوك في ليلتنا كان راجل . . .) توقفت بعد ذلك . انتبهت إلى نفسها . ذهب الحياء ، ويلها وويل الحاج مهدي مني . لماذا ذكرته في هذه اللحظة بالذات ؟ لتؤكد حضوره وتشجعني بالخوف منه ، كأنها لا تعرف أن حضوره المستمر هو عذابي . مع ذلك شعرت من خلالها أنه يصدر إلي أمراً يجب أن يطاع بمجرد ما تغلق علي الباب . وللمرة الأولى جاءت نتيجة الأمر المباشر العتيد معكوسة مئة بالمئة . موت يعني موتاً . برودة الحديد لا أقل ولا أكثر . . نفضت أمري من كل محاولة إضافية بعد شدة الإرهاق . تركت الحاج مهدي يملؤني بحضوره القوي كما يشاء. . . ويدخل بها بدلاً مني إذا أراد أن يريحني . وجدتني أفكر فيه ، لو كان مكاني. من يجرؤ أو يقدر على عالمه ؟ من يستطيع أن يفسد عليه ليلته أو يشتت فحولته ؟ زهروية ما تزال تحمل لوحة منقوشة من ليلتها ، تستحضرها معتزة به وبنفسها . ليلته مع فطومة كنت شاهدها بالأمس القريب ، عالم يضج حوله من تحته ومن فوقه بالويل والثبور : زوجة سي سليمان القديمة إذ ذاك مغلقة عليها غرفتها كالقبر ، كحاله هو الآن ، ترغي وتزبد في داخلها ، يتناهى إليه سعالها وولولتها دون أدنى أثر فيه ، وزهروية صدى صراخها يتجاوب في أرجاء الدار وخارجها . . . ونساء الدرب كلهن حولها يرتفع لغطهن ويسترقن الأسماع إلى ما يمكن أن يحدث في غرفة الدخلة من مفاجآت . . . لم يحدث شيء . عمل الرجال أنجزه الرجال بهمة وثبات . . . وفي الصباح خرج الحاج مهدي بنفسه مشرقاً ليقتني إفطار العروس بنفسه من

شفنج ، وحلويات مدهونة بالزبدة والعسل ، وجوز ولوز وتمر وقهوة جاهزة بحليب . . عاد بذلك ودخل به على عروسه ، كما دخل عليها بالطست والماء لتغسل وجهها وتوقظ حواسها .

حقاً لم أعد قادراً على أن أفكر بشيء حتى بالعروس الممددة جانبي ، لا نائمة ولا يقظة في إرهاق غير ظاهر . ما أقدر عليه هو الشيء الوحيد الممكن : أن أترك حضور الحاج مهدي يرتع في مخيلتي كما يشاء ويحلو له يمنع عني اليقظة والنوم ، والراحة والتعب جميعاً .

* * *

أسبوع قد اكتمل أو أوشك أن يكتمل . نصحني بعض الزملاء بالخمر ، وبعضهم فضل الكيف . لم أكن قادراً على أن أجرب ذلك أو أقبله . وفضلت انتظار النتائج . أعرف الآن أن الحاج مهدي يعرف ، ومن لا يعرف ؟ لم أره ولا شعرت بالحاجة الى ذلك . كان المنتظر أن أصبح في يومي الأول ، مشرقاً منتعشاً فأتوجه إلى غرفته وأقبل رأسه ويديه وأعلن بغير لسان ، بالخجل المحمود والتواضع والحياء ، أنني منه ، فحولتي من فحولته ، حتى زهروية لم تلح علي في شيء من ذلك طيلة الأسبوع ، كأنها تشعرني ضمناً بأن لا شيء قمت به يستحق ذلك الشرف . مشكلتي في جميع الأحوال كانت مع نفسي . كيف أمنع عني حضوره ، دخوله معي الفراش بيني وبين عروسي .

* * *

كل شيء يصبح معتاداً مع الزمان ، حتى حضور الغير في اللحظات الصميمية ، عائشة الآن زوجتي ، تتحرك بإرادتي ، وأنا رجل موظف ورب أسرة . زاويتا المثلث المتساوي الساقين تعادلتا ككفتي ميزان ، يحتل أحداهما الحاج مهدي وزهروية ، ويحتل الأخرى أحمد وعائشة وخطوي بينهما ، على قاعدتها الأزلية ، منتظم مضبوط .

كل يوم قبل أن أخرج ، تكون عائشة قد صحت قبلي بكثير لإعداد فطوري . كل مساء أعود ، فأجدها تنتظرني بالعشاء ، حتى ولو

تعشت زهروية والحاج مهدي ، وسكنت حركتهما في الغرفة .

في الزوايا الثلاث . الإدارة والدراسة الليلية ، والدار . تسير الأمور وفق المتوسط العتيد . الرئيس راض عن استماتتي في الواجب. انهيت فترة التمرين وترسيمي في وظيفتي على الأبواب . فزت أيضاً بنجاحي في الدراسة الليلية وسأنتقل الى السنة الثانية . وعائشة حبلى .

أراد الحاج مهدي أن يسميه مهدياً . حاج مهدي صغير في المهد بكيان أحمدي ضعيف . وضعته عائشة وهرولت به زهروية في الحال للحاج مهدي الكبير يكحل به عينيه . حضر عبد الله مناسبة العقيقة وبارك أبوتي . وجدت زهروية فرصتها الذهبية لتستعجل عبد الله على خطبة ابنة الخال الأخرى وهي أيضاً ما شاء الله عليها . . . زين . . . قد . . . وقامة وأصل والطيبات للطيبين . . وتكتحل عيون الحاج مهدي وزهروية بأولاد عبدالله اكتحالاً لا يعوض عن الغياب الأبدي للبكر محمد ، أعاده الله سالماً . ولسبب لا أفهمه إذ ذاك ، ولا تفهمه زهروية يتملص عبد الله . ويجد في ضيق الوقت ، وضرورة ارتباطات خاصة بشغله ذريعة لتأجيل الموضوع والسفر في الحال .

* * *

قال الراوي . . . أخيراً استقر رأي شهراموش على حل وسط ومؤقت ، فأمر بامتحان الأميرة . . . وهكذا عقد مجلس اقتصر حضوره على أكابر العلماء من بعض رجال المناصب والمستشارين . وقد برزت بيروز في هذا المجلس كالمعهود فيها من ثبات وقوة وبلاغة ، فأجابت عن كل ما عرض عليها من أسئلة ومشاكل تفوق علم زمانها في شتى الموضوعات من علوم الفلك والبحار والزراعة والطب والدين والأدب والفن والتربية والسياسة . . . وفي كل هذه العلوم كانت لها الكلمة الأخيرة على علماء كغاشي وحكمائها ورجال الحكم فيها . فلما بدا ذلك واضحا ، كما بدت واضحة حيرة شهراموش الذي يبدو انه كان يعول على نتائج هذا الامتحان ، ليجد لنفسه عذراً في حرفية المتصرف بمصير

الأميرة . طلب الحكيم روزباه الكلام ، وكان صامتاً طوال هذا الامتحان فتناول الحديث شاكراً عظيم كغاشي على حلمه وصبره ، ورجاحة عقله وسماحه له بالكلام بعد ذلك . ذكر روزباه أن لديه سؤالاً بسيطاً يريد أن يتوجه به إلى مجلس العلماء المحترمين بعدما سمعوا من الأميرة بيروز ما سمعوا ، ورأوا منها ما رأوا . وصاغ سؤاله قائلاً : أريد منكم معشر العلماء الأجلاء أن تجيبوني بشرف وصراحة : هل ألفتم أن تجدوا في متعلم أو عالم مثلما وجدتم في هذه الأميرة ؟ وهل لكم مأخذ على كمال خلقها ، ورجاحة عقلها ، وتمام علمها ؟ إني أريد منكم جواباً صريحاً بلا خوف من أي شيء أو على شيء ، أم أنكم ستخافون من إعلان الحق في موقف لم تخف فيه امرأة ؟

قال . . . فلما وجه سؤاله هذا ، وجم العلماء واحتاروا في أمرهم لعدم تأكدهم من اتجاه ورغبة شهراموش ، ولم يزدهم تذكير روزباه لهم بالخوف وعاقبته إلا رهبة . وأدرك شهراموش الموقف فخرج عن صمته ناهراً إياهم في موطن يفضل فيه الصراحة ، وإعلان الحقيقة ولا يرضى عنها بديلاً ، حينئذ اطمأن القوم وأعلنوا فرادى وجماعات ، أنهم لم يسمعوا من هذه الاميرة إلا علماً يضاهي ما عندهم ويفوقه ، وأنها قد حازت الكمال خلقاً وعقلاً على نحو لم يعهدوه في بشر على الإطلاق ، فكيف بأمرأة ؟

قال الراوي لم يفاجأ شهراموش بأجوبة القوم ، فقد كانت الحقيقة واضحة بنجاح الأميرة بيروز ، ولعله أوشك أن يسلم بهذا النجاح ، ويتخذ ما يستلزمه من قرار حين تقدم همشير صاحب العصا ، وقال : إذا سمح عظيم كغاشي ، فإن لي كلمة . فلما أذن له شهراموش ، ذكر أنه مثل سائر من في المجلس ، قد أخذ بعلم هذه الفتاة الغربية ، بيد أن متسعاً من السؤال لا يزال له ولبعض أصحابه ، وأنه يريد أن يطرح أسئلة أخيرة على هذه الفتاة ليعرف جوابها عنها .

قال الراوي . . . وكان كل من همشير صاحب العصا ، وشيهوك

صاحب الملح ، قد فكرا قبل عقد هذا المجلس وقلبا الأمور على وجوهها ، في حالة نجاح الأميرة أو رسوبها في هذا الامتحان . فلقد كان هذان الرجلان ومن معهما يشعرون بخطر عليهم من كل ما يجد ، وكانوا على علم بطباع شهراموش ، متخذي العدة ليبقى كل شيء على حاله ، ولتستمر الأمور كما هي ، والآن وقد ظهر تجلي هذه الغريبة ، فما عليهم إذن إلا أن ينفذوا الجزء المناسب من مخططهم لمواجهة الموقف . حتى لا تنفلت الأمور من أيديهم .

قال . . . تقدم صاحب العصا من بيروز ، ونظر إليها باستهانة واضحة ، وخاطبها : لقد سمعت من علمك ، ولكن الأسئلة التي طرحت عليك لا تساوي شيئا بجانب علم آخر، ولهذا فإني سائلك ان كنت عالمة بل وسماوية كما تدعين ، كم عدد نجوم السماء ؟ قال . . . لم يكن السؤال منتظرا ، ولا أحد يتصور به علماً . وحدقت الأنظار في موقف الأميرة التي ظلت متجلدة ثابتة تفكر فيما عرض عليها . وقد أشفق عليها روزباه نفسه ، لأنه لم يعلمها شيئا من مثل هذا السؤال الذي يستحيل الجواب عنه . ومضت برهة والأميرة صامتة ، واعتقد همشير أنها عاجزة عن الجواب ، فظهرت عليه علامات الاعتزاز ، ومضى يستحثها بسخرية لا تخفى ، فأجابت بتأن وتؤدة : لا تذهب بك الظنون حيث لا ينبغي يا صاحب العصا ، فليس في سؤالك أية صعوبة وعلمي به كعلمي بغيره مما أجبت عنه سابقاً . فاعلم أن عدد النجوم في السماء ، هو تماماً بقدر عدد شعرات رأسك ووجهك .

بهت القوم ، وبهت همشير بوجه خاص من هذا الجواب . . . ولكنه ما لبث أن بادر متمالكاً نفسه وموجهاً إليها الخطاب ، أنه إنما يسألها عن عدد النجوم سؤالاً لا يحتمل تهرباً ، في مقام لا يقبل مزاحاً أو استخفافاً . أجابت بيروز بأنها لم تكن في وقت من الأوقات أكثر جداً ، ولا أوفر احتراماً لمقام أو مقال منها الآن في موقفها هذا .

حينئذ خاطبها همشير متظاهراً بالهدوء : إذن فما عدد نجوم السماء

أو إذا شئت فما عدد شعرات رأسي ووجهي ؟

أجابت بيروز بثقتها المعتادة :

ـ احلق ، وعد بنفسك ، لكن حذار من الغش .

قال الراوي . . . أظهر همشير امتعاضه واستخفافه ، وقال متجهاً إلى شهراموش وكل من في المجلس لإثارتهم ضدها :

ـ صدق ظني بكل أسف . كنت أعتقد أن لهذه الدعية علماً أو طبيعة ما ، تخالف بنات جنسها وغيرها من المحتالين والمدعين ، فاذا هي لا تزيد عن جهلهم الاقحة ووقاحة .

لم تخرج بيروز عن ثباتها وإنما قالت : لعل سائلي أجدر الناس باحترام هذا المجلس وحفظ لسانه من الألفاظ البذئية . . . وها أنذا أدلي بتبرير جوابي للمجلس الموقر ليحكم بيننا . . . اعلم أنني لو أجبت عن سؤالك المتعلق بعدد النجوم ، بأي رقم لما صدقتني ، أو على الأقل لو فرضنا أننا معاً ـ أنت وأنا ـ عالمان بالجواب لأمكن أن يقع الخلاف بيننا حول صحة علم أي منا . ودفعاً لكل ذلك ، أؤكد أن عدد النجوم في السماء متساو لشعر رأسك ولحيتك ، ولنحتكم الى ذي مروءة يحلق لك ويعد إذا كنت عاجزاً عن ذلك .

ثارت ثائرة همشير لهذا التحدي ، وهذا الثبات ، بل وللإهانة الكبيرة التي لحقته ، ذلك أن حلق اللحية أو الرأس كانت تعد أكبر مظهر للإذلال وهي لا تلحق إلا بأعداء شهراموش الشخصيين قبل إعدامهم ، زيادة في التنكيل والتحقير ، قال . . وكان أكبر ما يزيد من شعور همشير بالحرج قوة الحجة عند خصمه ، وثقتها بنفسها ، بل وإحساسه بأن أعداءه في المجلس وأصدقاءه على السواءَ ، يتفرجون عليه في سرهم لهذا الموقف . . . ومن ثم أشار همشير إشارة أراد أن تكون أثر دلالة على سأمه ، من مجادلة فارغة ، أكثر منها عن عجزه أو استسلامه ؟ وخاطب بيروز :

ـ اعلمي أنك تلعبين بالنار ، وأنت تركبين نفسك بنفسك هذا المركب الصعب ، وخير لك أن تعترفي بتحايلك واحتيالك ، وتطلبي عفوعظيمنا ،وعطف هذا المجلس الموقر . . . واطلبي الإحسان اذا كانت الحاجة دافعك إلى هذا المأزق . فرغم ما أظهرت من وقاحة فلن تعدمي ان تجدي من يساعدك .

ردت بيروز بابتسامة ساخرة :

ـ أستسمح هذا المجلس الموقر في أن أقول لك وأنت صاحب العصا ، أن تحتفظ بنصائحك لنفسك ، واذا كنت تعجز عن أن تناقش أو تسأل ، فانصرف بدون مكابرة واعترف بالفضل والعلم لأهله وإن كنت أبعد الناس عن تقدير ذلك . قال همشير وكأنه لم يسمع منها شيئاً :

ـ فإني أسألك عن شيء آخر أرجو أن يكون لك به علم مدقق وواضح ، وجوابه لا يحتمل غموضاً ولا إبهاماً .

قالت :

ـ ما دمت تملك لساناً ، وتستطيع كلاماً ، فاسأل عما تريد .

قال :

ـ إنما أسألك عن مركز الكون أين هو ؟ نقطة منتصفة أين توجد ؟

قال الراوي صمتت بيروز لحظة مطرقة تتأمل ، بينما كان همشير ينظر حوله مظهراً اعتزازه بامتلاء جعبته كالمتأكد من أن خصمه لا بد واقعة في شراك اسئلته ، ظلت بيروز صامتة ، وهو يعيد عليها سؤاله بشتى الصيغ . وأخيراً تحركت بيروز دون أن تخرج عن صمتها ، خطت خطوات معدودة منتظمة إلى الامام ، توقفت ثم خطت أُخر منتظمات إلى اليمين ، ثم إلى الامام ، فخطوة يساراً ثم وقفت منتصبة قويمة ، وقالت :

ـ إنك يا صاحب العصا تسألني عن نقطة مركز الكون، ومنتصفه ؟

قال : نعم قالت : فإني أطلب منك بكل احترام أن تقف مكاني وتضع قدميك محل قدمي بالضبط . قالت ذلك ، وتنحت له عن مكانها ، فتقدم ووقف حيث كانت . أخذت بيروز تدور حوله وتلاحظ وقفته ، وطلبت منه بكل احترام أن يعدل من موطىء قدميه من هنا ، ومن هناك ، وأن يضمهما ، ثم ظهر عليها الاطمئنان أخيراً ، فوقفت وقالت شامخة الرأس : سألتني يا صاحب العصا عن مركز الكون فاعلم أيها المحترم أنك في منتصف الكون وأن قدميك تجتمعان في نقطة مركزة . ولا داعي لأن يخامرك أي شك في ذلك اذ يمكنك التأكد منه بنفسك وما عليك الا ان تبدأ العد من هذه النقطة إلى الجهات الأربع !

اهتزت أطراف همشير لم يستطع أن يخفي غيظه وغضبه ، ولا شك أن حرمة المكان وحدها منعته من أن يغمد سكينه في صدر الفتاة . . . وقد بدا خفياً طيف ابتسامة مكتومة على ملامح شهراموش ، من حرج موقف صاحب العصا وهيئته في انفعاله ، لكنه أظهر الصرامة ، وأشار له بالرجوع إلى مكانه ، فأدى صاحب العصا التحية متهالكاً وعاد إلى مجلسه .

قال الراوي : تقدم شيهوك صاحب الملح (وهو شخص قصير القامة) مكتنز الجسم . تقدم باحترام وأدى التحية إلى عظيمه مستأذناً ثم توجه الى بيروز يختال في مشيته . حدق في الفتاة كثيراً ودار حولها ، كأنه يتفحصها جسدياً قبل أن يختبرها علمياً وعقلياً ، وكانت الفتاة رابطة الجأش ثابتة في مكانها ، لا تعبأ بحركاته بل كانت على ثقة من نفسها ويقين من أن حركاته هذه تهدف إلى زعزعة تلك الثقة منها . ولكن هيهات . قال شيهوك : بعد تقديم الاحترام لعظيم كغاشي واستئذان مقامه . . . أقول لك ايتها الـ . . فتاة . . . أنك أظهرت مهارة وحذقاً لحد الآن . ناظرك كبار علمائنا فاستطعت أن تقنعيهم بعلمك وذكائك ، أو على الأقل أن تجيبيهم بما يبدو علماً وذكاء . بعد استئذان عظيمنا سأتوجه اليك ببعض أسئلة ، وأنا لست عالماً ولا مشتغلاً بالعلم ، بل ان

امـور الحيـاة صـرفتني . . . ولعـلي نسيت مـا تعلمتـه فـلا بـأس من أن أسترجعه معك .

قـال الراوي : لم يكن خبث شيهـوك خافيـاً ، فعبارات تـواضعـه كانت تقطر زعافاً وحقداً دفيناً ، مما فطنت إليـه بيروز في الحـين ، ولكنها أجـابت بمثل تـواضعه الـظاهر ولـطفه : لقـد سمعت من صـاحب الملح المحترم ، مقالا جميلاً إن لم يدل على علم ، فهو يـدل على أدب وذوق ، وهما بشائر العلم، وفهمت منه تواضعاً ليس دون مكـانة العلم . وعسى أن أهتدي إلى ما أفيـد به أو أستفيـد بخصوص سؤالـك ، فتفضل إنني مستمعة .

قال شيهوك وهو يمطط قامته :

فـاني أسألـك عن الكائن الـذي يمشي على أربـع صباحـاً ، وعلى اثنين ظهراً ، وعلى ثلاثة مساء .

أطرقت بيروز تفكر ، بينما شبك شيهوك يديه خلف ظهـره ، وهو يتحرك متابعـاً أطراف الأميـرة في تعليقات لم تخف مقـاصدهـا : إنه كـما ترين سؤال بسيط جداً وساذج ، تلقيناه من شيوخنا ، كما تلقاه هم أيضاً عن شيوخهم ، وقد استحضرته عرضاً لنفتتح به هـذه الجلسة فـأنا لست بعـالم . . . كان واضحـاً أنه بـالإضافـة إلى الأسلوب الساخـر وتواضعـه الكاذب ، يريد التشويش على أفكار الأميرة فلا تركز في الجواب ، ولكنها فطنت إلى ذلك فلم تأبه بتعليقاته حتى تهيأت للجواب .

وقالت : سؤالك بالفعل بسيط جداً ، ورغم أنني لم أدرس هذا عن شيوخي ، إذ ليس لي شيوخ ولم أتعلم في مجلس فقـد هداني فكـري ألى الجواب الصحيح . فاعلم أن هذا الكائن الغريب الـذي تسأل عنـه هـو الإنسان ، يمشي في صغـره على أربـع لأنه يحبـو ، ثم يكبر فيستقيم وينتصب عـلى اثنتين في شبـابه ، ثم يشيـخ ويضعـف فيمشي على ثـلاث منحنياً كما يكون عليه في خريف عمره .

قال . . . كان اهتداؤها للجواب صدمة بالنسبة لسائلها إن لم يكن بالنسبة للمجلس كله ، فهذه الأسئلة لم تكن في الواقع بنت ساعتها ، أو من ابتكار صاحب العصا أو صاحب الملح ، بل صنعها لهما بعض المتضلعين في مسائل التعجيز والسفسطة والاحتيال ، ومع ذلك أظهر شيهوك رباطة جأشه كأنه كان بالفعل ينتظر الجواب لسهولة السؤال ، وقال : جوابك مقبول عن سؤال بسيط يحتمل الكثير . أريد أن أنتقل بك الآن إلى المحسوس والمؤكد الذي لا جدال فيه ، ليكون أهل المجلس علينا شهوداً في الخطأ والصواب ، فإني أسألك عن مدخرات بلدنا من الأموال والمعادن النفسية ، إني اسألك عن خزينة كغاشي ومدخراتها .

استغرقت الأميرة في التفكير ، فقد كان بادياً بأن السؤال فخ محكم ، ولم يكن شيهوك بحاجة الى التشويش على فكر بيروز ، ليقينه بأنها لن تستطيع الجواب ، أو ربما كان يقدر أنها حتى إن أجابت جواباً صحيحاً بقوة خارقة ، فقد تكون ثم طريقة لإظهار خطئها ، ومن ذلك أستأنف يعلق قائلاً : اعلمي أيتها الفتاة المدعية انني ما لجأت إلى هذا السؤال إلا لما سبق أن اعترضت به على زميلي المبجل ، صاحب العصا ، عندما قلت له إنك لو ذكرت رقما عن عدد النجوم ، لما صدقك أو لثار بينكما خلاف . فسؤالي إليك عن مدخرات البلد ، يهدف إلى ضبط الجواب ليتبين الحق من الادعاء ، واعلمي أيضاً أن بإمكانك إن عجزت ، أن تتراجعي وتسلمي أمرك الى عظيم كغاشي لينظر فيه ، أما أنا وزملائي ، وحتى علماؤنا فلسنا ضدك ولا نريد بك شرا . . .

قاطعته الأميرة : لا تتعب نفسك وأنصت الي . الست صاحب الملح ، ومن بيده خزائن كغاشي ؟

قال : نعم

قالت : أو لست أعلم الناس بما يحتويه ؟

قال : نعم :

قالت : أولست قبل ذلك أعلم الناس بما تحتويه خزائنك ؟

قال : نعم .

قالت : فلكي يزول الغموض كما تريد ويظهر الحق من الـزيف ، فإنني في حاجة إلى عنصر ضروري لأعطيك الرقم الصحيح عن ممتلكات كغاشي .

قال : ما هو ؟

قـالت : أن أعلم بالضبط وعـلى وجه اليقـين ، مقـدار خـزائنـك الخاصة قبل انفضاض هذا المجلس !

قال الراوي . . ثارت ثائرة شيهوك ونعق كـالغراب قـائلا : هـذا تهـرب من سؤال واضح ، وجهـل فاضـح ، لقد افتضـح أمـرك وظهـر عجزك . .

قاطعته الأميرة : مهلاً مهلاً ، واستمع لما أقول ، فـأنا لا أتهـرب بل إن تصميمك على معرفـة الحقيقة ، حقيقـة علمي أو جهلي ، هـو ما حفزني إلى ذلك . فأنا أرى ممتلكات كغاشي مختلطة بممتلكاتك . . .

صاح أن هذا كـذب واعتداء عـلى وقار المجلس . قـالت : لتهدأ ثائرتك . أليس لك أجر سنوي تتقاضاه ؟ فنحن نطرح مجموع ذلـك من ممتلكاتك ، ونضم البـاقي لممتلكات كغـاشي ، أو إذا كانت لـك أعمال أخرى تجارية أو فلاحية فسنحقق في أمرها أيضاً ، ونحسب الأمر بدقة ، فلمـاذا تتهرب كـأنك مجرم أو مُخـطىء . . ؟ خـرج شيهـوك عن طـوره وقـال : لقد تعـديت على مجلسنـا ، ولا أرى لك جـزاء غير القتـل بعـد استئذان عظيمنا .

قال ذلك وتراجع إلى مكانه ثائراً منفعلاً ، وكان الهمس قـد سرى بين أعضاء المجلس لما وصل المـوقف من احتداد . وقـد فوجىء روزبـاه الحكيم ، لما وصل إليـه الأمر ، وخـاف على فتـاته . أمـا مرقـادو فأحس بكل شيء فيه تجمد ، وفقد قدرة التماسـك على الأرض فتسَمـر واستند

إلى سارية قرب الباب . تحرك العظيم شهراموش فساد الصمت ، وانقطع الهمس . اشتدت صرامة تقاسيمه بما يوحي بأنه منفعل يجالد لكي لا يظهر عليه ذلك . أهو غاضب ؟ وعلى من ؟ وقاحة الفتاة وجرأتها أم بسلوك صاحب الملح ؟ . . أم ما يخفيه هذا السلوك وراءه ؟ سرى تيار الخوف ، في كل من في المجلس ، أما الأميرة بيروز فقد ظلت متجلدة ، وبينما الجميع ينتظر العظيم شهراموش ، تقدم زاهور مروض الوحوش محيياً ومستأذناً في الكلام . فلما أذن له ، تقدم نحو الفتاة بقامته الطويلة الضخمة نصف العارية ، يداعب سوطه الطويل ، وقال : عندي لك سؤال واحد سيكون فاصلاً بيننا وبينك ؟ قالت سأستمع إليك ولي شرط .

قال : ما هو ؟

قالت : أن يسمح لي العظيم شهراموش ، بتوجيه سؤال واحد لك أو لغيرك في هذا المجلس أو أي مجلس آخر ، وهو سؤال واحد مني يكون الأول والأخير ، يأتي بعد كل أسئلتكم .

قال الراوي : أومأ شهراموش إيماءة الموافقة ، دون أن تزايله ملامح الصرامة . قال : قال زاهور : سؤالي مختصر جداً ، وحاسم فيما نحن فيه من ادعاءاتك . وعندما أعبر عنه فلن تسمعي مني كلمة تعليق أو تفسير لأنه واضح بذاته ، لا يتطلب تفسيراً ولا شرطاً ، وما عليك إلا أن تفكري جيداً ، على أن تعطي الجواب في الحال ، وقبل انفضاض المجلس .

قاطعته الأميرة : لا عليك من هذا الكلام الطويل . فاذكر سؤالك إني سامعة واعية قال : فمتى تموتين ؟

أطرقت تفكر ، ولكنها لم تطل ، ورفعت صوتها مبتسمة قائلة : سؤال مختصر حقاً وغريب . لم يجب زاهور . كان في أوج قسوته ، ويده تداعب مقبض سيفه .

قالت : ومع ذلك أجيب بوضوح وباختصار ، إني أعلم أنني

أموت على وجه اليقين قبل قاتلي الأول بثلاثة أيام ، وقبل الثاني بأربعين يوماً !

اندهش زاهور للجواب : ماذا تقولين ؟ أجابت أقول ما تسمع : أموت قبل قاتلي الأول بثلاثة أيام ، وقبل الثاني بأربعين يوماً .

تساءل :

وهل يقتلك اثنان ؟ قالت : نعم الأول يأمر والثاني ينفذ . صاح زاهور ويده تشد على قبضة سيفه : كذب . تدجيل . سنرى . لكنه توقف بحركة من شهراموش الذي نهض مؤذناً بانفضاض المجلس معطياً أمره بالاحتفاظ بالفتاة ، والحكيم حتى يرى رأيه .

* * *

أحداث كثيرة تصدرت هذا العام . أكملت ثلاث شهادات في الرسم الميكانيكي ! ابننا الثاني يسميه الحاج مهدي محمداً على بركة الله ، تيمنا بالرسول الكريم ، وإحياء لذكرى البكر الغائب ، انتقال الحاج مهدي إلى رحمه الله الفسيحة ، وظهور الغائب محمد في آخر لحظات الوعي والاحتضار من حياة والده ، عائداً من بلد ما وراء البحر بصدفة غريبة ، وفي الميعاد الضروري المضبوط . جنازة جمعت الشمل بشكل غريب . محمد بسيارة جديدة وبلا زوجة ولا أطفال . قال : إنه طلقها في الشهر الثاني من سفرهما إلى ما وراء البحر . وهمس لي ولعبد الله أن هناك لا داعي للزواج ، زوجتك إذا كانت من البلد ، تفقد طبيعتها بمجرد وصولها ، وتفقد سيطرتك عليها . والإخوان هناك كثرة يجعلون منك قواداً أصيلا بسرعة لا تصدق ، ولك أن تختار . محمد مقتنع بأن موقعه يجب أن يكون بحيث يتفرج على الآخرين ، وحاجاته الأساسية مقضية عند بنات الروم حسب تعبيره . ما وراء البحر حرية في كل شيء للمرأة والرجل للخير والشر . بل يختل بك الميزان قبل أن تندمج . وإذا تم هذا فعش حراً . لا يفكر بالزواج إلا عندما يعود ولا يفكر بأن يعود . يداعبني قائلاً : يا جدنا الصغير ، أبا الأولاد ، ورب

الأسرة ووارث السر وحائز أمجاد الحاج مهدي الكبير . لقد تغير بشكل لا يصدق . مغري في وصفه للحياة وأحكامه عليها ، عميق ظريف في مقارناته من أية مدرسة تخرج بل أية جامعة ؟ حتى لو كان مخطئاً ـ وكيف الجزم : لما قاومت الاستماع اليه والإعجاب به . خلق آخر عطوف ومبتسم ومشع للحكمة . حتى زهروية لا تملك إلا أن تنصت اليه مبهورة مستنكرة بدون شك . لكن داخلها لا يخلو من إعجاب ورغبة في مزيد من الاستماع والتقصي . بدون حشمة يحدثنا بما يخجلها ويثير ذلك الكائن المخادع الثاوي في باطني . بصراحة وحزم قاوم مشروع زهروية لزواج عبد الله من بنت الخالة الأخرى . ماذا تحسبين ؟ قطيع غنم وأرانب ؟ كل شيء منا وإلينا !؟ يكفي رأس الأسرة شيخنا وجدنا الكبير ! اتركي عبد الله وشأنه يصطاد رزقه بيديه كما ومتى يشاء . حتى عبد الله بدا مرتاحاً مبتسما لا ينبس مظهراً رضاه التام عن دفاع محاميه الكبير .

* * *

المثلث يتسع بي الآن ، تضطرب أبعاده بعض الشيء في انتظار أن يتشكل من جديد . أمامي بعض اختبارات . قبل ذلك يجب أن أذكر أنني ارتقيت أو على وشك ترقية هامة في إدارتي . . . لكن أمامي اختيارات : فترة تمرين طويلة خارج مدينتي في المصالح التابعة لإدارتي قصد الاطلاع والتكوين العملي ، أرجع بعدها بالترقية الجديدة ، أو فترة تمرين قصير لنصف سنة فيما وراء البحر ، استحققتها بشهاداتي الثلاث وموافقة رؤسائي بل وتشجيع ومساعدة منهم . وعند العودة من الخارج ترقية أكبر . يمكنني أن أختار . اخترت الأسهل والأنسب لي : التمرين مدة سنة أو سنتين خارج مدينتي ، بالتنقل بين مدن أخرى ، لا يمكنني اصطحاب أسرتي . زهروية لا تقبل ذلك ، كما لا تقبل أن أرحل لتمرين أقصر فيما وراء البحر . وكيف تطيق فراق مهديها الصغير ومحمدها الأصغر وفلذة الكبد عائشة ؟ وكيف تبقى وحيدة في الغرف الثلاث ؟ أيمكن أن تضيف فراقاً إلى فراق عبد الله ومحمد الأكبر ؟ كنت

مقتنعاً بهذه الحجج قبل أن أسمعها ، لذلـك لم أطرح الفكـرة للنقاش . ولا بد من رحيلي بمفردي إلى مقر التمرين الجديـد ، وترددي أسبـوعياً أو نحو ذلك على أسرتي في الدار البيضاء .

* * *

(زبـل الخارج ولا هنـا) كلهم رددوا على سمعي ذلـك بـاستثنـاء زهروية التي كانت محايدة في الظاهر على الأقل . كلهم رأوا أنني يجب أن أفوز بالفرصة السانحة للتمرين فيما وراء البحر . . أعود بعـدها مهنـدساً مساعداً ثم أصعد . . بدل محنة تمرين (هنا) الطويـل المتعب أفْني بعده نفسي في مـرتبة مفـاوض شـرفي ، أو مـرشـد زائـرين بقسم العـلاقـات الخـارجية . زبـل الخارج أحسن من تمـر بلادنـا . لم أجد فيّ الـرغبة . . أحيـاناً أهمس بيني وبـين نفسي أن الرغبـة مـوجـودة ، أشعـر بهـا أمنيـة وطموحاً ، لكن لا أفكر بأنها يجب أن تنفذ من جانبي على الأقل .

* * *

أردت أن أسميهـا رجاء . لأول مـرة شعرت بـأنني يجب أن أطلق اسـما اختاره بنفسي . عـائشـة وافقت بفـرح ، كـأنها تسجـل لأول مـرة حماسي لموضوع كهذا . كانت وليدتنـا بالفعـل جميلة ، كما بـدت لنا بـل رائعة مكتنزة . زهروية اعترضت ، ليس الاسم مألوفا عنـدنا ، لـو كان الحاج مهدي حيـاً لسماهـا على جـدته . لم لا نـطلق عليها اسم جـدتك أنت ؟ ومن تكون رجاء هذه ؟ اتقد وعيي فجأة انتبهت إلى دلالة الإسم عندي ، فسحبت اقتراحي ، أو على الأقل سحبت حمـاسي له ، عـائشة وحدها ظلت متحمسة تدافع عنه إلى أن أوعـزت لها أن تتـوقف ، وتترك زهروية لحالها . زهروية أيضاً غيرت فكرتها بعض الشيء . تـذكرت أنها أول مولودة أنثى لنا يجب أن يكون اسمها فاطمة .

خلال سنة ونصف ، تنقلت بين أربعة مـراكز ، أتعـرف على سير المؤسسـات التابعـة لإدارتنا ، وبـاشرت مهمتي في الأقسـام التقنيـة تحت الإشـراف حيناً ، وبـاستقلال حينـاً آخر ـ مـرشداً للوفـود والشخصيـات

الزائرة من داخل البلاد وخارجها ، تعرفت على كثير من رؤساء الأقسام والمصالح وموظفيها . في البداية كنت أتردد على أسرتي كل أسبوع . لكن بعد ذلك ضاع التنظيم . جربت في فترة التمرين هذه ، كيف يكون الزمن مملاً ثقيلاً . أمثالي يحاربون ذلك بالشراب والسهرات . انتبهت الى أنني الوحيد الذي يشذ عنهم .

قلت لجملة من الأصدقاء المغرين : (لا يجوز . . ثم أنا متزوج وأب) ضحكوا ، كأنك المتزوج الوحيد والأب الوحيد في الكون . فلسفة بسيطة لا يمكن أن أدعي أني أفهمها . الجمال في الدنيا كثير . البنات أصناف وألوان ، والمسرات لا حد لها . كل يصيب منها حسب قدرته وإمكاناته . ولماذا الحرمان ؟ الحق أني لم أكن أشعر بالحرمان رغم احتجاجهم ضد هذا الانكار . لا أشعر بالحرمان . الزمان الفارغ بعد الشغل ، وأيام العطل القصيرة التي لا أزور فيها أسرتي ، هي الثقل الرازح . قالوا : جرب واحكم . جربت . رفضت أن أشرب لكن جلسة البنات كانت شيئاً جديداً في حياتي . سهرة ضاحكة عابثة . قدموني إلى عزيزة ضاحكين : هذا واحد متزوج ، جلسة هانئة ، وكانت عزيزة لطيفة معي رغم أنها لاحظت على تحرجي مرة أو مرتين مما أزعجني ، ثم وكأنها ادركت ذلك، تركتني لطبيعتي دون تساؤ ل . ذكروا في الغد أنها أصدرت حكمها علي . نجحت في أن أثبت لها أني متزوج وبأكثر من واحدة . لم أكرر بعدها التجربة . وتركوني لشأني .

* * *

أنهيت فترة التمرين اجتزت اختبارها بنجاح . كان من حظي الميمون كما يقول مسعودي وحميد ، أن ملائكة الجنة أحاطت بي ، الاختبار عملي محض . وكان من نصيبي مرافقة وفد أجنبي خليط من كهول وفتيان وفتيات لإطلاعهم على نشاط مؤسستنا وجودة إنتاجها وحسن معاملتها والطواف بهم على عدة مراكز . . . . حصلنا بعدها مباشرة على عقود ممتازة . الأسئلة التي ظللت أسمعها تدور حول

استفادتي الشخصية من تلك الجولة مع الوفد الأجنبي ، يقصدون بذلك الفتيات الأجنبيات . ذكرت لهم بعض مغامراتي مع ثلاث منهن . . . كانوا يشجعونني ويهنئون ، أخيراً صرحت لهم بالحقيقة ، أني أعبث بهم إذ لم أحاول شيئاً من ذلك .

* * *

الشغل في العلاقات الخارجية وما فيه من إرشاد واستقبال ، موسمي تقريباً . فرغم أن أساس العلاقات تجاري محض ، فأغلب الزوار يفضلون أن تتم زياراتهم في طقس سياحي مناسب ، بل نحن بدورنا نشجع على ذلك ، وفيما عدا هذا ، فالعلاقات قائمة على الردود الكتابية . مرافقة الزائرين امتياز معنوي ومادي . مصاريف الجيب والتنقل عدا تعويضات أخرى، عن المسؤولية كل ذلك امتياز . أصبحت الآن مستقراً رغم التنقل العابر في الجهات المتقطعة . طرحت مشروع الانتقال إلى مسكن آخر . زهروية رفضت أن تنتقل . دار الحاج مهدي يجب أن تظل عامرة . سي سليمان غادر الدار الفوقية ، عندما كنت في فترة التمرين بالأقاليم وسكنها مكتر جديد قالت زهروية : ما دمت مبيتاً مشروعك منذ مدة ، فإن الأفضل أن نحتفظ بالدار الفوقية فارغة حتى تعود . . . لو أنك أخبرت بذلك . . . أما الآن . . . لم تكن تبدي مقاومة فيما فهمت بقدر ما أبدت من أسف . انتقلت إلى شقة جديدة من ثلاث غرف في منتصف الطريق بين دارنا القديمة والإدارة ، يمكن أن أقطع المسافة راجلاً ، إذا كان لدي متسع من الوقت . زهروية استمرت في دارها . وزياراتنا لها مستمرة . أحياناً تحتفظ بمهدي الصغير أو محمد عندها أياماً ، أما فاطمة فكانت لا تحتمل فراق أمها بعد .

* * *

رسائل شخصية كثيرة تصلني من أجانب من الجنسين، ومن مختلف الأعمار والمستويات ، من مسؤولين عن الإنتاج والصناعة تؤكد صداقتهم وامتنانهم . . . كنت حريصاً على الإجابة في الحال . بعضهم

كان يدعوني للزيارة ، ودائماً أجيب معبراً عن رغبتي الصادقة في تنفيذها ، وأعتذر عن ذلك في الحال ، إلى أن تواتي الفرصة . . . قال مسعودي إن من يراني منهمكاً دائماً في الردود ، متسلماً للرسائل الشخصية يعتبرني كازانوفا أو دونجوان .

* * *

(أشهد بشرفي مصرحاً بأنني لست ملاكاً ، ولا مشتركاً في ملك بأية كيفية من الكيفيات . .) ظللت أحملق في سطور التعهد بالشرف منزعجاً ، قبل أن أطوي الملف كله وأضعه جانباً ، بعد لحظة أقبل علي مسعودي يسأل عن الملف ، كان قد انتقل منذ عهد قريب إلى مصلحة موازية بقسم الحسابات ، وكلف بمهمة تكوين طلبات الموظفين الراغبين في قطع أرضية لبناء مساكن خاصة ، أجبته بإهمال بأني لم أنته منه بعد . ألح علي لأن الفترة محددة ، ولم يبق إلا يوم لآخر أجل ، تلكأت مع ذلك . لم يفهم ذلك وسألني باستعجال أن كنت حقاً لا أرغب في اقتناء مسكن خاص بالتسهيلات الإدارية المعروضة . رددت بالايجاب . ولكن . . . لكن ماذا ؟ أريته ورقة التعهد بالشرف . شرحت له أنني بكيفية ما ، أعتبر ملاكاً أو مشتركاً في ملك . إني وارث الحاج مهدي في الدار القديمة . . . ضحك عميقاً وطويلاً ثم قال : وقع التعهد . ترددت ولكنه أصر ، وأثارني تهكمه ، فوقعت . أخذ مني الملف . وقال ما رأيك بسي ريحاني ؟ الاسم معروف بيننا ، يعتبر جد غنيّ ، أراني ملفه بين يديه ، وتوقيع التعهد بعدم الملكية أو الاشتراك فيها بأية كيفية . . . مع إثبات الإعفاء من الضرائب العقارية !

أصبحت عائشة أكثر مرحاً في شقتنا الجديدة . عجيب ، كأنها خلقت من جديد ، وأظهرت أنها امرأة بالفعل وربة بيت قادرة ، شيء ما ، كان يحجب عني رؤ يتها من قبل ، كنت أجد كل شيء مهيئاً ، لكنه كان يبدو لي بعين المألوف ، أما الآن فترتيبها للمائدة وحرصها على العناية بمظهري ، وعنايتها بنفسها : شيء لافت للنظر ، أظهرت

كفاءتها في تسيير شؤون المنزل وتدبير المصاريف ، جودة واقتصادا ، لم تكن بيننا مشاكل ، ولا يتصور أن تحدث . كل منا مقتنع منذ التقينا بأن الآخر مصيره . منسجمان حتى قبل أن نولد فيما خيل إلي . من قبل ، لم يكن هناك ما يدعوني للحديث معها فيما عدا الضروريات .

الآن نقضي وقتاً كبيراً في التحدث عن شؤون الأولاد وشؤوننا أيضاً . وضعت تخطيطاً أوليا لدارنا المنتظرة . لها ملاحظات هامة . لا ترى للقبو ضرورة ، فكرتها تتلخص في أن ما يبذل من جهد يجب أن يعلو فوق الأرض ، لا تحتها . شبر فوق ، خير من عشرة أمثاله تحت . الخلاف الوحيد الذي بدا بيننا كان حول الأولاد . بدت عائشة قاسية عليهم ، شديدة الصرامة معهم في نظري ، كنت أتمزق ألماً عندما أستشعر ابتئاس مهدي أو محمد أو فاطمة الصغرى ، عندما ينهرون . مجرد شعور ، لكنه كان يشقيني لدرجة أفقد معها شهيتي للنوم والطعام . أخيراً أدركت أنني يجب أن أتدخل . قلت لها المبدأ المطلق : لا تنهيريهم ، أو تردي لهم طلباً أبدا . أبداً وبصفة نهائية . تلكأت كأنها تريد أن تفهم وتعارض . كررت أبداً أبداً ، أبداً ، وافقت ، ولا يخالجني شك في أنها لم تقتنع .

تساءلت مراراً إن كنت أستحق الانتساب إلى الحاج مهدي لا في معاملتي لأطفالي فحسب ، لكن أيضاً في معاملتي لعائشة . دخلي كله بين يديها تعالج به أمورها كما تشاء . كانت أول من بادر بالبحث عن مدرسة مناسبة لمهدي . راجعتني في الكتاب بالنسبة لمحمد . قفزت مذعوراً ، ثم استرددت أنفاسي رافضاً . قلت : اتركيه يلعب . يجب أن يلعب .

* * *

الكرة والدراجة الصغيرة والدمية والقطة البلاستيكية بكرتها الهاربة أبداً . . . عالم مختلط يسرني الدخول فيه بمجرد عودتي من الشغل . أشعر بتضايق عائشة من بعض ذلك ، لكنني حدثتها .

ـ عائشة ؟

ـ نعم .

ـ نحن زوجان ولنا مسؤولية واحدة .

ـ نعم .

ـ وثقتي فيك بلا حدود .

ـ لماذا ؟

ـ هل تثقين بي كذلك ؟ (أغمضت عيني عن طيف معبس للحاج مهدي وزهروية)

ـ نعم . نعم . لماذا ؟

أفصحت لها عن رجائي في ألا تكذبني في أمر الصغار . وألا تقسو عليهم أبداً . ابداً أبداً . استغربت ووافقت ، أحسست ببقية في نفسي مع ذلك . مددت لها يدي مفتحا أصابعي ! تشابكت أصابعنا أقسمنا معاً على المبدأ . ارتحت .

* * *

ميكي يسكن في التلفزيون ؟ أجبت بالنفي . وأين يسكن ؟ قلت إنه يسكن في بيته . أدركت الورطة فاستدركت بأنني لا أعرف .

وكيف يجيء للتلفزيون ، أجبت بأن صورته هي التي تظهره إذن ميكي الذي نراه ليس حقيقة وإنما هو صورة ؟ صححت بأنها صور كثيرة تتحرك . لكنه يأكل ، ويتكلم ويكتب ؟ قلت إنها صور تتحرك . ولماذا لا تتحرك الآن نهاراً ؟ قلت لأننا أطفأنا الجهاز ، طلب مني أن أفتحه . قلت إننا لن نرى شيئاً مع ذلك ، لأن المكلفين لا يهيئونه لنا في هذا الوقت . لم يبد عليه اقتناع . لكنه صمت وانصرف . . . بعد قليل . سمعنا شخشخة . هرعنا وجدناه جامداً أمام ثغرة غطت شاشة الجهاز بينما فردة حذاء مستقرة في جوفه . أراد أن يتحقق من أن ميكي لا ينام في جوف الجهاز فعلاً . أخذته بين يدي أزيل عنه الفزع . وأحميه مسبقاً من تدخل محتمل لأمه .

* * *

كـأننا في فـلاة صخريـة نصطاد كـلاباً أو ذئـابـاً . فـلاة ، ولكن الشعور كشعورنا ونحن في البيت . وضعنا الطعوم ، قطع أحجار مـطلية بطبقة من أكل شهي . فجأة يصبح معنا رجل غريب الهيـأة ، له لحيـة سوداء كثة مهملة ، تختلط بشعر رأسه الطويل الأشعث . . . ثياب رثة ، حالة تدل على أن صاحبها شريد أو طـريد ، لم ينعم بـراحة أو أكـل من مـدة طـويلة ، وأنـه قـادر عـلى أن يلحق الشـر بمن لا ينجـده بـأكـل . أصبحت معنا في الموقف ابنتي الصغـرى فاطمـة ، وقد زادت سنوات . أطلب منها تقديم الطعام للرجل ، تعطيـه إحدى الأحجـار التي هيأنـاها طعـماً لصيدنـا . أشعر بـأنها يجب أن تعـطيـه شيئـا آخـر لأنـه سيكتشف الخدعة . . . قبـل أن أكلمها يكـون الرجـل قد كشط الـطبقـة الشهيـة بأسنانه ، واكتشف أن ما تحتها حجر ، خـاطر يغمـرني . رغم كل شيء كنت أنتظر أن يأكل الحجر أيضاً ، أهدئـه وأطلب منها أن تسـرع وتحضر له الطعام . يتبرم الرجل لأنه لا يستطيـع صبراً . تغيب فـاطمة وصـوتي وراءهـا يستعجل ، الرجل يتبـرم . التفت حـولي بـاحثـاً عن أي شيء يؤكل ، أجعله يتلهى به ريثما تعود فاطمـة . لا أجد شيئـاً . أجد بصـلا معـروكاً في مـرق قديم ، أدفعـه له متـوجساً ، يخـطف مني الإناء يـأكل بوحشية غريبة وشخيره يتردد . . . !

* * *

الشـطرنج لعبـة لا أتقنها ، أخـذت مبـادىء بسيـطة جـداً لألقنهـا لمهدي الصغير . أعجب بدور الأحمق والفرس . شاشية الاحمق ، وعرف الفرس كانا مثار تعليقاته في البداية ، ثم انتقل تركيزه على نوعية حركتهما داخـل الرقعـة . نسيت أيضاً مبـادىء اللعبة البسيـطة ، وبدأت أحـرك بيادقي بتناقض كما يفعل هو . أدركنا معاً أن غياب مسطرة يجعل اللعبـة مملة ، وبلا هدف . اعترفت له بجهلي ووعدته بأن أتعلم وأعلمـه . ماذا نفعل ؟ عائشة جالسة إلى آلة الخيـاطة في غـرفة أخـرى . محمد وفـاطمة نائمان . ظهيرة اليوم عطلة . بدأنا نتحدث . جربت معه لعبة التخيل . ماذا تريـد أن تكون في المستقبـل ؟ ببراءة أجـاب : شرطي أو جنـدي !

وتساءل إن كان الجندي والشرطي شيئاً واحداً . فزعت للمفاجأة ، لم أهتم في الحين للإجابة عن تساؤله . لعله لحظ فزعي فتساءل إن كان أخطأ . أخطأت ؟ لا . أوضحت له أن سؤالي لا يرتبط بخطأ أو صواب لأنه يحتمل كل جواب . كنت قد استعدت طمأنينتي . سألته فيم اختياره ؟ تردد . ثم ركز على الأزرار المذهبة الصفراء والخيوط الملونة المدلاة . أدرت الموضوع . هو حُرّ في اختياره . لكن هناك اختيارات أخرى ، ربما تكون أحسن . تشبث بأن أذكر له بعض هذه الاختيارات . أحسست بأني أصرفه إلى جِدّ لا أريده له . قلت يجب أن تعرف بنفسك . وستعرف مع الأيام .

قال الراوي . . . انعقد المجلس مرة أخرى : حضره كبار علماء وأعيان كغاشي وعلى رأسهم صاحب الملح ، وصاحب العصا ومروض الوحوش . ومثلت بيروز في نفس هيئتها السابقة ، ثابتة واثقة ، على يمينها في طرف المجلس يقف الحكيم روزباه في مثل ثقتها واطمئنانها . لا جديد إلا طيف انبساط وهدوء غير معتاد يلوح على شهراموش . أشار شهراموش إلى بيروز لتتكلم فأدت له التحية وقالت : ـ أشكر لعظيم كغاشي صنيعه عندما أتاح لي أن أكون أول المتحدثين في مجلسه الموقر هذا ، وأرجو أن يعلم أنني لا أملك شيئاً أقوله ، إلا ما كنت قد طلبته من إتاحة الفرصة لألقي سؤالاً أو بضعة أسئلة على العلماء ، والأعيان وحاملي المسؤولية في كغاشي . فإذا أذن لي فاني مستعدة لألقي سؤالي .

أشار شهراموش بالموافقة ، فالتفتت بيروز إلى من في المجلس وأجالت نظرها في الحضور ، وقالت : ليعلم كرام من في هذا المجلس ، أن العلم بحر لا ساحل لاحد له ولا قعر ، وإذا كنت قد أظهرت في مجلسكم ما أظهرت من علم ، فذلك لا يبطرني أو يدفعني إلى الغرور . وقد علمت عن بلد في أقاصي الدنيا غرباً ، أنهم يطلقون على العلماء لفظا معناه الطلبة ،[1] وهذا ما أريد بيانه ، وهو أن العالم يجب أن يتحلى

---

(١) قال الراوي من خلال بحثنا عن البلد المقصود تبدي لنا أنه يعتني احدى بلاد المورو وما جاورها .

بفضيلة التواضع والإخلاص للحقيقة ، ويتجنب الخوف والطمع لتنفتح لـه أبـواب العلم الحقيقي . وسؤالي إليكم بسيط غـير مـوجـه لأحـد بالذات ، فأنا لا أشعر بأن أحداً خصمي هنا ، وإنما نحن في مناظـرة لا يستحي فيها من يجهـل ، ولا يتكبـر فيهـا من يعـرف سؤالي إليكم عن الغائب الحاضر ما هو أو ما هما ؟ فما هو الغائب الحـاضر في علمكم أيهـا السادة ؟ .

قـال : لم تكن لبيروز مشكلة مـع علماء كغاشي ممن في المجلس ، لأنهم كانوا قد حكموا بتفوقها منذ اختبارهم الأول لها ، وكانـوا ينتظرون أن يعجـزوا عن حل مـا تعرضـه عليهم . لقـد اقتنـع بعضهم بـأنها من طبيعـة غير بشـرية فمثـل علمها لا يجتمـع لبشر . . . ومن ثم كـان أول المتصدين هو همشير صاحب العصـا ، الذي قـال : ما في هـذا السؤال مشكلة فهو معروف واضح ، فالغائب الحاضر هو ما يرضي عـظيمنا لأن كل ما يرضيه يحضر ، ولو كان غائباً ، ولو كـان متخيلاً . . . في البـر أو البحـر . قال : لم تتحـرك الأميرة لهـذا الجواب ، بـل تبسمت ابتسـامـة واضحـة السخريـة ، وظلت صامتـة تجيل نـظرهـا في المجلس ، فتقـدم شيهـوك صاحب الملح وقـال : ما قـال زميلي صـاحب العصـا هـو عـين الصواب وإذا كان يحتاج إلى إضافة أو توضيح ، فإني أقـول بأن الغـائب الحاضر هو عظيمنا نفسه فهو معنا حيث كنا ، حتى على البعـد . ومفهوم أن القلوب إذا ارتبـطت واتصلت أسبابهـا ، لم يعد فـراق المسافـات دالاً على افتراقهـا ، فهي على بعـدها غـائبة وحـاضرة . . . قـال . . وأفاض شيهـوك في هذا المعنى من جـوابه ، حتى إذا انتهى ظلت بيـروز بـاسمـة صـامتة تنـظر إلى من في المجلس في انتظار المزيد ، دلالـة على أنها غـير مقتنعة . . . وأخيراً عندما لم تسمع جواباً قالت :

اني قـد سمعت جوابـين من شخصـين محتـرمـين ، ولكن احتـرام العلم والحقيقة فوق كل احترام . الجواب الأول ساذج ، والثاني متحذلق ، هما معاً جوابان متملقان محابان يريدان أن يسترا الجهل بالخديعة

والحيلة ، أو يسخرا المناسبة العلمية الشريفة لأغـراضهما الخـاصة . فهـما جوابان لا علاقة لهما بالعلم . إن هذين المحترمـين يعتقدان أنهما يقـدمان خـدمة إلى عـظيم كغاشي بمثـل هذا التملق الـذي لا يتكفـلان لـه حتى بالمناسبة أو بالمقام وذلك خوفاً وطمعـاً ، وكل من لم يتجـاوز به علمـه أو مقامه مرتبة الخوف والطمع ، فهو مهما ادعى أو تظاهر بالقوة أو العلم أو السلطة ، ضعيف ، رعـديد في بـاطنه وحقيقتـه . وانـه لمن العجيب أن يتبين لي الآن كيف أن كبار الرجال ، ومن تخافهم الناس ، وتـطمع فيـما عنـدهم من مـال أو جـاه أو سلطة ، هـم أسـاسـاً كبـار في الخـوف والطمع . . . لا أطيل عليكم ، فإذا لم يكن من مجيب آخر عن سؤالي ، وبعـد استئـذان عـظيم كغـاشي فـإني عـلى استعـداد لأعـطي الجـواب الصحيح .

قال : كانت علامات الارتياح غير المعتادة تزداد اتساعاً وعمقاً على محيـا شهرامـوش ، وهو مـا لم يشاهـد عليـه إلا في حـالات معـدودة من انتصاره على أعدائه في الحروب ، أو في بعض معارك الوحوش الضـارية التي كان ينظمها فرجة له ولحاشيته المقربة . أشـار شهرامـوش مؤذناً لهـا بالحديث ، فقالت : سألتكم عن الحاضر والغائب ؟ ما هـو أو ما همـا ؟ السؤال عنهما بالمفرد والمثنى لأنهما قد يكـونان متبـاينين أو مؤتلفـين ، وقد يكون الواحد منهما هو نفسه ، وغيره في نفس الوقت . لنقل إن الحاضـر هو متاع الـدنيا والشهـوات والرغبـات والأطماع والمخـاوف والأحاسيس الممتعـة اللذيذة ، وكـل ما يشيـده الانسان بضعفـه وتقـاعسـه ، وإذلال انسانيته ، ليكن هذا هو الحـاضر الـذي نعرفـه في أنفسنا كـل يوم وكـل لحظة ، فما هو الغائب ؟ إنه الموت الذي لا نتذكره إلا كطيف عـابر دونَ أن نتعمق معناه أو يهز دخـائلنا . . المـوت غائب عنـا لأنه نهايـة ما نحن فيـه ، ونحن فيما نحن فيـه ولسنا ، في مـوت ، وهكذا يكـون الحاضـر والغائب هما ملذات الـدنيا من جهـة والموت من جهـة ثانيـة . . . ولكن لننظر بعين أعمق إلى حقيقة الأمر ، أليست ملذات الدنيا ومتاعها قـريبة النهاية مهما طالت مدتها ؟ وأنها فانية ؟ أمـا الموت فهـو السيد الغـالب في

النهاية ، وهو الذي ينتصر على كل ما عداه ، وهنا يكون الغائب هو متاع الدنيا وملذاتها رغم حضوره . أما الحاضر الحقيقي فهو الموت رغم غيابه . وهكذا يكون الغائب هو متاع الدنيا الحاضر الذي سيغيب ، والحاضر هو الموت الغائب الذي سيحضر . والإنسان العاقل هو الذي يستفيد من الحاضر والغائب ، للغائب الحاضر من حياته لموته، ومن راهنه لمستقبله . قال : دهش القوم من جوابها ، وعمق تحليلها بما فيهم الحكيم روزباه نفسه ، وظهرت علامات الرضى واضحة على شهراموش ، حتى أنه تزحزح من مكانه أكثر من مرة كالطرب لما سمع ، بينما عادته في مجالس الدولة أن يظل صلباً جامداً مهما طالت وتعقدت . قال . . . أخيراً قام شهراموش من مجلسه ، واقترب من الأميرة مبتسماً ونظر إليها ملياً ، ثم أمر بأن تعود إلى قصره مكرمة ، وكذلك صاحبها الحكيم روزباه .

قال الرواي : كان أمراً عجيباً موقف شهراموش من الأميرة بيروز في المجلس الأخير . ولكن العجيب يزول إذا علمنا أن الحكيم روزباه قد طلب مقابلة شهراموش على انفراد في قصره قبل ذلك المجلس ، وتحدث إليه دون علم أحد . حدثه في موضوع الأميرة بيروز بما لين قلبه . قال له : يا عظيم كغاشي إن أمامك فرصة نادرة لتوطيد عزك ومجدك بوجود هذه الأميرة . فهي إن كانت مجرد انثى بشرية مع مالها من رجاحة عقل ، وجرأة قلب ، وعلم وبيان ، لم يؤذك أن تكون إلى جانبك وتضمها إليك ، أما إن كانت من طبيعة سماوية كما يظهر ذلك ، فكونها معك وإلى جانبك خير من كونها ضدك أو عليك . فالرأي السديد أيها العظيم أن تحافظ عليها ، وتحفظها ، وتجعلها تحت رعايتك ، فتأمن شرها إن كانت شرا ، وبتأكد خيرها إن كانت خيراً . . . قال الراوي : ولم يكن مثل هذا الكلام ليصدر إلا عن أحد اثنين ، إذاك ، هما روزباه الحكيم وبيروز تلميذته العاقلة المخلصة . ولم يكن أحد غيرهما ليتجرأ بهذا الكلام أو مثله في موضوع ومعنى ، قد لا يوافقان هوى شهراموش ، لمعرفة الناس بأن ما يغضب عظيمهم يخرجه عن طوره،

ولخوفهم من قسوته وبطشه .

قال . . . ولم يترك روزباه طريقة في الحديث إلا سلكها في التأثير على شهراموش ، والسيطرة على دواخله ، فطوراً كان يلمح بالاغراء والترغيب ، وطوراً يلمح إلى الأخطار التي تهدده ويثير فيه المخاوف . وأحياناً يستخدم أسلوب المصلحة والمنفعة السياسية . . . وكان وهو الحكيم علياً بما يحدثه كلامه في نفس سامعه ، وإن لم يظهر هذا الأخير اقتناعاً . بل اكتفى بأن صرف الحكيم في غير شدة ، دون أن يحسم بشيء . ولكن نتيجة ذلك ، كانت واضحة ، عندما ظهر شهراموش في المجلس بمعالم ارتياح لا تخفي إزاء الأميرة بيروز ، ومعالم ابتسام لها ، أو عندما أوصى في النهاية بأن تظل تحت رعايته في أحد قصوره .

* * *

نومي هادىء عميق . شهيتي للأكل قوية . فكري مركز على كل شيء ومتفتح للاكتشاف . صفاء ذهني ما كنت أقدر أنه موجود أو يمكن أن يوجد بالنسبة لي على الأقل ، وفيما كنت فيه من محنة . . . صفاء كنت محروماً منه ، وأدرك الآن فقط معنى ذلك الحرمان . أكل هذا في نعمة الحبس ؟ وكيف لي أن أتصور ذلك قبل الآن ، وكيف يتصور ذلك ؟ أول وجه قابلني من وراء القضبان كان وجه عائشة . قلت سابقاً إنها امرأة . وأقول الآن إن عليها جلالاً فوق قيمة المرأة والرجل معاً . فوق قيمة الإنسان العادي . ذكرت كيف تقضي يومها مع الأولاد ، واستقبال الزائرين ، واتصالها بالمحامي والمحكمة . . . هالة من التعب والشحوب الخفيف تزيدها روعة ، كأنما كانت تقتضي هذه المسافة الفاصلة بيني وبينها لأكتشفها . سألت عن نومي وأكلي عن فراشي ووسادتي . أجملت وقلت (مرتاح) ، واستدركت أطلب منها ألا تسألني مثل هذا السؤال بل تستنتجه من مظهري . كانت موافقة على نفس الاستنتاج ، تريد فقط أن تتأكد من أنه ليس ظاهرة معكوسة . طمأنتها . أخبرتها بفحص طبيب السجن لي وتقريره الإيجابي عن حالتي . عافية تامة لا تشكو من

أي شيء . أخبرتني عن أخي محمد . بلغتها كما بلغتني رسالة منه وهو قادم . بعث بمبلغ من المال للأولاد . أخبر أنه يتكفل بهم . عبد الله يزور الأسرة ويزورني كل أسبوع . لا عليّ من شيء ، يجب أن أهتم بنفسي فقط . عبد الله ومحمد لا شاغل لهما غير الأسرة . زهروية انتقلت من دار الحاج مهدي إلى شقتنا مع الأولاد . سألت عن الأولاد ، هل يلعبون ؟ طمأنتني عائشة . أضافت مبتسمة أن زهروية الآن تلعب معهم ، ربما أكثر مما كنت أفعل . اكتشفت أخيراً أنها طفلة أكثر منهم . حل محمد بالوطن وجاء لزيارتي مع عبد الله . لا تحفل بشيء خارج عالمك ، ولا تحمل هما للأولاد . قلت لهما لست مهتماً والبركة فيهما . لا بركة ولا يحزنون . . . من الآن فصاعداً لا تقل أولادي . . الأولاد أولادنا . . . أنت أصغرنا وتبقى أصغرنا . طلبت أن يزورني الأولاد . . . لمحت لشغب فاطمة الصغرى بقبلة . كانت تتحرك في كل اتجاه . طلبت من عائشة أن تسحبها قليلاً وتتركني مع مهدي ومحمد الصغير . سألت مهدي عن دراسته ولعبه . أجابني بصدق أنه سعيد . طلبت منه أن يسألني قال عن ماذا لماذا ؟ قلت عن وضعي في السجن وكل ما يخطر ببالك . تردد قليلاً ثم بدأ ينطلق . شرحت له أنني هنا في السجن لأنني متهم بالاعتداء على موظف وهو يؤدي واجبه . . وعلى شرطي ومحاولة إرشاء . . . وأشياء أخرى . . . تساءل إن كانت التهم صحيحة . أجبت بأنني في الحقيقة لا أدري . . . فقد تكون صدرت عن خطأ أشياء ، شعرت بها وأخرى لم أشعر بها ، وغيرها لا أدري ما أقول فيه ؟ قلت مثلاً إنني أشعر شعوراً حقيقاً بصحة واقعتي مع الشرطي ، لا كاعتداء طبعاً . تساءل لماذا ؟ أخبرته أن الشرطي كان السابق بالاعتداء علي . تساءل إن كان الشرطي شريراً ؟ قلت لا . ولكنه عندما يعتدي على كرامتي ، فيجب أن أرد كما أرد على أي آخر غيره . تساءل إن كنت إذ ذاك مسلحاً برشاش حقاً ؟ أخبرته بأنني لا أدري بالضبط ، وقد تردد ذلك كثيراً على سمعي منذ القبض علي . ولعل ذلك حصل من شدة انفعالي ، أو لم يحصل ، على كل لم أقتل أحداً . سألني إن كنت تعرضت

للضرب . . . قلت نعم في البداية . تألمت . . ؟ نعم . بكيت ؟ لا . لماذا ؟ فكرت ملياً ثم ذكرته بأننا عندما نلعب معاً كان أحدنا أحياناً يصاب فيتألم ولكن لا يجوز أن يبكي . وأنه الآن يلعب مع رفاقه أو إخوته فلا يجوز أن يبكي حتى وإن تألم . سألني عن النتيجة ، عندما يرد مثلي على كرامته . أيكون السجن معقولاً ؟ أفهمته بأن هذا من اختصاص رجال القانون ، كالقضاة والمحامين وغيرهم . سألني بالمناسبة إن لم يكن من الأفضل أن يكون في المستقبل من رجال القانون هؤلاء ؟ قلت له إن هذا شأنه ، ويمكنه أيضاً أن يكون شرطياً إذا شاء . ففي كل ميدان يمكنك أن تكون شريراً أو خيراً . لحظت فتوره ، ارتعاش شفتيه وتوقفه . لحظت أنه ينظر خلفي خلسة . . . التفت كان شرطي السجن قد دخل القاعة وبدأ يتحرك ، أدركت معنى حركة مهدي . إنه ما زال يخشى علي من أحوالي القديمة ، من خوفي وكراهيتي للشرطة . . . طمأنته . وفي الحين ناديت الشرطي الحارس ، وتبادلت معه بعض عبارات التحية والتفكه ، وطلبت منه سيجارة أشعلها لي . أشرت إلى مهدي ومحمد الصغير اقدمهما له من وراء القضبان : « وليا العهد » غمز لهما ضاحكاً وقال : . . الله يصلح . . وابتعد . سألني مهدي إن كنت قد بدأت أدخن . قلت ؛ قليلاً . وأضفت أنني قد أشرب أيضاً .

عادت عائشة لتسحب الولدين وهي تحمل فاطمة . قلت لها على مسمع اشتري لمن يشاء منهم كسوة بأزرار صفراء . . . التقت نظرتي بنظرة مهدي . . . تفاهمنا .

* * *

الزيارة الوحيدة التي أثارت كآبتي وكدرت بعض هدوئي في السجن كانت من رجاء . منهارة كانت ويائسة . لماذا ؟ قالت إنها تخاف ألا أحتمل ، لماذا ؟ تجاهلت الدائرة المغلقة لأسئلتي ، واجهتها بأفكارها بصراحة . تخشى أن أيأس وأنتحر : أو يعاودني الداء . ألف لا . الحياة الآن أحب إلي . منظار جديد على بصيرتي . دم جديد في عروقي وكيان

جديد . لو كنت أعلم أن السجن يصنع كل هذه المعجزات لدخلته منذ زمان . لا خوف . نومي هادىء . لا شيء من كوابيسي المعتادة ، أكلي هادىء . مشاريعي للمستقبل واضحة بعد سنوات السجن ، مهما تطل . قالت والحب ؟ ذكرت لي ان من يحب لا بد أن يقاسي إذا كان حبيبه في السجن . قالت (هناك من يحبك) وقرأت الكثير على محياها الكئيب . مرة أخرى أواجهها بأفكارها . أعلم الآن أنها لا تقدر حقاً قيمة ما صرحت به . فعلاً ، إن من يحب يقاسي من أجل حبيبه السجين أكثر مما يعني السجين ذاته . صحيح . لكن أين السجن وأين السجين ؟ أحس أني لم أكن حراً في لحظة من حياتي مثلما أنا الآن . أتساءل وأنا أقابل أياً من زواري ، تفصل بيننا القضبان ، عمن يوجد داخلها ومن يوجد خارجها ؟ أين الرحابة وأين الضيق ؟ أين يهرب الناس حتى من أفكارهم ، فيغلفونها ويحرفون . وأين يواجهونها ويعبرون بها وعنها حقيقة . وفعلاً ؟ قلت لها : قولي إنك تحبينني . تعلمي ألا تخافي من شيء لا من ذاتك ولا من غيرك . أنا أيضاً أحبك ، تحسين بهذا وهذا يكفي . قلت لها إنك تحت شعور الحب والواجب جئت تعلنين حبك بطريقة (ما رواء القضبان) مقدرة أن تهبيني دفقة الصمود والتحمل ، حتى تمر السنوات الطوال بسلام أو أقضي وأنا على أمل . لا يمكن إلا أن أشكرك . أقول لك إن الحب له هذا المفعول حقاً . وقد أداه بالنسبة لي دون حاجة إلى أن يدعمه واجب ثقيل . رجاء ، أحبك . لكن لا تنتظريني أبداً . حرري الحب من الواجب . تحرري . إذا كان لا بد من قيد ، قيدي الواجب بالحب بالحرية ، غلفيه بذلك من فوق ومن تحت . وشديه من كل جانب برباط الحب الحرية . قلبي هنا منفتح على اللانهاية ، على الصغار : مهدي ومحمد وفاطمة . وعلى أناس مما وراء البحر . وعلى عبد الله ومحمد . على زهروية والحاج مهدي الكبير ، على عائشة وعليك بالذات يا رجاء . . . على كل أطفال العالم . . . وعلى اللعب . . . انتبهت إلى أنها كانت قد انصرفت ، وأنني أتمم أفكاري لنفسي ، لم تسمع مني بقية الحديث . لعلها فهمت سياقه

وتوقعت نهايته ، إن كان بالفعل مقدراً له أن ينتهي . عدت لنفسي شعرت لأول مرة ، في السجن بكآبة وهمّ . وواجهت الموقف : ما هذا الشعور ؟ ولماذا ؟ لأني أشعر بعذابها بأفكارها في السجن الكبير ، وإذن المقولة صادقة ، صحيحة بطرفيها . من يتعذب ؟ ومن أجل من ؟ وأينا السجين ؟

* * *

كتب . . . كتب . ابعثوا لي أوراقاً وأقلاماً بكل الأحجام والألوان وأعطوني كتباً . همتي للقراءة والعمل لا تفوقها همة . تخوُّف يغمرني بأن سنوات السجن لن تكفي لإنجاز مشاريعي ، أعمالي . لا أريد أن أضيع لحظة واحدة عند خروجي في وضع أي تصميم أو خطة . بل أبدأ في التنفيذ مباشرة . تعرفت في السجن ، وكيف كان من الممكن أن أتعرف عليه خارجه وأنا من كنت وما كنت ؟. السدراوي مهندس معماري في قضية سياسية وعدني بأن يخبرني بتفاصيلها ، طيلة ما سنقضي من سنوات سويا . لدينا متسع ، أما الآن فليس لدينا وقت لنضيعه ، فلننصرف للعمل . أطلعني على مشاريعه . تصاميم لأبنية وأحياء ومدن وطرقات وتناظر . . . في منتهى البساطة والروعة . شروحه عليها ، تصوراته لها كاملة جاهزة بحركة ساكنيها ، بل حتى بأطراف من أحاديثهم المعتادة المتبادلة على الشرفات ، وملتقيات السلاليم والمداخل . وبتحايا الصباح والمساء ومواقع مرافقتهم عندما يفتحون النوافذ . بمساقط الضوء على وجوههم ، وهم يطالعون الصحف جماعات أو يناقشونها في جلسات أيام العطل . أعجبت بمبدأ انطلاقه من مباني اليوم ، ومساوىء هندستها التي لا تسهل اتصالاً ولا تواصلاً بقدر ما تعوقه . كان يشرح لي كيف أن مبانيه قائمة على أساس آخر مخالف تماماً وطبيعي تماماً . بأبسط حركة من حركات القاطن داخل أو خارج مسكنه يجد نفسه مباشرة او عن طريق البصر او الصوت او الحركة يتصل بغيره ويتواصل معه . المداخل والنوافذ والزوايا والمرافق كلها تعمل لنفس

الغاية . . . وجدتني اخمن لماذا يسرع ويضن علي بتفاصيل قضيته ، ويقطع كل حديث خارج مشاريعه . قلت له بأني أعرف سبب ذلك ، تساءل عما أعنيه . شرحت له أنه يخشى أن تخرج به السياسة فجأة من السجن ، كما دخلت به اليه فجأة ، ولا يكون قد أكمل ما يريد . لم يكن في البداية مبالياً بما أقول ، ولكني ما كدت أنهي كلامي ، حتى توقف عن الرسم . وأخذ يحك جبهته بالقلم تارة ، ويضعه تارة أخرى ، وقال :

ـ ممكن . جائز جداً . لكن . . .

ـ لكن ماذا ؟

ـ تريث كأنه يريد التأكد مما سيقول وأردف :

ـ شيء آخر جائز أيضاً .

ـ هو ؟

ـ الموت . . . الموت أيضاً يقطع المشاريع .

* * *

أخذت فكرة جيدة عن نشاطه وتطوره لعمله ، بل ومذهبه في الرسم المعماري أيضاً : « الوظيفة . البساطة ، الجمال . . . » كان لا ينفك يفيض في شرح مبادئه هذه ، ويوضح كيف أنه يمكن أن يستغني عن مبدأ الجمال بالبساطة لأنهما متلازمان عنده . إلا أنه يصر عليهما معاً ليستطيع الدفاع عن مشاريعه ضد اعتراضات الاقتصاديين والمقاولين وإقناعهم بلغة يفهمونها ، فالبساطة تتضمن بالإضافة إلى الجمال ، كلفة تقل بعشرين مرة عن الكلفة المعتادة . . .

ـ ملاحظاتي ؟

أكد سؤاله : نعم قل ملاحظاتك . لا بد أن لك ملاحظات وأنت أيضاً مهندس ميكانيكي رسام ، أنت أيضاً معماري في ميدان آخر .

تذكرت كيف أنه نفر من تخصصي في الرسم الميكانيكي منذ ذكرته له . قال عنه إنه جاف . ذكرته بأن نفس الفكرة كنت أحملها عن تخصصه . ما زال يسألني عن ملاحظاتي . تصفحت واعدت . . مرت

التصاميم أمامي ، أقلب صفحاتها العريضة صفحة صفحة متأملاً . وقلت بدون حماس إن فيها عيباً أساسياً . .

ـ وهو ؟

ـ اللعب . . . الاطفال .

ذكرت له أن كل شيء في تصاميمه هو من الكبار وإلى الكبار . المنازل والحدائق والطرقات والقناطر. كل شيء جد ، وملاعب الأطفال ؟ مراجيحهم ؟ مستودعات حاجياتهم ؟ مسارحهم ومعاملهم . . رملهم ، والوحل العجين الذي يلطخون به جدران وواجهات الدور في أصباغها المصطنعة ، والأحجار التي يرمونها فيكسرون زجاج النوافذ المعتم ، ويخلقون ضجة الحياة . . . ؟

نظرا لي مأخوذاً . وطفق بصره ينتقل بين وجهي وصفحات رسومه وهو يقلبها واحدة واحدة ، كأنه يبحث فيها عن صورة مطابقة لنسختي .

عندك حق عندك . . غداً ترى

وانصرف عني شارداً إلى رسومه يتمتم ، في الغد ، أي بعد أكثر من شهر . بعد عمل وإجهاد ما بين رسم وتمزيق كثير ، عجت أحياؤها بحركة الأطفال ، واجهزة اللعب ، أبنية مكعبة ومخرمة وأهرام ، وانواع من مراجيح دوارة ، ملاعب ومعاجن طين ونافورات مياه ، صخور كبيرة وأحجار بكل الأشكال والأحجام . . . بائعو الحلويات ، حراس ومرشدون ببذل شرطية مقلوبة كثيرة الألوان فاقعة كألبسة البهلوانات . . كبار يتناقشون أو يلعبون بدورهم مع الصغار . . جيران يتشاجرون عن عبث الأطفال وسخافاتهم ويتصالحون .

* * *

كل يوم ، كل لحظة ، رقعة جديدة تضاف تزيد العالم حولي اتساعا . كتب وأوراق هي كل ما أريد ، غبت في تصاميم السدراوي ووجدتني أتعلم هندسته المعمارية بسهولة لم أكن أتصورها . ضاق بنا النهار لشدة المشاريع . بدأنا نطلب من الحراس ان يسمحوا لنا بالعمل بصفة استثنائية في الممر بعد العشاء ، وبعد أن يكون علينا أن نفترق كل

إلى جناحه وزنزانته . جربنا هذا النوع من العمل بضعة ليال ، لكننا وجدنا التعب أكثر من المردود بلا طاولة ولا أدوات كافية ، وبعد السعي الطويل للحصول على إذن بذلك . . اضطررنا الى ان ننظم أعمالنا بأن يخصص النهار القصير للتنفيذ فحسب ، أما التصورات والتفكير فمجالها الليل الطويل ، عندما نتصرف للنوم ويخلو كل منا إلى نفسه يمارسها بمفرده في الظلام . سلكت طريقة منتظمة أيضا في استدعاء أفكاري ، ومتابعتها وتثبيتها في الذهن بشحد الخيال : أن أنطلق مما أنجزناه طيلة النهار ، أراجعه في ذهني وأسير معه على امتداده . . . اكتشفت أن العملية ليست ميكانيكية بالدرجة التي كنت أتصور . ومع ذلك كانت النتائج مشجعة . في مدة سنة ونصف تقريبا ، استطعنا ان نعدل التصاميم ثلاث مرات تعديلات جوهرية . نعتقد الآن أننا نسير في الطريق الصحيح . وسنة واحدة على الأكثر تكفي الآن لإنجاز كل تصاميمنا إنجازاً نهائيا . ولأول مرة سمحنا لأنفسنا بعطلة نهاية الأسبوع . كانت أمسية سينمائية تخلينا عنها كالعادة ولكننا بدلا من ذلك ، دعونا بعض الأصدقاء لحفلة بسيطة في أقصى ركن بإحدى الممرات . تحدث السدراوي عن المشروع ، وسلم في نفس الوقت تصاميم تفصيلية لبعض المنازل والأحياء الى الحاضرين الذين طلبوا ذلك . تناولنا حلويات وشربنا قهوة وشايا . أجبنا عن بعض الأسئلة وإستمعنا إلى ملاحظاتهم ، ثم اختلط الحديث بيننا والنكت ، واقترح أحدهم أن نستمع الى مصطفى لكرد في بعض حكاياته الساحرة . رحب الجميع ، وصفقوا ، فوجئنا بالشعبية التي يتمتع بها هذا الزميل. بالفعل بدأ الأسلوب الشعبي الساحر يجد طريقه إلى نفوسنا ، متغلغلاً في الأعماق ، منظوما تارة أو مسجوعاً ومرسلاً تارة اخرى ، تتلون لهجته وتنغيماته مع الأحداث المدلهمة تتقاذف الفتى بدر الزمان ، يغيب في خضمها محطمة قلبه وإيمانه وجسمه . لا يكاد يطفو إلا لتغمره من جديد . . . وفي لحظات اليأس الكئيبة يكتشف الفتى أن كائناً ينمو شيئاً فشيئاً في داخله ، تغذية الأرزاء والبلايا . إنه يولد من جديد . يموت الموت وييأس

اليأس ، ويولد الفتى من أتون تغريبته رائعا عميقا في حبه ، في إيمانه ، في جسمه . .

كل زمان عنده بدْرَه	اللي يضويه ويعمّرُوا
ما همّوه اللي ضرّوا	هذا حال الزعما
كل بدر عندو زمانُه	كلّ قول عندو مكانُه
اللي غبْرُوا لا بد يبَانو	دايرين في الفلك علاما . . .

في نهاية السهرة الممتعة الساحرة وقبل أن نفترق عبرنا ، السدراوي وأنا ، عن رغبة واحدة في نفس الوقت . الآن أصبح عملنا سهلاً . علينا فقط أن ننسخ الأصول . عملية آلية تقريبا . لقد فزنا . لم يداهمنا الموت ولا الإفراج . فلنخصص وقتا يتعرف فيه كل منا على تفاصيل قضية الآخر . اتفقنا .

* * *

وجدتني عاجزاً عن فراق السدراوي بعد الحفل البسيط . ابتهاج يغمرني . ولا تزال نصف ساعة أمامنا نقضيها معا . كررت إعجابي بشعبية مصطفى لكرد بين السجناء ، وسحر حديثه وأسفت لذوينا خارج السجن . هل يتصورون هذا المرح والصفاء وهذه الشاعرية ؟ راهنت على أن في جلدة مصطفى لكرد شاعرية حقيقية ثاوية يجهلها هو نفسه ، ولا يمكن أن توجد خارج الأسوار . . .

قطع السدراوي خواطري معلنا خوفه علي من روح الشعر هذه . صارحته بأن مشاريعنا نفسها ليست إلا شعراً . . . ووجدتني أتحمس لفكرة خطرت في الحال : الشعر إيقاع ونغم وانسجام كالهندسة والحساب . لا تناقض بينها .

ـ مهلاً : صاحبك بالعكس من ذلك .

ـ من ؟

ـ مصطفاك لكرد .

ـ يعني ؟

ـ آلة حاسبة من النوع الممتاز .

لم أعهد في نفسي من قبل مطاردة المعلومات المتعلقة بالغير ، ولكني الآن ألح لأعرف ماذا يعني السدراوي بكل ذلك ، وما تصوره النهائي عن مصطفى لكرد . حدثني عن نهاية الحساب التي أدخلت مصطفى لكرد للسجن بالقدر المضبوط الذي توقعه لنفسه ، وبالتصميم الذي رسمه حرفيا . فبعد سنة ونصف ينهي عقوبته ، ويغادر السجن ليعيش بقية حياته مسروراً سعيداً كما يقدر ، وكما خططّ ، لا يهدد مشروعه إلا الموت الذي يهدد جميع الناس . فأين الشعر في كل هذا ؟ أفحمت ولكنني لم أقتنع . لا يمكن لتلك القدرة أن تموت على هذا النحو . وهذا السحر الذي يحكيه على أنه من محفوظاته التلقائية ، هذه الحكايات التي لا تنسب لغير روح الشعر ، كيف تموت ؟ يمكنها أن تغفو تحت دوائر الأرقام ، وتكمن لعدم الاستعمال ، ولكنها لا يمكن أن تكون سرابا مطلقا . شغفت بمصطفى لكرد واقترحت على السدراوي أن نستعين به في مراجعة مشاريعنا من ناحيتها الحسابية على الأقل ، فمشاريعنا تخدمه كما يمكنه أن يخدمنا ، رد السدراوي بحَسْم أنه لا يصلح . لماذا ؟ لأنه حسب لنفسه . حسب وانتهى ، وأنهى نفسه .

* * *

عزيزي أحمد

....

(. . . مشروع العودة الآن ناضج في ذهني ، خاصة بعد تجربتي الأخيرة مع جانيت بدا لي أخيراً انني كل شيء ولست شيئاً في نفس الآن . لا بد أن أعود ، ولكن بم أعود ؟ لا أعني المال وليست مشكلتي فيه ، وكفايتي متوافرة منه . العودة بالنسبة لي يجب أن تكون شفاء نهائيا من الهجرة . ولو عدت لما تحملت أن أكون مجرد صفر إلى اليسار . . .).

أخوك محمد

ب . . في ٣/ ١١/ ١٩٧٧ .

* * *

قال الراوي : آن الاوان لنتحدث عن قصة شهراموش مع النساء كما وعدنا بذلك . . إن لمتعجب أن يتعجب من أمر شهراموش في موضوع النساء وكيف أنه لا يحتمل حديثا يتعلق بهن ، وكيف أنه لم يعرف عنه معاشرة امرأة أو الطمع في معاشرتها . قال . . . كان ألذ شيء إلى قلب شهرامواش ، مشاهد اقتتال الوحوش وافتراس بعضها لبعض بعد تجويعها وإطلاق بعضها على بعض في حلبات ومعتركات خاصة ، نظمت بحيث يجلس شهراموش وحاشيته في أعلاها يشرفون على صراعها الضاري حتى النهاية . كانت فرجات من هذا النوع تنظم مرات متعددة في الأسبوع وكلما أشار شهراموش بذلك . ومن ثم كانت أهمية منصب زاهور مروض الوحوش . فقد كان من الواجب أن تكون الوحوش مروضة ومجوعة أو بالإجمال معدة للاعتراك والاقتتال ، بمجرد ما يريد شهراموش ذلك ؛ بالإضافة الى ذلك كان من الواجب أن تكون متنوعة بحيث تستجيب لرغبة شهراموش إذا طلب رؤ ية ضفادع أو ثعالب أو ثعابين أو نمور أو غيرها . ولم يكن من المألوف ، ولم يحدث قط ـ على الأقل مع زاهور ـ أن طلب شهراموش اقتتال حيوانات معينة لم تكن مهيأة ، أو لم تكن في الحوزة ، بل إن زاهور كان من التمرس والإخلاص لمهنته ، والتفاني فيها ، أنه كان بعد استجابته لرغبة شهراموش ، يعرض عليه عروضا إضافية لحيوانات ، ربما لم تخطر له على بال فتضيف إليه مزيداً من المتعة والمسرة . وكانت بعض العروض تتضمن اقتتالا غير متكافىء طبعا ، بين بعض بني آدم ، وبعض الوحوش . أو بالأحرى تتضمن افتراس الوحوش لبني آدم من المغضوب عليهم ، والذين آثر شهراموش ، أو اجتهد زاهور للقضاء عليهم بهذه الطريقة . قال الراوي : ومثل هذه المشاهد الآدمية في الواقع كانت قليلة ، ولا تدخل كثير مسرة على شهراموش بالذات رغم قسوته . كانت مشاهد اقتتال الحيوانات فيما بينها ، وافتراس بعضها ممتعة له ، لأنه يرى أنها في ذلك متكافئة ومن ثم ضراوة الصراع . ولذلك كان يشترط على زاهور ، تعريض الحيوانات المقتتلة لنفس الظروف المهيئة لذلك من

تجويع وغيره . وأحيانا إذا أمكن ذلك أن تكون متساوية في السن أو اكتمال أدوات الاقتتال من أظافر وأنياب وغيرها . فكلما تكافأت الفرص طال أمد الفرجة ، واشتدت ضراوتها وهو أمر وجد شهراموش أنه لا يتوافر إذا عرض أمامه شخص بشري بائس مع اسد جائع . . . وأكثر من ذلك كان من مهمة زاهور تبعاً لرغبة شهراموش أن يفرض للاقتتال والصراع وحوشاً من جنس واحد إذ يجب تبعاً لذلك أن يقتتل أسدان أو نمران أو ثعبانان . . . أو ضبعان الى أن يأتي أحدهما على الآخر فيفترسه أو يموتا معاً . ومن هنا كانت أهمية مسؤولية زاهور مرة أخرى . ففضيلة التريض بما تصل اليه من طاعة الوحوش لسوط زاهور وصوته ، يجب ان تصل أيضا بالوحش الى أن يأكل لحم بني جنسه . وذلك عن طريق تجويع منظم ، وعرض لحم بني جنسه عليه . ذلك أن كثيراً من الحيوانات تعاف لحوم بني جنسها ، إذا لم تكن مضطرة الى ذلك ، وبعضها يعرف ذلك ولو كان مضطراً كان ترويض زاهور يتضمن تشجيع الحيوانات بروائح وطعوم بني جنسها قبل العروض . من ذلك تطييبها بمختلف الابتكارات ، وتقديمها لها في ظروف مريحة ومشهية مع علامة تدل على جنسها الحيواني ، والاقتصار على كمية قليلة تكفي باستمرار تفتح شهية الحيوان للأكل . قال الراوي : وكان من المنتظر لولا هذا الترويض ، أن يفتتح العرض أمام شهراموش بظهور أي حيوانين مفترسين جائعين من نفس الجنس ، وبدلا من ان يقتتلا ، يحتك أحدهما بالآخر ويقعيان ، أو يتمددان من الجوع كتفا إلى كتف أو جنبا إلى جنب ، بحيث لا يشعر أي منهما بأن الخطر عليه من الآخر ، أو أن اشباع جوعه يتطلب قتل الآخر . وكان نجاح زاهور ساحقاً باهراً ، فلم يكن يفتح القفص عن أي حيوانين حتى يندفعا مباشرة كل اتجاه الآخر في ضراوة كأي عدوين لدودين . على أن زاهور كان بالمرصاد محتاطا ومهيأ لوسائل الحث والتحريض لاستخدامها ، إذا ما وقع من الوحشين تردد أو تراخ في البدء ، أو أثناء الاقتتال . فكان يكفي لمثل هذه الحال ، أن يرمي

إليهما بشيء قليل مما تشبعا بريحه وطعمه ، فيذكي فيها روح الاقتتال .

قال الراوي : لمتعجب أن يتعجب من المتعة البالغة ، والإقبال المستمر الذي يجده شهراموش في نفسه على هذه العروض ، بدل مجالس الأنس والطرب والنساء وغيرها من الملذات التي ينصرف إليها أمثاله . قال : لم يكن شهراموش يعرف متعة غير هذه العروض أو محاربة أعدائه . ولم يكن لإحدى هاتين المتعتين أن تتنافى مع الاخرى ، فحتى أثناء الحروب كانت متعته ، والعامل المجدد لنشاطه ، ينحصر في مشاهد اقتتال الوحوش أثناء فترات الراحة العابرة ليلا أو نهاراً .

قال : لمتعجب أن يتعجب حقا من هذا الانحراف ، وخاصة إذا ارتبط في نفس الشخص بانصراف كلي عن النساء ، بل بكراهية لمجرد ذكرهن في مجلسه أو الحديث عنهن بحضوره ، لدرجة أنه سن كثيراً من القوانين التي من شأنها أن تجعل النساء على هامش الحياة اليومية الجارية ، بحيث لا تكاد المرأة ترى في كغاشي إلا في ظروف جد خاصة ، أو معروضة للبيع في سوق النخاسة . . . قال الراوي : ولقد بلغ من تأصل هذه الطبيعة في شهراموش أنها حجبت عنه أن يحفظ على استمرار عظمته بنسل يأتي به عن طريق معاشر امرأة ما . وكأنه لا يفكر في ذلك . والواقع أن أمر شهراموش في كراهيته للنساء قد يعود إلى خبرة قاسية ، مر بها في صغره ، ولم يكن يعرفها إلا قلة من الناس ولا يستطيع أحد تداولها سراً أو جهراً . فقد كان والد شهراموش قائداً لفرقة عسكرية ، في جيش كغاشي ، وكان كما يبدو له في ذكريات الطفولة ، شاباً وسيماً ممتلئاً صحة وعافية وحبا لزوجته الشابة الجميلة . فتح شهراموش عينيه على أبوين شابين جميلين ، ولم تكن هناك حرب تستدعي غياب القائد الشاب ، فكان البيت هادئا منعما ، بدفء العاطفة المتبادلة بين الزوجين ، يذكيه ترعرع طفلهما بصحة وعافية . . . ولم يشعر الطفل قط بغير هذا الحب والود المتبادل منذ وعى ذلك وهو في السادسة من عمره . جيث أفاق مذعورا من نومه ذات يوم ، على أصوات مزعجة . وأفاق ليرى والده بلباسه الرسمي شاهراً سيفاً مضرجا

بدماء شبحين عاريين أحدهما كان رجلاً لا يعرفه ، والثاني كان أمه . واختفى الأب دون أن يضمد سيفه الدامي . . . اختفى وغاب الى الأبد ، لا يعرف أحد عنه شيئا . . .

قال . . . تلك هي الصورة التي ظلت منقوشة في ذاكرة شهراموش ، تطغى على كل ما عداها ، كلما عرض له الحديث عن امرأة . . . وتعرجت السبل بشهراموش منذ ذلك الحين ، مما لا مجال لذكره حتى أصبح فيما بعد ، عظيم كغاشي .

* * *

رأيت الصغار الثلاثة مهدي ومحمد وفاطمة كالواجمين ، متحلقين حول لعبة مهجورة . يقولون إنني نسيتهم ، أفقت مذعوراً . منذ سنتين لم أر حلما مزعجا . أهي عودة إلى حالي الأولى ؟ لا يمكن أن أنساكم . أنتم في كل مشاريعنا . أيضيق بي عالمي الفسيح ؟ مرة أخرى عدت إلى النوم ، أرغمت نفسي ، أغمضت عيني وبدأت أحبس أنفاسي لأرتخي بالإيقاع الرتيب ، رأيت رجاء من بين القضبان تمد إلي جواز السفر . تقول تعال نمض بعيدا . رجاء . . . لا يمكن سحنتها حزينة كئيبة تقول إنها ستنتظر . رجاء . لا تنتظري رجوتك في ذلك من سنتين . . . تزوجي وأنجبي ، ولا تكفي عن حبي إذا كان ذلك في اتجاه عواطفك . . . لا ترغمي نفسك على شيء ، واتركي الأمور عادية بقدر الإمكان . . . تحكمنا هو الذي يشعرنا بالتناقض . . فتنشأ المحنة . ليلة مهمومة قضيتها . نهضت الصبح بمزاج يعود لسنوات ما قبل السجن . ها قد عادت محنتي من جديد ، بعد أن تيقنت أنها غابت إلى الأبد . وأنها كانت سحابة عابرة في سنوات الوهم ، أينقلب الوضع ، وتصبح سنوات السجن هي الوهم ؟ لا أحتمل . هذا لا يمكن . سلمت على السدراوي بفتور . انتبه أيضا إلى حالي . سألني . لم أرد وأنا أتناول فطوري . كنت أنتظر أن يلح علي أكثر ، في معرفة حالي لأحدثه ، لكنه غرق في الصمت وقام قبلي . تريثت قليلاً أفكر في أنني سألحق به بعد حين ليبدأ قصته . بأي مزاج سأستمع إليه أو أتابعه . وبأي مزاج

سأحكي له قصتي ؟
لحقت به في الورشة ، لم أجد أمامه أوراقا عريضة طويلة ، كأوراق التصميمات . وجدته يكتب في أوراق عادية . قدرت هذا من قبل ، فسيكون في مزاج رائق ليبدأ قصته . قلت له إنني لم أنّم جيداً للمرة الأولى منذ . . نظر إلي كأنه لم يسمع وعاد يتأمل ويكتب . توقف بعد لحظة وأخبرني بأنه هو أيضا لم ينم جيداً . لقد انتبه بعد سهاد طويل إلى شيء هام (تصحيح نظرية تناسب قدرة احتمال الأعمدة المائلة ، مع انفراج زاوية مضلع الارتكاز) وهو أمل كان يراوده من أيام دراسته ثم تغافل عنه . ما الذي جاء بهذا الافتراض القديم الآن بالذات ؟ أيكون السدراوي قد شعر بمثل ما أنا فيه فأنقذ نفسه بهذا الافتراض العتيد ؟ أسئلة اختلطت في ذهني ، مع سوء المزاج من أثر السهاد المضني ، جعلتني أتوقع لحالي بؤساً لا مثيل له ، وردة إلى عالمي القديم . لم أكن قادراً على التركيز فيما سمعت . ولم يكن السدراوي أيضا قادراً فيما يبدو على الشرح والإسهاب ، ارتدَّ عني بسرعة إلى كناشُة . كان يطارد أطراف الافتراض ، كأنه خائف من أن يفلت منه . . . توقفت بجانبه لحظة أراقب قلمه المتردد في معالجة الأرقام والرموز تركته عائداً إلى نفسي . في طريقي إلى زنزانتي جربت أن أعابث بعض الحراس المسلحين بكلمات فكاهة كالعادة . لمجرد أن أتأكد أن حالي لا تزال عادية كما الفتها هنا منذ سنتين . . . لم اجد لذلك طعما . وجدت الكلمات تصدر عني باردة والردود أكثر . أشد من ذلك ، أقوى من كل ذلك ، أن رجفة خفيفة راودتني وأنا أمر قرب الحارس المسلح . يجب أن أعترف الآن بأنني أنحدر متراجعا نحو عالمي القديم . لأعترف بذلك بصفة نهائية . مستحيل . يستحيل ، شيء من الانتحار أهون من هذه العودة . ولعلي مع ذلك أعزي نفسي مجرد تعزية باستحالة العودة ، المؤكد أن مزاجي كسول مكدر لا يقدر على متابعة حركة ذبابة في زنزانته . بدوا لي في أول الأمر يلعبون لعبة مرحة يمسك فيها كل طرف بيد الآخر ، ويتحركون في

ذائرة ، وربما كانوا ينشدون شيئا لم أتبينه على البعـد . وبدأ المشهـد يتغير شيئا فشيئا ، أصبحت كل من رجاء وعائشة متقابلتين ، تمسك كل منهـما بيـد أحد الأولاد تتجـاذبان في حـركـة متعـاكسـة قـويـة . الأولاد بينهـما يستغيثون . بشيء لم أتبينه عـلى البعد . أحـاول أن أتحرك نحـو الدائـرة ألبي الاستغاثة ، فلا أستطيع بشيء يقعد بي . ثقـل ماء ورصـاص يشد ركبتي . الاستغاثة تتضخم داخلي . . . فجأة يستوي الحاج مهـدي قائـما قـرب الدائـرة إحدى ذراعيـه عـلى كتف زهـرويـة والأخـرى عـلى كتف فطومة . . يترك امرأتيه ويتقدم خطوات نحو الدائرة، نحو مركز الجذب . . جـرد سكينـة العيـد الطويلة اللامعة ، يرفعها ليقطع حركة التجاذب من منتصفها ، بقطع الأيدي المتجاذبة ، السكينة مرفوعة . . أصيح . . السكين تهوي ، أصيحُ . . أصيح . . أحس بضربة السكين في صدري . . الحارس يهزني من ذراعي يوقظني ينبهني إلى أنني اهذي وأصيح في نومي . . أمسح العرق عن وجهي بكم القميص . يناولني سيجارة ويشعل مثلها . أسأله عن الساعة . الواحدة صبحا . تنتهي السيجارة والحديث القصير . يتركني ويخرج . يغلق الزنزانة ، ويطفيء الضوء من الخارج أغرق في الظلام أغرق تحت الغطاء ويغرقون فيه معي أراهم الآن أحياء يتحركون أمامي بين جلدة العين العين وبؤبئها في الإغماض ، متحلقين حول دمية مهجورة ، متذمرين من أنني نسيتهم ، الحاج مهدي في فراشه ، في الغرفة المجاورة ، يسعل بين الحين والحين في جوفي ، فأرتجف ويضيع اطمئناني واستعدادي لفراش ليلة العرس . تقول فطومة كن رجلاً ، وانس ما حدث . يدخل الحاج مهدي لاهثاً . يفاجئنا في الفراش عاريين ، يخفي وجهه من خجله من المشهد . لا يريد إحراجنا ، لا أستشعر حرجاً لأنني أمارس حقي في الزوجية . جاءنا بهدية العرس . يحضرها إلينا ويرمينا بها ، ونحن في الفراش ثم يولي منصرفاً راضياً ، عن فحولة ابنه ووارث سره ، وعن فطومة بالذات . هديته إلينا دمية تفحصها فطومة ونحن ضاحكان مبتهجان متشابكا الأذرع في دفء الفراش . . . أقول أسميها . أفضل أن نسميها فاطمة ،

تيمنا بالبنت البكر . يطل علينا وجه الحاج مهدي مرة أخرى ، رأسه فقط من وراء الستار يقول : « سموه مهدي » . لست نائماً ، لست يقظاً ، ولا حياً ولا ميتاً . . . إنهم يتحركون أمامي أحياء ، المسهم بيدي وأسمعهم وأراهم بكل جارحة مني . اسألهم فيجيبون ويسألونني فأجيب .

* * *

قال الراوي : ظلت الأميرة بيروز ، في قصر خاص تحت الرعاية والحراس بأمر من شهراموش ، ولو كان الأمر يتعلق بأي رجل آخر غير شهراموش لأمكن القول إن قلبه بدأ يميل نحوها . لكن ما هو معروف من كراهية عظيم كغاشي للنساء، يجعل المراقب لسلوكه يحتاط ولا يتسرع في الحكم . ومع ذلك فان جزءاً من خطة الحكيم روزباه قد بدأ يتحقق . فها هي ذي الأميرة بيروز لم تعدم منذ الجلسة الأولى ، بل ها هي ذي منعمة في قصر من قصور شهراموش ، وقد تأكد نجاحها وثقة بعلمها . وها هو ذا الحكيم روزباه نفسه منعم (لولا زهده في متاع الدنيا) بالقرب من الأميرة ، وقد استمع شهراموش إليه على انفراد أكثر من مرة ، وآمن بصلاحه ونصحه وإن لم يعلن ذلك رسميا . ولم تكن هذه التحولات خافية على روزباه ، لأنه كان ينتظرها ، ولكنه لم يكن متعجلا ، فقد كان يعتقد أن التحول السريع لا تؤتمن عواقبه .

قال الراوي : ومضت شهور كالدهور على الأميرة بيروز قبل أن تأتيها أول دعوة إلى حضرة شهراموش على انفراد في قصره . كانت واثقة من نجاحها ، وكانت تعلم من روزباه أن شهراموش يقلب النظر في أمرها ، وأن الصبر كفيل بإبلاغها المراد .

قال الراوي : تهيأت الأميرة بيروز في أحسن منظر وأبهاه لقلب بشر ، وسارت يحملها أربعة خدم على سرير نصبت عليه ستائر من غلائل حريرية شفافة ، يحف بموكبها الحراس . وفتحت لها الأبواب السرية ، والسراديق التي تصل بين قصور شهراموش . ولم تمش ساعة حتى وجدت نفسها في حضرة شهراموش ، فأدت إليه التحية باحترام ،

وهش لها وابتسم ، وأشار عليها لتجلس بالقرب منه . وقد مدت أمامه مائدة أكل لم يمسها بعد . فدعاها لمشاركته . . . قال . . . وأظهرت بيروز من الكياسة وحسن التصرف ، وأدب المعاملة ، ما يفوق الوصف . وزاد ذلك رجاحة عقلها ، وحسن حديثها وطرائفها ، حتى إن شهراموش لم يكف عن الضحك والابتسام . بل قال لها بصريح العبارة ، إنه لم يضحك أو يبتهج ، ولا أكل بشهية كما فعل تلك الليلة . وانصرفت بيروز بعد العشاء تحدثه بحكايات ومسليات ، وأخبار تنتقل بين موضوعاتها كالفراشة بين الزهور ، فازداد شهراموش إعجاباً بها ؟ واستأنس بقربها كثيراً ، ولم تمض أيام حتى أصبح لا يطيق الخلوة الى نفسه بدونها ، فأمر بتخصيص جناح لها في قصره بالذات ، ليسهل وصولها إليه كلما أراد ذلك .

قال الراوي : ثم حدث النبأ العظيم وأعلن في الناس : (أن عظيم كغاشي سيتزوج الأميرة بيروز بنت السماء) وكان عرسا عظيما لا يرى نظيره حتى في الحلم . ولأول مرة في تاريخ كغاشي ، ينعم بالفرح حتى عمال مناجم الملح بيوم راحة في حياتهم وأكل جيد . فلقد أمر شهراموش بإطعام كل جائع في كغاشي وإراحة كل متعب[1] . قال الراوي : وكان أشد الناس فرحا بكل ذلك روزباه الحكيم ومرقادو الراعي . وهما يريان خطتهما تتوج بالزواج السعيد ، وإن كان الحكيم يرى الطريق ما يزال طويلاً وشاقاً . كان الحكيم يرى أن اصلاح كغاشي وإزاحة المظالم يتطلب تغييرا في ذهنيه القائمين عليها ، وعلى رأسهم شهراموش نفسه الذي يجب البدء به لمكانته وشذوذه .وذلك بإعادة تطبيعه بما يجب أن يكون عليه الإنسان . . . وقد قامت بيروز بدورها خير قيام . فطيلة شهور اتصالها بشهراموش تدرجت به إلى حب الفنون وخاصة الموسيقى والشعر ، وجعلته يأنس الخمر وكان ينفر منها لاقترانها عنده بالنساء ، وموقفه منهن كان معلوما . . كما أنه شغف بأخبار

---

(١) يقال في رواية أخرى إن أمر شهراموش لم ينفذ فيما يخص عمال المناجم . وسيأتي بيان ذلك .

التاريخ ، وحكايات التسلية ، ومواقع الأفلاك وحركاتها ، وعلم البحار والرحلات وتقسيم الكون . . إلى آخر ما كانت تعرفه بيروز وتتقنه ، حتى فتن بها شهراموش . وعاودته الطبيعة البشرية التي تنكر لها طويلاً . فأعلن رغبته في الزواج وكان ما كان . . . وكانت أوامر شهراموش ، بالاحسان إلى عامة كغاشي بمناسبة زواجه ، تدل على الانقلاب العظيم الذي وقع له . قال . . . كان الحكيم روزباه يعلم أن اعادة الطبيعة البشرية إلى شهراموش ، وإخراجه من شذوذه ، يجب أن ينتهي إلى ما هو أكثر . إلى أن ينجب من بيروز غلاما يتكلف روزباه بتربيته على ما يراه صالحا ، ليكون من بعد ، عظيما صالحا لكغاشي ، تزول في عهده آخر المظالم ، ويعم العدل والرخاء ، لينتشر نمط الحكم العادل في المعمور كله بدون حرب ، ويعم السلام والوئام بين بني البشر . قال . . . ولم يكن الحكيم روزباه واثقا بأن التغيير في ذهنية شهراموش سيكون مطلقا . أو يحقق كل أهدافه ، لأنه كان يدرك تلك الآثار العميقة التي تركتها التنشئة التي مر بها شهراموش ، والتي لا يمكن تجاوزها إلا في حدود ، وبصعوبة . كما كان يعرف أن هناك أصحاب المصالح من ذوي المناصب ، الذين لن يتركوا الأمور تسير في هذا الاتجاه بسهولة . ولكنه كان يعول على ذرية شهراموش من بيروز ، التي سيمكنه ان ينشئها التنشئة التي يريد ، فيجنبها الخوف والطمع والشهورة وما اليها . . .

* * *

قال الراوي : كان الأمر كما خمن الحكيم . فإن جماعة أصحاب المناصب والمصالح وعلى رأسهم همشير وشيهوك ، تنبهوا إلى الخطر ، وشعروا بالتغيير الذي بدأ يطرأ على شهراموش ، ولكنهم في الواقع فوجئوا بعمق ما وصل إليه ذلك ، وخاصة الزواج . وقد بدأوا في خطتهم المضادة ، ومن ذلك أن شيهوك فيما يقال ، لم ينفذ أوامر شهراموش فيما يخص إطعام عمال الملح وإعطائهم يوم راحة بمناسبة عرسه . فقد كان شيهوك ومن معه يرون في هذا خطراً كبيراً وانقلابا خطيراً ، كان كفيلاً بالقضاء على مصالحهم ومناصبهم ، التي يرون فيها

مناصب كغاشي كلها . فرأوا أن عمال الملح إذا تذوقوا الراحة وليوم كامل ، وكذلك الطعام الجيد ، فسيتعلمون طرقا في الغش والمساومة ، زيادة على ما يعرفون من ذلك . ولذلك يروى عن البعض أن يوم الراحة والإطعام الذي أمر به شهراموش ، كان على عمال الملح يوم عذاب ، دفن فيها مئات منهم أحياء أمام أنظار الآخرين . بدعوى قلة إنتاجيتهم وتظاهرهم بالمرض ، أو مرضهم فعلاً . والمقصود بذلك كما تقول الرواية : أن يفهم عمال الملح أن المرض الحقيقي أو التظاهر به سببان عندما يؤديان إلى قلة المردودية ، والجزاء على ذلك هو الدفن . ويقال أيضا إن الشائعات أطلقت في صفوف العمال ، بأن كل ذلك كان بأمر شهراموش في يوم عرسه ، لأنه يريد ابتداء من يوم زواجه ارتفاعا مطرداً في إنتاج الملح ليبني من دخله قصراً من الماس الأخضر الأندر لأميرته .

قال . . . تغير الكثير من سلوك شهراموش . فمجالسه أصبحت أكثر أنساً ، يجتمع فيها الفنانون والأدباء والعلماء . ويدعو إليها كبار أصحاب المناصب ، الذين كان الكثير منهم يخفي رأيه الحقيقي ، ويظهر ابتهاجه بها . وأكثر ما هال الطغمة القديمة ، وارتاعت له ، أن شهراموش لم يعد مشغوفا بمشاهد اقتتال الوحوش ، وافتراس بعضها للبعض . فأصبحت عروض ذلك تقل حتى أصبحت نادرة ، وتقلص بذلك دور زاهور في الظاهر على الأقل ، وإن ظل على عنايته بوحوشه وحيواناته .

ومن أهم التغييرات أن الحكيم روزباه أصبح يحضر كل المجالس الرسمية لشهراموش، بجانب كبار أصحاب المناصب، مع أنه لم يعين في منصب خاص . قال . . كان روزباه يقوم بدور الناصح والمرشد ، وقد امتلك ثقة شهراموش ، كما امتلكتها الأميرة بيروز ، لما أدخلته من سعادة حقيقية على شهراموش منذ تعرف عليها ، وخاصة بعد زواجه بها وحملها منه .

ولم تزد الأيام الحكيم روزباه إلا مكانة في مجالس شهراموش ،

لصواب ما كان يشير به في كل الأمور ، حتى أصبح لا يبرم أمر بـدونه . وبطبيعة الحال، تحمل أصحاب المناصب ذلك على مضض ، وأظهروا له خـلاف ما يضمـرون ، لأنهم لم يستطيعـوا غير ذلـك ، نظرا لسداد رأيه وحسن مشورته . ولعلهم دبـروا الكثير ممـا لم يأت بنتيجـة ، ولم يعلم به أحد . على أن الحكيم العـارف ببواطن النفـوس ونزواتهـا ، كان متهيئـا لذلك ومنتظرا له ، بل لعل عدم ظهور شيء من ذلك كان يحيـره ، لأنه يجعله يفكـر بـأنـه ربمـا كـان عـلى خــطأ في بعض تحليله وفهمـه للنفس البشرية ، التي نشئت على الانحراف .

* * *

حَلَّ فِيَّ عالمه العجيب وسكنته . مصطفى لكرد عجيب وطريف . قال في نفسه ذات يـوم : الكرسي هـو الكرسي . المكتب هـو المكتب . النافذة نافذة بزجاجها المشقوق المعهود وستارتهـا القديمـة . . حتى اللوحة الـرديئة عـلى يمين الـداخل ، ورفـوف الوثـائق ، والسجادة المتـآكلة تحت القـدمين . . . كـل شيء هو هـو . . . كما كـان ويكون . . لا يتغـير إلا بالتقادم . قال مصطفى لكرد في نفسه بعبارات لا يسمعها ولا يعرفها إلا هو : (لا بد أنهم كانوا من طينة أخرى هؤلاء الذين عملوا قبله في هذا المكتب) حتى أنهوا الخـدمة أو انتقلوا أو استقـالوا . نفس الأوراق بنفس الخانات . . تتغـير الأرقام التي تملؤهـا . تتغير عـواملها ومجـاميعها . . . لكن الإطـار هو هـو . . ولا تفنى الأوراق رغم ما يمـلأ منها مـا يتلف . فتكفي إشارة إلى الشاوش حسن ليحضـر منها أكـواما من المخـزن . قال مصطفى لكرد : تمنيت أحيانا لمجرد العبث الفكري ، أن يقول الشاوش حسن إنها انتهت . . نفـذت . . . ويجب طبع كميـة جـديـدة منهـا ، أو بالأحرى طلبها من الإدارة المركـزية . لم يحـدث ذلك قط ، ولا يمكن أن يحدث بعد أكثر من اثنتي عشرة سنة ، ولم يعد مصطفى لكرد يفكـر به ، إن صـح أنه يستـطيع أن يفكـر . إنـه فقط يحسب . مئـات الآلاف . . الملايين بالعشرات . . . أوراق مـرصوفـة ومصفوفـة . . . أكياس القـطع الفضيـة والنحاسيـة . . . إنه يحسُب ويحسب فقط ويجب أن تكـون المادة

المفكرة فيه قد تعطلت أو هذا شعوره . المقعد ، هو المقعد النافذة هي النافذة بزجاجها المشقوق والستارة . . . والسجادة المتآكلة . . . منذ اثنتي عشرة سنة . تساءل مرة كم أحرق من سيجارة . . . أي جسر يمكن أن يتكون بالتحامها ليوصله الى أبعد كوكب عن الأرض ؟ كم مرة وضع يده اليمنى على جبهته ، طوال اثنتي عشرة سنة في عالم التقادم والسكون ؟ كم ؟ يضرب ويجمع حصيلة السنوات الطوال . . . أليست سخافة أن يكون المجموع شهوراً متصلة من مجرد وضع اليد على الجبهة بحركة بسيطة عابرة ؟ كم مرة تمخط وكم فترة ذلك . . . ؟ أليس هو آلة حسابية ، مجرد آلة حاسبة ؟ المقعد هو هو ، والأوراق . . . لا بد أن جلد المقعد قد امتزج بالجلد الآدمي التي يجلس عليه . . . كان يحسب ويحسب فقط ، متأكداً من أنه لا يفكر . . وبمجرد الحساب وبدون تفكير كالعادة في عملياته الحسابية ، وجد أن عليه أن يستمر هكذا لمسافة تسع سنوات وثلاثة شهور وسبعة أيام ، واحدى عشرة ساعة ونصف تقريبا (تساهل في الدقائق والثواني) ليصل إلى تقاعد نسبي . ويحتاج الى ثلاثة عشرة و . . . لتقاعد أكمل . مجرد حساب بدون تفكير . ووجد بالحساب والتقريب والتساهل ، أنه بين حدي النسبي والأكمل سيتمتع إذ ذاك ،بما بين الثلث وأربعة أخماس المرتب الحالي، مع إدخال ترقيات الامتياز التي يحظى بها دائما . . . ودائما بالحساب ، وبدون تفكير ، توصل إلى أنه سيتمتع بالهدوء والسكينة فرضا ، لفترة يتراوح متوسطها ما بين خمس وعشر سنوات اذ بالحساب أيضا ، لا بد للمرء أن يموت في الخامسة والستين حتى وإن ظل حياً . . .

أشعل السيجارة ووضع يده على جبهته ، وظل يرمق أرقام مصيره المحسوب في عيونها المستديرة ، وارتخاءاتها ساعة من فراغ وامامه فنجان قهوة مركزة على الرصيف في ظليلة المقهى المعتاد ، وسيجارة تحترق بين الأصابع ، تحترق حتى اطفأها مصطفى لكرد ، ورشف آخر ما في الفنجان ، وقام سائرا . خطا خطوات توقف بعدها مركزا بصره على اللوحة النحاسية اللماعة . . . ثم دلف الى الداخل . . . صعد

الدرجات النظيفة طرق . . . وجه مشرق وعبير عطر ، وزينة ، يرحبا الأستاذ هنا ؟ طبعا . من يريده ؟ مصطفى لكرد ، موضوع خاص .

المقعد أريكة فخمة متحركة . الستائر سماوية تنسدل على حوافيها خيوط حريرية مجدولة . . . جهاز التلفون محمول على ظهر جمل خزفي . . . سجادة تمثل حقل زهر ونحل . . . رفوف تملؤها مجلدات مذهبة ، أريج راحة وعطر ونظام . . . بسمة تفتح الباب ، وبسمة تستقبل في الداخل . . . قال الأستاذ المحامي تفضل . . يا أخي أهلاً .

جلس مصطفى لكرد على أريكة مقابل المحامي زميله القديم ، عيناه تفرغان الفضول والدهشة ، بنظرة ماسحة من نحل السجادة إلى ظهر الجمل . . إلى . . . أهلاً وسهلاً . شكراً شكراً

يمتد نحوه حق السجائر محلى بالصدف الملون ، وتلتهب بسمة الإشعال . مص السيجارة شاكراً ودخل الموضوع مباشرة . القضية ليست قضيته ! في الواقع ليست قضية أحد ! ولكن ، لنقل أنها قضية صديق حميم لا داعي للبوح بإسمه الآن . قضية سرقة . موظف اختلس أموالا عمومية . الحجة ؟ هو معترف بذلك عن طواعيه وبدون تعقيدات . المبلغ ؟ ما يكفي لشراء عمارة من خمس طوابق أو ثلاث فيلات . . . لنقل مائة مليون تقريبا . . . نعم . دفعة واحدة اختلسها . إغواء شيطاني ، والنفس أمارة بالسوء . . التهمة ثابتة ولا أحد يفكر بإنكارها أو دفعها . وعلى كل حال لم يكتشفوه ، بل هو الذي ذهب ليعترف من ذات نفسه . أعلن عن النقص الحاصل واعترف بجريمته . . المال بدده بطريقة عشوائية ، وعلى كل حال لم يبق أثر لأي فلس . . كيف بدده ؟ لنقل إنه القمار والخمر والنساء . . وما شئت من ذلك وغيره . المهم أنه لا فلس قد تبقى من المبلغ ، والمعترف لا يملك شيئا عدا رقبته ومعطفه . . . ليست له أية أملاك طبعا ، مهما كان نوعها . زوجته تملك عمارة من ست طوابق أو ثلاث فيلات ملكية شخصية شرعية . مسجلة حسب القوانين الجاري بها العمل ، وربما أمكنها بسهولة أن تنقل بعض ما تملك إلى من يكبر من أبنائها من مصطفى

لكرد ، فهي حرة ، ولكنها بالتأكيد لن تنقل شيئا الى زوجها بالذات ، فهي تعرف أنه متلاف حتى وإن اغتر الناس بمظهره . ولا سيما وقد أصبح مختلسا مجرماً . المهم ليس للمعترف أملاك ولا شبهها . . ولا علاقة له بأملاك زوجته،ولا تزر وازرة وزر أخرى. . .وكل شاة من رجلها تعلق كما يقول الجزارون .

البند الواضح في هذه الحال يقول . . يقول اختلاس أموال عمومية . . . مبلغ ثمانين مائة . . . مائة وعشرون . . في هذه الحال يقول البند الواضح المعلوم . عشر سنوات سجنا نافذة طبعا . يعني أقل من النسبي ؟ وبالطبع أقل من العادي والأكمل . ولكن هذا مع ذلك كثير يجب ان يعتبر كثيراً . وإلا فيم المحامي وغيره ؟ طبعا طبعا ، ستتدخل ظروف التخفيف . الماضي الإداري ، والوضعية الاجتماعية ، ومهارة المحامي وأتعابه المرتفعة . . . . وإلا فيم يتفاوت المحامون غير الإخلاص والمهارة والمعلمية ؟ خذ مثلاً الخلو من السوابق ، هذا عنصر هام يجب أن يستغل لصالح الموكل ، وكذلك حسن النية ، ويقظة الضمير الحي التي جعلت المعترف يتوجه من ذاته للاعتراف . . . بالإجمال وبدون تفاصيل سر المهنة ، يمكن النزول بالعقوبة إلى أدناها ست سنوات نافذة طبعا .

الآلة الحاسبة تعالج ما بين عشرة وستة ، لتعطي متوسطا حسابيا بعينين مستديرتين متماستين عمودياً . . . وبحياة هادئة تحت ظليلة إيراد جيد سيمتد من خلف لخلف وإلى الأبد .

شكرا شكرا . القضية مربوحة مسبقا ومشجعة . مضمونة وفي الجيب . شكرا شكرا أريج وبسمة تفتح الباب ، بسمة تستقبل ، وأخرى تودع .

* * *

مشهد ٧

مجلس أنس على شكل دائرة . شهراموش في صدر المجلس على سرير واطىء من الخشب الملمع . حوله أصحاب المناصب في مجالس قريبة من مستوى مجلسه . بجواره مباشرة على اليمين مجلس الحكيم روزباه . بالمقابل في نصف الدائرة الأخرى من المجلس جماعة المطربين والفنانين والشعراء والعلماء .

شهراموش (بهدوء وانبساط) : أشكركم على هذا السمر الحلو الذي لا يمل أبداً ، واعلموا أنني جد مسرور بتنوع فنونكم وابداعاتكم ، وأريد منكم أن تسهروا جميعاً على تكوين ناشئة مقتدرة كل في مجال فنه واختصاصه ، وذلك بافتتاح دور لتعليم هذه الفنون لناشئتنا . وإني لأصدر أمري من الآن إلى صاحب الملح لينفق على ذلك ما يستحقه ... حتى تغدو كغاشي مثالا يحتذى ... (يلتفت إلى روزباه كمن يستطلع رأيه) .

روزباه (مؤيداً): هذا عين الحق أيها العظيم ، فكغاشي ،

تستحق أن تكون قدوة في الاهتمام بأجيالنا وحسن تكوينهم . (ايماءة خاصة من همشير لزاهور) .

زاهور : إذا أذن لي عظيم كغاشي فإني أتكلم .

شهراموش : ماذا عندك يا زاهور ؟

زاهور : إن هناك فنونا أخرى نخشى أن تنقرض من كغاشي ، ويجب تشجيعها لتستمر .

شهراموش : وما هي هذه الفنون ؟

زاهور : إن كغاشي كانت مضرب المثل في ترويض الوحوش الضارية أيها العظيم ؟ وخادمك أفنى عمره ولا يزال ، في ترويضها وتربيتها . ولكن بلدنا منذ مدة طويلة ، لم يشهد حفلاً من حفلاتها المشهودة المعهدوة . وقد اشتاق الناس لرؤ يتها ومشاهدة عظيمهم يشرفها بالحضور والتشجيع .

شهراموش : صحيح ما تقول يا زاهور . ولكن تلك العروض لا تأتينا بجديد نافع ، ومرفه ، اذا قيست بهذه المجالس ، التي لا أشك في أنك ستتذوقها في يوم ما ، وتشغف بها .

همشير : إذا سمح لي عظيم كغاشي بالكلام . ففي علمي أن زاهور لم يرد أن يقلل من شأن هذه المجالس ، في تنوعها وفائدتها وطرافتها . بل إنه فيما أعلم ، يحمل كشفا جديدا في فنه .

شهراموش : دعه يتكلم إذن . (ملتفتا إلى زاهور) أفصح يا زاهور .

زاهور : نعم يا عظيم كغاشي . فقد حققت في فني ما أعتقد أنه فوق التصور ، ويستحق أن يعرض ، وهو يبرر ضرورة استمرار هذا الفن .

شهراموش : وما ذاك ؟

زاهور : اعلم يا عظيم كغاشي أنني استطعت بعد جهود متواصلة ، وطرق متنوعة أن أصل بالوحوش إلى افتراس فلذات أكبادها .

شهراموش : ماذا تقول ؟

زاهور : نعم ، أستطيع أن أنظم عرضا يتجاوز افتراس الحيوان لبني جنسه ، الى افتراس فلذة كبده . فاللبوة تفترس أشبالها ، والقطط والفيران والذئاب . . . كلها وصلت بها الى درجة افتراس فلذات أكبادها بسهولة تامة .

شهراموش : عجيب هذا . إنه ضد الطبيعة ذاتها .

شيهوك : (في حركة ولغة مدروسة): إنه فتح ، كشف حقيقي يمكن لكغاشي أن تفخر به ، وهو يدل على نجاعة التدريب ، فلم يرد في أي أثر أو خبر من سلف ، أن حيواناً يفترس فلذة كبده بسهولة أو صعوبة .

شهراموش (ملتفتا نحو روزباه): هذا عجيب حقاً ؟!

روزباه : نعم أيها العظيم ، ولكن هناك ما هو أعجب وأحق ، بالتشجيع والمشاهدة .

شهراموش : وما هو ؟

روزباه : ان يأتلف العدوان اللدودان ، ويعيشا في حب وسلام .

شهراموش : ماذ تقصد ؟

روزباه : اسأل زاهور إن كان جرب أو يستطيع أن يجرب ، وينتهي إلى نهاية جيدة في جعل الحيوانات المتعادية أصلا ، تتحاب وتتعايش : القط بجانب الفأر ، والذئب بجانب الحمل ، والأسد بجانب الثور . . . ؟

زاهور : مستحيل ولا يمكن .

روزباه (مبتسما بهدوء): بل هو ممكن يا عزيزي زاهور . ليس سهلاً ، ولكنه ممكن ويستحق أن يعرض ، وهناك من يستطيع أن يقوم به .

زاهور(متضايقا ويائسا): لست أنا على كل حال .

روزباه : بل أنت أيضا تستطيع ذلك يا بني ، وتدريبك عليه يدخل

في طبيعة هذا العمل ذاته . . . وسترى أنه ممكن . . . وأنه الأولى . .

شهراموش : ومن يقوم بهذا العمل أيها الحكيم ؟

روزباه : رجل جد بسيط . إنه مرقادو .

شهراموش (متعجبا) : مرقادو ؟

روزباه : نعم . مرقادو راعي القطعان ، ومنذ اليوم ، إذا شئت أيها العظيم .

قال الراوي : وتم الانقلاب الهائل وفق الخطة المرسومة ، فقد كلف مرقادو بهذا التدريب ، وتحت أنظار زاهور نفسه الذي كان لا يصدق ، والذي أمكنه أيضا أن يتعلم ذلك . وانقلب صراع الحيوانات إلى هدوء وسلام ، ولعب . وشوهدت عروض ترتع فيها دفعة واحدة حملان ، وأسود ، وذئاب ، وقطط ، وكلاب ، وفئران . وأطفال بشرية . كان تأثير ذلك فوق الوصف في نفس شهراموش الذي بدأت انسانيته الحق تنكشف عن أعماقها . ومس ذلك التأثير زاهور ذاته ، الذي اطمأن إلى أن أحداً لا يطمح في أن ينزع منه منصبا ، وأن لا خوف عليه من أحد ، وأن بإمكانه فقط تطوير فنه نحو الأصلح . فسار في طريقه مع مرقادو ، وكشف عن مبادرات هائلة في هذا الفن ، بما كان له خبرة من طباع الحيوانات . وكان روزباه يراقب ذلك عن كثب ، ويرى أن بالإمكان تنظيم العمل على المدى الطويل ، ليشمل كافة الحيوانات والوحوش بحيث تكتسح بين الحين والآخر مناطق محدودة في الغابة تحد وتطلق بها الحيوانات المدربة على التآلف شيئاً فشيئاً ، فيضمن لها غذاؤها، ويزول عنها خوفها، حتى تنشأ عنها أجيال متآلفة متعايشة .

قال الراوي : أما ما كان من همشير وشيهوك وأمثالها ، فقد ذهب بهم الهلع كل مذهب ، عندما رأوا انقلاب زاهور وحيواناته ، وبدأوا يحتاطون في عملهم الخفي ليسبقوا الأحداث الرهيبة ، التي تصوروا أنها تنتظرهم .

* * *

عزيزي أحمد

. . . .

(. . . عودتي أضحت أقرب مما كنت أظن أيضا . سأكون بينكم بعد أشهر معدودات ، وبصفة نهائية لا رجعة فيها . حلّت مشكلتي واهتديت إلى مشروع ، المشروع نزل من الغيب . أطاحت به الصدفة ، ستعجب كما عجبت . لكن سبب العجب مختلف . عجبي من كوني لم أنتبه إلى مثل هذا من قبل ، أما عجبك فسيكون من عدم التصديق بجديته . هل تفهم شيئا في موضوع الضفادع ؟ طبعا لا . المشروع يتلخص في إقامة مزارع للضفادع ، مزارع برية ومائية . غريب ؟ الضفادع في وطننا وفيرة ومتنوعة لدرجة الإزعاج ، لكنها خاضعة في توالدها وتكاثرها للصدفة . . . وأنواع منها تنقرض ، والبلد زاخر بما لا يصلح ، مفتقر إلى ما يصلح . أذكر ما كنا نرى من أنواع الضفادع في الأنهار والبرك الراكدة والحقول ، أتذكرها تتقافز ، في كل اتجاه ولا تغري بأكثر مما تغري به كرة تنس نطاطة أمام قدميك . أسواقها هنا نافقة مربحة بكل اشكالها وأحجامها . أذكر ما أتاحت لنا الصدف رؤ يته منها في البلد ، ونحن صبيان ، منقطة بالأسود والأبيض ، بالأصفر والبني ، ذوات الأحجام الكبرى والبنية القائمة المتوسطة ، وصغيرات الأحجام المتناهية،العرائس الخضراء التي يروى أنها سر ما تكتسبه العذارى من طلاقة لسان مزغردة ، أسواقها هنا نافقة مربحة جداً ، واستعمالها رائج حسب أنواعها في الأطعمة والعلاج والمتاحف والمختبرات . . . وهناك سموم خاصة تستخلص من بعضها ، يقال إنها تجرب في علاج البرص والسرطان . . . وجلدها وهي التي لا يعتقد أن لها جلوداً تتبقى ، تستعمل على نطاق واسع في عمليات جراحية دقيقة ، للتلحيم والترقيع ، في المناطق ذات الحساسية الخاصة ، كطبلات الأذن والجيوب الأنفية والشرايين الدقيقة في حالات التدرن . أيصح بعد هذا أن تظل الضفادع في بلدنا ترتع بهناء فوضوي لا مبرر له ؟ أليس استغلالها على أوسع نطاق عملية تطهيرية في نفس الوقت ؟ لقدأخذت فكرة عامة عن الموضوع من

الموسوعات العلمية ، وأنا الآن بصدد تمرين عملي في إحدى المزارع سيستغرق بضعة شهور . وحين أعود إلى البلد . أعتقد أن مدة شهر واحد كافية لإعداد المزرعة وجمع الأنواع ، بسبب الوفرة في الضفادع واليد العاملة القابلة لهذا النوع من العمل . وهذا سر السوق الذي أتميز به ولا يمكن أن أبوح به لأحد . . . تصور هنا أن كل شيء قابل للبيع والشراء . حتى الأفكار والأسرار بل خاصة الأفكار والأسرار . . . ولقد عثرت بالصدفة على معلومات حول نوع من الضفادع البورية النادرة في العالم ، متوافرة في بلدنا . وهي نادرة بالنظر إلى سمومها الملطفة ـ وصف علمي دقيق لا دخل للذاتية والبلاغة فيه ـ ومن حيث قدرتها على القفز العمودي والأفقي . ولا حاجة للدخول بك في تفاصيل القفز الضفدعي ، وقيمته ووظائفه ، يكفي أن تعلم أن ثم ممرنين مختصين بذلك . أي أن هناك مهنة قائمة بذاتها تتلخص في تمرين الضفادع على القفز .

شيء آخر اكتشفته ، وهو دعوى عرضها أحد المرنين في إحدى محاضراته تتلخص ، في أن شكل الضفدعة هو أكثر الأشكال مرونة وخصوبة تطورية ، بمعنى آخر أنه أكثر الأشكال قابلية ليكون نقطة انطلاق مالا حصر له من الأنواع الحية . أليس عجيبا فيما لو صحت برهنة هذا البيولوجي ونبوءته ، أن تؤول الإنسانية إلى ضفادع في سلم التطور والارتقاء ؟!

. . . هل أزيدك تفصيلاً في الموضوع ؟ لا . بل لقد أفصحت دون أن أشعر . . . المهم أن أعود وحينئذ سترون . . . والى اللقاء .

أخوك محمد

في ١٠/٣/١٩٧٨

* * *

أيركبني الهم ؟ شغلت بأمر مصطفى لكرد . هذه الآلة الحاسبة التي لا تخطىء ، أو التي لم تخطىء حتى الآن، يخيل إلي أنني أعرفه من قديم ، وأنني عاصرت تطور أفكاره ، منذ بذورها الأولى في ذهنه ، دون أن أنتبه أو ينتبه . ما العمل ؟ كيف أنقذه ، كيف أنبهه إلى المصير وأخيفه منه ؟ كيف أنزع عنه قابليته للمصير المحسوب ؟ لا ، لم أعرف مصطفى لكرد بالذات . لكنني عرفت صنود مسعودي . أرى مسعودي في مصطفى لكرد بوضوح . سيحل به نفس المصير فكيف لم أفهم ؟ كيف لم أترجم أحاديث مسعودي وتلميحاته ، الى مشروع محسوب ، مبيت ، يحسب لنفسه وينهي نفسه ؟ قد ينجح مثل ما نجح لكرد . . ولكن أي نجاح ؟ أصغر من لكرد بكثير ، وقد يضيف حساباً إلى حساب فيقبر إلى الأبد . أراه أمامي بكمشة الفاتورات تلك ، ينبهني الى قيمة التوقيع ، يحدثني عن أبواب الربح ، وعن التجارة واكتشافاته في قسم الحسابات . من يدري ؟ قد يكون أمهر من مصطفى لكرد ولا يدخل السجن قط ،لكني أحبه أحب فيه إخلاصه ووفاءه لي . ويجر معه حميد المنصاع المنساق الواثق . لا أخسرهما معا ، رغم أني لا أريد لحلمي القديم أن يصدق ، ولكنه صدق بالفعل : أراه واقفا مجسدا في مصطفى لكرد . لأكتب رسالة . أخذت القلم والورقة يجب أن أنهي الرسالة بسرعة قبل إطفاء الضوء ، وأبعثها صباحاً إلى الصديق مسعودي . ماذا أقول وكيف أنبهه ؟ كيف أرمز وألمح ؟ ليته يزورني ، يجب أن أكتب أي شيء . عزيزي مسعودي . . . لا أريد أن أفقدك ولا أن تفقد نفسك . عزيزي مسعودي انتبه لنفسك ولا تغتر . أعرف مصيرك . كف عن الحساب . تعلم الشعر إن استطعت أو الموسيقى ، واترك عنك الحساب . قد تموت في السجن ، ولا تدرك أن تتمتع بما خططت له . . وهبك انهيت العقوبة وخرجت فهل تدري ما سيتبقى منك بعدها ؟ مصطفى لكرد لم يخطىء ولكنك لن تكون إياه بالضبط . أحس بالفعل منذ الآن بأنك مخطىء ، وأنك لن تنجح . أذكر كلامك معي وأندم لأنني لم أفهمك إذ ذاك ، لأوقفك وأنبهك . ولكن آن لي أن أفهم اذ ذاك وأنا من كنت ؟ ليتني أخبرتك بحلمي عنك ، وعن

حميد عندما تبديتها لي مصفدين تغادران الإدارة تحت الحراسة إلى المحنة والعذاب . اسمع كلامي وافهم ونفذ وأطع . لا أستطيع أن أشرح لك أكثر ، ولكنك ثاقب النظر وإلا ما كنت تتقن لعبة الحساب . أدرك نفسك . أدركني فيك قبل فوات الأوان . ولن تجد حميا ـ مثلما وجدت في السدراوي ـ يشركك في فرحه وهمه . . . لن تسمع إلا أنك حسبت لنفسك وأضعت نفسك . عزيزي . . . عزيزي . أي كلام هذا ؟ مزقت الورقة ، ثم أحرقتها ولم أكتب شيئا .

لم أنسها . ولا يمكن أن أنساها . لكني أعرف أن ذكراها غابت عني مدة . طول غيابها السبب . . وانشغالي بمشاريع السجن مع السدراوي سبب آخر . من يدري ؟ ربما كنت مرتاحا من غيابها . حضورها كان يملؤني أسئلة . لم أكن أعرف مكانها في قلبي أو حياتي بل كنت أقاوم . ما جدوى أن أربطها بي هذا الربط الغامض اليائس ؟ لن أقول ذلك عن عائشة ، فهذه زوجة وأم أولاد ، وحيدة مصير . . . لن أقوله عن فطومة فذلك عذاب قديم . لكن ، أقوله عنها وحدها ، عن رجاء . وها هي ذي تزورني في السجن بعد غياب أحد عشر شهراً ، رأيتها من وراء القضبان ، يخيل الي أنها اكتنزت ، واكتسب وجهها بعض استدراة وإشراق متردد فرحت بها ، لكن لم أستطع أن أفرد لها حديثا خاصا أمام ثلة الأقارب الزوار ، عائشة وعبد الله وحميد . . . . لم أنتبه لهذا الأخير ، فزحمة الزوار أمام القضبان كانت تجعله واقفاً وراء رجاء ، حتى إذا حانت فرصة أصبح معها جنباً إلى جنب ، فوجئت به . أول شيء بادرته به كان سؤالاً عن مسعودي . قال إنه لا يدري، كيف ؟ سجن ؟ إنفلتت مني الأسئلة بارتياع فيما يبدو لدرجة تضاحك لها حميد ، وأخبرني انه انتقل منذ مدة إلى مصلحة جهوية فلم يعد على اتصال بمسعودي .

تساءلت :

ـ نقلوك ؟

ـ لا . لا قالها متضاحكا مرنا ، وأردف :

ـ نقلني الحب .

وأشار إلى رجاء ممسكا بيدها . انتبهت في الحين إلى خاتمي الزواج في اصبعها وإلى اكتناز بطن رجاء . . . هنأتهما من كل قلبي رغم شعور غامض يكدر باطني .

قال حميد مرحا :

ـ النساء قوامات كما ترى . . . انتقلت رجاء فنقلتني معها .

قلت بلا روية إنها أنقذته . أمّن ولم يفهم قصدي . مال كأنه يضمها ، رأيت وجهها مشرقا بابتسامة أعرفها . وسألت عن أخبار مسعودي . نفى أن يكون له علم ، ولكنه طمأنني إلى أنه قد يكون غارقا في أعماله التجارية.

ـ . . . وقسم الحسابات ؟

ـ طبعاً . . . ولن ينقله حب .

سألتها عن وحيدها سعيد . أطرت ذاكرتي ، طمأنتني مسرورة بالسؤال . وأخبرتني أنه قد دخل المدرسة .

عزيزي أحمد

(. . . ستظل الضفادع تملأ البلد بعيونها وقفزاتها المرعبة المرتعبة . . . تركت المشروع في الوقت الحاضر على الأقل . . . ولترتع الضفادع مؤقتاً على الأقل أيضا . هناك أكثر من طريقة لتطهير البلد منها واستغلالها . . . وهناك غيرها أكثر من مشروع مغر ومربح . اكتشفت اني لا أملك قابلية التعامل الطويل مع الضفادع . تأكدت من ذلك في المرحلة الأخيرة من تمريني بإحدى المزارع النموذجية . تذكر أني كنت أكثر أترابي خوفا منها رغم عدوانيتي إزاءها . ويبدو أن أثر ذلك لم يزل تماما ؟ ولكني ادرك كذلك أن خوفي منها ليس هو السبب في تركي للمشروع . بل كراهيتها . تصور أنني لم أستطع النوم ساعة واحدة مستمرة ، ونقيقها يملأ السمع رغم الزجاج الثخين الحاجز . وعيونها عيونها تملأ الرؤية في اليقظة والنوم ، واسعة مستديرة بلا أجفان ، وأحياناً بأجنحة الخفافيش تلطم

وجهـك في الأحـلام . تنفسهـا مقيت ، مقيت ، مقيت . مقعيـة عـلى مؤخراتها كتـأهب الكلاب الضـارية ، وأسفلهـا الأملس من الحلقوم إلى أسفل البطن ، يهتز برتابة التنفس كأنها تلهث باستمـرار . أكرههـا جد الكراهية ، وأمقتها جد المقت ، لخبثها ونذالتهـا . تمسكها بيـدك متلطفا لتعالج منها شيئا ، فتتبول بنتانة لا تحتمل على كفك أو تتغوط ، لا يهمني فعل الطبيعة هنا من جانبها ، ولا الاحتيـال والتوسـل بالقفـاز وغيره من جانبي للإمساك بها ، يهمني المبدأ . مبدأ الخبث . . . انعـدام الإحساس بالكرامة . يمكن أن نحترم حنشاً ، ففي أقصى حالات إحراجه يهاجم أو يفر أو يتلوى مقاوما ، أما هذه العيون الكريهة ، فـلا تقاوم ولكنهـا تفرز عليك قذاراتها . . . ربما كنا حكماء جـداً في صغرنـا ، في موقفنـا العابث والعدواني إزاءها . . لم أعد أفكر في العـودة الآن على الأقـل ، ولن أفكر فيها قبل التأكد مما سأعود به . . .)

اخوك محمد

في ٢/ ٥/ ١٩٧٨

* * *

عدت إلى خاطري الغريب أتفحصـه . لن يكون مبعثـه إلا رؤ ية رجاء صحبة حميد بعد الغيبة الطويلة . أليست نهاية سعيدة ؟ أخيـراً تجد مدفنا حقيقيا لجراح حياتها القديمة . إذا لم أخطىء فشعوري ارتياح ، مهما يكن غير كامـل الـوضـوح ، مشهـد اكتنـازهـا النـاشيء يبعث فيّ دفئا وقشعريرة ، أحس كأني أضغط على بطنها براحة الكف وثقل الصدر. . . أكاد أشعر بحركة الجنين الصغير تحت الضغط الرقيق . المشاعر ليست غـريبة عني بما يرافقها من متعة وارتعاب متنائي يتنامى كلما طال الموقف . يغرق وجهي في ابتسامتها ، وأحس بانضغاط شفتيها النديتين تحت لمس شفتي . يـلازمني الشعور بـالمتعة والارتعـاب ، تماس الشفتـين والصـدر والبـطن والراحتين على الكتفين ، في وقفة لا يزداد فيها الضغط والتماس وانما يدوم الشعور بالتسامي ، يدوم ويدوم محافظاً على توازنه ومسافته لا يزيد ولا ينقص . . لا يزداد الضغط ليولد عبية الشفاه في

الشفاه ، ولا تحل الدوخة أو ترتفع براكين الدوي وقصفات الرعد ، وأصوات النذير وعيون العذاب التي تستطيل خارج محاجرها . تقرع بلزوجتها الظهر والوجه والقلب ، تلتقط الأنفاس والأحاسيس ، تنقش الصورة والصوت ليوم عسير المشهد ينبعث اليوم بعميق طعمه القديم نابضاً ، إلا من الحرقة والعذاب ، ومن صوت الحاج مهدي ومسوطته التي تركب في الجدران والبلاط والزوايا ، آذاناً وعيوناً غريبة غامضة ، لا شك أن الموقف ينبعث بمثل ذلك في شعور فطومة . ولا بد انها تهنأ اليوم ، وتجد مدفئاً أبديا لجراحها ، كما تهنأ صنوها رجاء مع حميد . هنائي لا بد أن يكون انعكاسا لهنائها . من يدري ؟ لعلها أنجبت سعيدا كما أنجبته رجاء ، لعله يرقى درجات الدراسة ، يلاعب القطط ويناور الأتراب ، والتقي به يوما فأحنو عليه دون أن يعرف أو أعرف . . . ممكن ، عدت لشعوري الغريب الذي أثارته رجاء . مزيج هام من ذكرى فطومة وحب رجاء . حب ؟ كان ذلك مجرد سؤال منذ علاقتي بها وأنا خارج السجن . وظل ذلك سؤالاً من طبيعة إنكارية في الغالب من جانبي على الأقل . كنت أرى في عينيها مشروع حب طموحاً إلى آفاق تعوض مافات ، وتنبعث بها من جديد . الآن يوقد حميد الشعلة ولن تنطفىء . يجب ألا تنطفىء ، أذكر أني قلت لها ونحن على مقعدينا في المقهى المقابل للإدارة : الحب استعباد ، إنه في علاقة الرجل بالمرأة كرأس المال في الاقتصاد . . . وجودهما يقتضي استغلال طرف للآخر . نظرت إلي باندهاش . كنت حريا بأن أدهش بدوري من نفسي أيضا . الفكرة طارئة غريبة الا أن تكون مختمرة في الأعماق من زمان . وجدت متعة في أن أفصل وأفيض في فكرتي ، لعلي كنت أناور لكي توقف مشروعها ، إن كان لها مشروع حب يتعلق بي . أو أنني اتخذت موقفا ساذجا. كانت تتعذب وأنا أفيض في تقليب فكرتي من جميع الجهات . . . ولم تنبس . لكنها تركتني أهذي وقامت منصرفة بلا استئذان ولا وداع . الآن تجد مدفناً لجراحها . والآن ينبعث الموقف بكافة أحساسيسه : مشهد اكتنازها الناشىء ، والتغير الذي

أعطى لوجهها بعض استدارته ، ملمس الدفء على البطن والشفتين يحيي وقفة اللقاء الأزلي بيني وبين فطومة ، بعملية حلول غريبة ؟ لا يتخلف عن مشاعر المشهد إلا حدة الحرقة والعذاب . . . لو يتركني الموقف . . . لو تركتني تلك المشاعر والأحاسيس . . . أعمل جاهدا لطردها ، لكنها تلازم وتلح ، وأكاد أوقن بأنني أجد في معاناتي لها متعة لا تنكر .

* * *

عزيزي احمد :

(. . وأخيراً ينفتح شراعي الآن على ريح تدفعني صوب شطآن أمريكا اللاتينية ، لصيد اللآلىء صحبة أفاق جاب القارات الخمس ، مشروعي الآن نحو الشواطىء البعيدة يبدو ساحراً خلاباً متسلطاً لا أستطيع منه فكاكاً ، يحمل معنى الكرامة والمغامرة . يبدو أن كل شيء ثمين يرقد في الأعماق ، ويتطلب حفراً أو غوصاً ، وأن سطح البسيطة لا يحتمل سوى القذارات والنذالات ، لست متشائماً ولست في هجرتي الجديدة ناسياً للبلد . البلد يا أخي في القلب والسمع والبصر . والعودة الآن بعيدة ولكنها حتمية عندما أستحقها ويستحقها البلد نفسه . وإذ ذاك يرسو عليكم مركبي ، محملاً بما هو ثمين وكريم . . ويكون مشروعي كبيراً كريماً ربما يتجسد في مزارع للآلىء والأصداف النفيسة . . . لست مجرد متحمس متخيل . . لا . . فصيد اللآلىء مؤسسة قائمة في الشواطىء التي أقصدها ، والغوص جار فعلاً وما أنا إلا ملتحق . . ممكن ، وعندما أعود ، وبالصورة التي لن أرضى العودة إلا بها ، فسترى صدق كلامي . .).

أخوك محمد

١٦ / ١ / ١٩٧٩

* * *

قال الراوي : كان طموح الحكيم روزباه يرمي إلى إنقاذ كغاشي من كغاشي نفسها . ولم يكن يؤمن بجدوى الجيوش والمناعة الحربية . ولكن

كان يهمه أن ينتصر على النفوس البشرية ، ويهاجمها من مواطنها ، ليطهرها مما يغمرها من الأطماع والمخاوف والتنافس على السلطة ومتاع الدنيا . لم يكن ضد ملذات الحياة ، ولكن ضد استعباد اللذات للإنسان . وكانت خطته تقضي بأن يبدأ من النشء ، فيخلق نمطا من العظماء لنمط من الأجيال يتحلى فيه الجميع بالانتصار على نفسه ، لا بالتطبع والتظاهر ، ولكن بالحق والصدق والباطن .

قال الراوي : ورزق شهراموش من بيروز غلاما سنيا أطلقوا عليه اسم « كابيكدوهار » ومعناها الحرفي بالعربي : بدر الأزمان السابقة واللاحقة ، أو باختصار وبتقريب « سيد الخلود » ، وكان ينادى على سبيل التصرف والتلطف « كابدهير » بما يؤول معه معناه إلى « بدر زمانه » وكان مولده بشيراً بسير خطة الحكيم روزباه في طريقها المرسوم ، فكان من الممكن أن تعاكسه الظروف فتلد بيروز بنتا . ومع رأيه الخاص في طبيعة البنات والنساء ،والتي لم يكن يرى فيها ما يستلزم تفضيلاً اجتماعياً لأحد الجنسين على الآخر ، إلا ما رسمته الطبيعة الجسمية للبشر من فروق لوظائف معينة ، تخص كلا من الجنسين على حدة ، فإن مولد بنت من بيروز لو حدث بدل مولد الغلام ، لأثار أمام خطته صعوبات مؤقتة على الأقل . . . قال . . وكان من فضل تأثير مشورة روزباه على شهراموش ، بحكم مكانته التي احتلها عنده أن أصبحت النساء كالرجال في كثير من أمور الحياة . أصبح من حقهن أن يظهرن في الأسواق والشوارع والمناسبات ، ويشتركن في كثير من الأعمال . . . واذا كان بيع الجواري والخدم منهن ، قد استمر على حاله في أسواق النخاسة فقد كن في ذلك على قدم المساواة مع الرجال الرقيق . . . ولم يكن روزباه غافلاً عن هذا الوضع المنافي للإنسانية ، ولكنه كان ينتظر له مرحلة أخرى .

وكل أمر الأمير الصغير « بدر الزمان » إلى روزباه ، لتربيته تحت رعاية بيروز في سنتيه الأوليين ، وكان التفاهم تاما بينهما . فقد عمل روزباه على ألا يتعرض بدر زمانه للأصوات المرتفعة المزعجة في شهوره

الأولى أيا كان مصدرها ، لأن ذلك من مولدات الارتعاش فالخوف ، والا ينال فوق كفـايته من الغـذاء ، ولا يطعم إلا بعـد طلب ذلك ، حتى لا تتفتح شهواته وأطماعه كثيراً . وألاَّ يؤخذ بين الأحضـان كثيرا ، حتى لا يتواكل . . .

ووضع له ابتداء من سنته الأولى برنامجاً متنوعا يشمل تناول أشغال متنوعة في أحجامها وألوانها ، وما يصدر عنها من أصوات موسيقية بسيطة مؤنسة . . . ولم يجعله في هذا النمط من التنشئة معزولاً بل ضم إليه جماعة أطفال ذكوراً واناثاً ، من مختلف طبقـات كغاشي ، ممن هم في مثـل سنه يتلقون معه نفس التنشئـة . . . وبدأ في تعليمهم الألعـاب الجماعيـة من السنة الثانية ، واهتم في تنشئته للمجموعة بـالخروج إلى الـطبيعة وتـربية الحيوانات ومعـاشرتهـا، ورعايـة النبات والتجـول في الشوارع والأسـواق والاتصـال بالنـاس ، والتمرين عـلى الموسيقى والغنـاء ، وحفظ الأشعار والمطالعة ، وألغى من تكوينهم تاريخ الحروب ، والصراعات والتقلبـات السياسية ، والتنافس الاقتصادي ، باعتبار ذلك حوادث شاذة في تاريـخ البشرية ، وانحرافات يمكن دراستها في مرحلة البلوغ بعين فاحصة ناقدة ومفلسفة تنظر إليها من مستوى أعلى .

قال الراوي : كان هذا العمل الهائل الذي لا حصر له ولا حدود ، يسـير بموازاة عمـل مرقـادو وزاهور ، في تنشئـة الـوحـوش والحيـوانـات الضارية ، على النمط الجديد . وكان الأطفال يعاشرون تلك الحيوانـات ولا يشعرون نحوها بأي خوف ، مهما كانت ثعابين أو نموراً أو قططاً . . . وكان شهراموش مذهولاً مما يرى من نتائج ، فالاطفال ومنهم بدر زمانه لم يظهر عليهم طيلة ست سنوات أي مرض جسمي أو نفسي ، ولم يعـرف عن أحد منهم أنه رأى حتى مجرد أحلام مزعجة ، أو أفاق مذعوراً ، وقد ينام بعضهم وبجانبه تحت الغطاء أو بجـانب السريـر وحوشـاً كاسـرة أو زواحف مرعبة في العادة . . . ولم يظهر عليهم عدوان أو غيرة من تصارع حقيقي عـلى أي شيء مما يتصـارع عليه الأطفـال ويتخاصمـون فيـه من

الأشياء والمتعات وحتى ذلك الصراع الذي تقتضيه ممارسة بعض الألعاب والذي يقف عند حدود اللعبة ولا يتعداها ، لم يعرفوه ، فقد كان التعاون والتحابب سائداً بين المجموعة حتى في اللعب .

قال الراوي : وقد اطمأن الحكيم روزباه الى برنامجه ، فكون معلمين حسب رؤ يته وتصوره ذاك ، وبدأوا يباشرون عمل التنشئة على هديه ، كما قام مرقادو وزاهور بمثل ذلك في ميدانها . وكان الحكيم روزباه لا يزال مشغولا بأمر عظيم ما زال يثقله بهم رازح . سيأتي بيانه في حينه .

قال الراوي : واستطاع روزباه أن يظفر بإذن من شهراموش ينظم بمقتضاه مواسم سنوية ، يتبارى فيها الآباء والأمهات بتقديم أبناء نشئوا على السلامة من المفاسد والانحرافات ، أبرياء من الخوف والطمع . . . فكان الحكيم وأصحابه المعلمين ، ينظمون اختبارات لأولئك الأطفال ، فإذا تأكدوا منهم ، منح الآباء جوائز هامة متنوعة تقديراً لجهودهم وتشجيعا لهم . كما صدر قانون بعدم المعاقبة البدنية للأطفال . ومنع تخويفهم . . . واعتبر ذلك جريمة في حق المواطنة ، يعاقب عليها بسحب الأطفال من آبائهم ووضعهم في رعاية خاصة .



قال الراوي : أشرنا الى أن الحكيم روزباه ، كان يعاني من هم رازح ، رغم ما أحرزته خطته من نجاح في ميادين شتى ، ولم نشرح ذلك ، وقد أتى أوانه . فاعلم أن موضوع ذلك الهم المقيم ، هو حال مناجم الملح وعمالها . حقاً ان الأحوال قد تحسنت كثيراً ، وتغيرت بعض الأوضاع هناك عما كانت عليه . . . فلقد تقرر أن يكون عمال المناجم من المجرمين الحقيقيين لا ممن تلفق لهم التهم تلفيقا ليساقوا إليها قسرا وظلما. كما تقرر تخصيص أجر يومي لغير هؤلاء ، وتقرر تبعاً لذلك أن يكون العمل بمناجم الملح تابعاً لإرادة الناس لا تكليفاً أو حبساً ، وبذلك ازداد الاهتمام بالفلاحة والزراعة التي أوشكت أن تبور . . .

قال الراوي : رغم كل ذلك ، كان روزباه مهموما بما هو أعظم . فمناجم الملح مصدر ثروة كغاشي . وكل بلاد المعمور تستورد منها تلك البضاعة . وكان عالما بأن أوامر شهراموش وإصلاحاته لا تنفذ إلا جزئيا . فلم يكن مطمئنا إلى حسن تعرف صاحب العصا أو صاحب الملح . . . وكان همه أن يجد حلا جذريا للمشكل . وكانت التقارير الرسمية الواردة على شهراموش غير موضوعية ، وتبالغ لغرض مقصود في وصف المخاطر التي تحدق بكغاش نتيجة الانخفاض المستمر لإنتاج الملح ، بسبب تناقص عمال المناجم ، وتخاذل الباقي منهم بسبب التنظيمات الجديدة التي أفسدتهم (حسب تلك التقارير). وبالإضافة إلى ذلك كانت التقارير تهول عن قصد أيضاً ، في تقرير الخطر الخارجي الذي تتعرض له كغاشي ، من جراء هذا الانخفاض في الإنتاج . فالدول المعادية لها وحتى الصديقة ، والتي تستورد منها تلك المادة ، أصبحت تتهيأ لغزوها والاستيلاء على المناجم ، ما دامت لا تجد كفايتها من الملح في السوق ، وهذا يهدد بتجديد حروب الملح السالفة على صورة أشد وأسوأ . . .

قال الراوي : كان الحكيم روزباه على علم بتضايق أصحاب المناصب والمصالح ، وببعض ما يدبرون . ولكنه كان على علم ويقين ، من أنهم يجدون أساسا واقعيا يبنون عليه تحليلاتهم المغرضة من نقص في إنتاج الملح ، ومن أخطار خارجية ، رغم مبالغتهم ، فهناك أساس موضوعي لكل ذلك لا ينفع معه إلا الحل الجذري لو وجد مثل ذلك الحل . ما الحل الذي يمكن أن يؤمن للمعمور كل حاجياته من الملح ، ويؤمن في نفس الوقت سلامة كغاشي ، وحياة أبنائها جميعا في عدالة وكرامة ؟ تلك هي المشكلة .

يموت الموت، وييأس اليأس ويزدهر الأمل. لا بد أن يزدهر . ازدهر فعلاً . هل أرمي ملابسي وأجري عاريا أطرق الزنازن ، أعانق الحراس والجدران والبنادق الرشاشة وألغط صائحا وجدتها . . . وجدتها . . .

وجدتها ؟ لو ملكت ذلك لفعلته . نظرت إلى ساعتي في الظلام على شعاع عقاربها . الخامسة وعشر صباحا . نزعت عني الغطاء ، رغبت في أن أدخن وأتحدث. تسمعت إلى خطوات الحارس في حركته الدائبة الرتيبة في الممر ، لم ألتقط شيئا . علمت أنه في موقفه قرب زنزانتي ، قد أخذته إغفاءة . لم أرد إزعاجه ، تحملت أفكاري لمدة ربع ساعة ، قبل أن أسمع خطواته تتحرك . . . قمت للباب طرقته طرقا خفيفا من الداخل . فتحت الكوة الصغيرة وتسلل منها شعاع ضوء الممر . سألني ما بي ، قلت له : صباح الخير . هات الوقيد وتعال ندخن. أغلق الطاقة فعم الظلام من جديد ، قبل أن يفتح الباب ويعم الضوء . . سألني من جديد ما بي ؟ قلت لا شيء . طار عني النوم ، وأريد أن أدخن وأتحدث . مددت له علبة السجائر. أخذ منها . وسحب علبة الوقيد من جيبه ، وأشعل لي ثم له . كان ما يزال مستطلعا يريد أن يعرف ما بي حقيقة . . . ينتظر أن أكون مريضا أو أشكو من شيء ما . كان قد أيقظني من هذياني المزعج عدة مرات ، طيلة ليالي هذا الأسبوع . وعندما رفضت عرضه بأن أذهب إلى الطبيب أخبرني بأنه مضطر إلى ذكر حالتي في تقريره خوفا من المسؤولية . . . ولا شك أنه فعل . بدأنا ندخن ، فتحت الترموس وصببت شيئا من القهوة في كأسها المعدني . لم يخف علي أنني أبدو بخير ، وأنني نمت الليلة بعمق ، لأنه كان يراقبني من طاقة الباب كل ساعة تقريبا ، حسب الأوامر الصادرة إليه ، وأن زيارة الطبيب التي كانت مقررة لي اليوم ستلغى ، بعد أن يبلغ تقريره الجديد ، الا اذا كنت راغبا فيها . لم أكن أعلم أن زيارة الطبيب قد قررت بشأني ، أشعلت سيجارة ثانية ، وصببت مزيداً من القهوة ، أخبرته أنني فعلا بخير ، ولا رغبة لي في الطبيب ، بل رغبتي الآن في إنشاء ورش جديد للعب الأطفال ، هذا ما كان يسعدني أو أعتقد أنه كان يعذبني دون أن أشعر به ، هذا سر ما تجدد من كوابيسي ، وسر ما قد يذهب بها إلى الأبد ، بدا عليه تعجب خفيف ، سرعان ما زال عنه وهو يشاركني في أن من العجيب حقا ، أن

يخلو مصنع السجن من ورش للعب الأطفال مع أنها هامة ومدرة للربح . وأضاف الى ذلك حكمة تذكرها من أحد أصدقائه التُّجار تتلخص في أن الأطفال هم أحسن الزبائن . لم ينس أن يسألني عن أعمالي المشتركة مع السدراوي . طمأنته إلى أنها عملياً قد انتهت . . . ثم نظر إلى ساعته . السادسة ونصف صباحا . لم يبق على نهاية نوبته إلا نصف ساعة ويخلفه غيره . قام مودعا . أغلق الباب . انطفأ الضوء . ساد الظلام الا من اشتعال لفافة سيجارتي وعلى ضوئها ، تابعت رحلة أفكاري السعيدة . .

* * *

السدراوي ما زال يبحث عن جوانب يمكن تصحيحها في افتراضه القديم . لم أكن بالطبع أستطيع أن أشاركه في شيء جد متخصص في نظري ، انتشلته من بين براهينه لأقول له : صباح الخير ، إني وجدتها . ما هي ؟ القضية التي كانت سر محنتي . وذكرت له حبي للأطفال ، حلمي بهم ، حلمي لهم . ذكرته بملاحظاتي الأولى على تصاميمه ، وكيف أنها كانت تتعلق بالأطفال وكانت صائبة بشهادته . إنني مهندس ميكانيكي ، وهذه مهارة يمكن استغلالها مباشرة في وضع مشاريع لعب للأطفال على مرحلتين : أولها تصور اللعب الممكنة ورسم تصاميمها ، مواد تكوينها وثانيتها صنع نماذج في فترة السجن ذاتها ، اذا أمكن تجهيز ورش خاص لذلك . . . بالفعل كانت فكرتي أننا عندما نصل إلى مرحلة التطبيق ، نطلب من إدارة السجن تكوين ورش خاص بصنع لعب الأطفال . وبذلك نستفيد من فترة الحبس في قطع كل المراحل التجريبية للمشروع . . . كان السدراوي ينظر إلي مشدوها طيلة حديثي ، كأنه يتهجى في وجهي حروفا مكتوبة . . . انتهيت .

تساءل :

ـ انتهيت ؟ قلت : نعم .

ـ ماذا تنتظر ؟ لم أفهم قصده .

ـ أكد سؤاله :

ـ ماذا تنتظر لنبدأ ؟ ذكرته بأنه مشغول في تصحيح نظرية الأعمدة المائلة ، والانفراج ومضلع الارتكاز . . . طوى أوراقه وقال مرحا :

ـ اسمع النظرية يمكن أن تنتظر سنة أو سنتين ، كما انتظرت سبع سنوات منذ دراستي إلى اليوم . . . طرت فرحا . لم أكن أنتظر أن يشاركني هم مشروعي وهو في هم نظريته . تأكدت الآن من صدق ما كان يكرر لي طيلة سنتين ونصف تقريبا ، من أن مبدأه في الحياة عملي مؤكداً لي على سبيل المزاح ، أنه ربما بذلك يعوض من جانبه على ركام ما عندنا من إنتاج نظري .

أوراق وأقلام بجميع الألوان والأحجام . أقلام وأوراق . من جديد تتكرر طلباتنا إلى العالم الخارجي : أوراق . . . أقلام . . . من جديد نعاني شعورنا القديم بأن النهار أقصر جداً من الليل ، وأن علينا أن نسرع في وضع التصاميم قبل أن يجهز علينا موت أو إفراج . صنفنا اللعب حسب درجات تعقيدها وبساطتها الميكانيكية . وحسب المواد الأولية الغالبة في صنعها ، وموضوعاتها ، ووظائفها ، وسن أطفالها والمواسم السنوية ، والمناطق الجغرافية المناسبة لها . . . نحتاج فقط إلى أوراق وأقلام وإلى مزيد من الوقت . حتى زيارات الأهل مرة أو مرتين في الأسبوع أصبحت تضايقنا ، لا بما تستغرق من وقت فحسب . ولكن لأنها تدخل خللا في استمرارية الفكر والعمل . وكالعادة كنا نضحي بأيام الراحة الأسبوعية ، والسهرات المشتركة الترفيهية دون أدنى شعور بالأسف . تسعة شهور كانت كافية لإعداد التصاميم ومراجعتها ، بل ولوضع جرد بأسبقيات أصناف اللعب بعضها على بعض في التنفيذ ، كتبنا بالمشروع إلى إدارة السجن طالبين تجهيز ورش خاص بلعب الأطفال ، وظللنا على الجمر ننتظر . جاء الجواب بالرفض . مشروع الورش معقول ، لكنه باهظ التكاليف يتطلب خبرة عمال غير متوافرة . كنا ننتظر

هذا الرفض ، لنصل إلى اقتراح آخر يقضي بتنفيذ مشروع الورش على مراحل ، تبدأ الأولى بتخصيص جزء من نشاط كل ورش من مصنع السجن حسب تخصيصه في النجارة، أو النسيج او الخياطة . . . لصنع بعض أجزاء اللعب ، والنماذج الممكنة منها . على أن يتم تجميع كل ذلك في ورش واحد مختص . كانت خطة الاقتراح الثاني كخطة الأول من وحي السدراوي ، وظللنا ننتظر الرد . كان من تقدير السدراوي أن هدفنا الحقيقي يجب ألا يتضمنه الاقتراح الأول الذي غالبا ما يرفض لسبب أو غير سبب . وكنا بالفعل نفضل أن يكون ورشنا مجزّأً وموزعا على كافة أرجاء المصنع ، ليمكن نشر الاهتمام بنشاطه . لكننا حسب رأي السدراوي لو اقترحنا ذلك منذ البداية لرفض . وظللنا ننتظر الرد . كان انتظارنا هذه المرة أكثر . ثم جاءت الموافقة . وصدرت التعليمات إلى رئيس المصنع بذلك . اخترنا المجموعة الأولى من اللعب الأكثر بساطة . . . طبعنا نسخا عديدة من تصاميمها ، ووزعناها على الأوراش حسب اختصاصها . الآن ، بدأت العجلة تدور .

لا ادري لماذا قد يجد الناس في مصطفى لكرد مجرد رجل عادي ؟ صحيح أنهم لا يعلمون بقضيته في تفاصيلها . لكن سلوكه اليومي حيثما كان وقد يكون ، وفي السجن على الخصوص ، والنظرة التي يقدم بها الأشياء ، من شأنها أن تسترعي الانتباه . أعرف لماذا لا يهتم به صديقي السدراوي ، ولكنه بالنسبة لي كان عالماً خصباً طريفاً وقائماً بذاته . لم يكن لقائي بمصطفى لكرد يتم إلا نادراً ، وفي فترات متقطعة ، لكني كنت أسأله وأسأل عنه . إنه يعمل المستحيل ليحافظ على قوته ونشاطه الجسماني حتى نهاية عقوبته . يخطط لحياته المقبلة ليجعلها متسعاً ومسرات تنسي كل حرمان السجن وعذابه . تمارينه الرياضية مقدسة ، رغم أنه يعترف بأنه لم يكن يزاولها إطلاقاً قبل السجن . انقطع عن التدخين بمجرد دخوله السجن ، رغم أنه كان مدمناً عليه قبله يشعل السيجارة من عقب أختها . وبدأ يشيع نظرياته في المحافظة على الصحة بين السجناء بالنظافة والرياضة

والتغذية . وقد كون عدة مجموعات رياضية في السجن ، ويبدو أن سلطته نافذة في أهله خارج السجن ، فهم يزودونه بالمؤونة ثلاث مرات في الأسبوع وبوجبات جيدة ومتنوعة . لقد أمضى سنوات قبلنا ومعنا في السجن . ولا تجد أحدا يحدثك عنه بأنه كريم ، فهو لا يشرك معه في خيراته إلا من يتوصلون مثله بمثل ما عنده ، وذلك يرجع طبعاً الى أنه لا يريد أن يبني أجسام الآخرين على حساب جسمه . وهو لا ينكر ذلك ولا يخفيه . يقول ويكرر بأن أخطر ما يتعرض له سجين ، وأكثره حدوثا أن يفقد رجولته بعدم الاستعمال ، أو بأي سبب آخر ، وهو محتاط لكل ذلك . فقد اعترف بكل شيء تقريبا أثناء التحقيق معه ، لكي لا يضطر أحد الى إكراهه بدنيا ، ومحافظة منه على سلامته . بل إنه تعاون بشكل إيجابي مع المحققين في إثبات كل شيء ضده، بعد أن سعى بمحض إرادته إلى الإعلان عن جريمته . وهو يدعو رفاقه في السجن إلى مزاولة وظائف رجولتهم بكيفية ما ، باعتدال وانتظام حسب مراتبهم في مدة العقوبة . . . ولا يفتأ يعلن أن كل يوم من أيام حريته القادمة سيعادل سنة كاملة من سنوات السجن ، ويعوض ما عانى فيها من حرمان . وقد اعد للنساء مكانة خاصة في برنامجه من البدينة إلى النحيفة ، والشقراء والسمراء والسوداء الفاحمة والخمرية أم الستة عشر ربيعا والعشرين ، إلى المكتهلة حتى العجوز . . . ولن يتناول وجباته إلا ضاحكاً معربداً وعلى أنغام جوق أو مغن . أما السيارة فسيغيرها كل سنة ، مع مسكن للمشتى وآخر للمصيف . وقد اشترط على أهله وزائريه ألا يأتوه بأي خبر سيء من خارج السجن ، وله في ذلك مثل عبقري يؤكده ويكرره مؤداه أن وقع الضربة على السور العتيد مهما تبلغ متانته ، وقوته ، ومهما تبلغ وهن الضربة ، فإنها لا بد أن تترك فيه أثراً يتعاظم بالتواتر والتكرار .

* * *

مشهد ٧

شهراموش في مجلس للدولة يحضره كبار أصحاب المناصب . يبدو عليه الوقار والهدوء مع التقدم في السن ، تشع على محياه ملامح التدبر والتفكير ، وقد غابت عنه علامات القسوة المعهودة . يجلس على حشية واطئة في نفس مستوى ما يجلس عليه القوم . على يمينه الحكيم روزباه ، وعلى يساره شبل وحمل مقعيين يتلاحسان بين الحين والحين ، أو يتلاعبان بقوائمهما بكامل الهدوء .

شهراموش(يرفع رأسه عن رقاق مكتوبة): أيها الناصح الحكيم ويا أصحاب المناصب . إن مجلسنا هذا ينعقد في ظروف خاصة تتطلب التدبر ، وتحمل المسؤولية ، بما عهدناه في أنفسنا جميعا من تحملها . آخر ما عندي من تقارير (يشير إلى الرقاق)، مرفوعة من أصحاب الملح ، والعصا ، والسيف ، تتلخص على التوالي في انخفاض مستمر لانتاج الملح ، وخلل في النظام العام ، وفي انضباط عامة الناس ، وعمال

المناجم ، وأخيرا في استعدادات عسكرية لغزونا ، من قبل من كانوا أعداءنا التقليديين من بلاد التراجان ، بالإضافة إلى بلاد الرهبوت ، والفلنج ، الذي لم نعادهم أبداً ، بل كنا نعتبرهم أصدقاءنا ... وكل ذلك طمعاً منهم في ملحنا حسب هذه التقارير ... وأنتم تعلمون ، أننا منذ سرنا في طريقنا الجديد بحكمة هذا الناصح (يشير الى روزباه) ، وبمساعدتكم ، بعثنا بهدايا كثيرة ، تتمثل في مقادير من الملح بدون مقابل ، وبنفائس أخرى إلى أصدقائنا ، والى من كانوا أعداءنا بالأمس على السواء ، بالاضافة الى عملنا المستمر للاستجابات إلى طلبات الجميع لسد حاجياتهم الكاملة من الملح بقدر الإمكان ... فما الرأي أيها الناصحون ؟

صاحب السيف (وهو قائد الجيش ، يتقدم بعد فترة صمت طويلة ، بكامل درعه وسلاحه) : إن جيش كغاشي أيها العظيم قوي كما عهدته ، مستعد لغزو العداة في بلادهم مهما كانوا ، وهو تواق الى تجديد انتصاراته في حروب ملح جديدة على غرار ما حققه في حروب الملح القديمة بقيادتكم . إن الاستعدادات لغزونا قائمة مؤكدة والرأي الا ننتظر الهجوم ، بل نكون المهاجمين .

صاحب العصا : إنني مع هذا الرأي . فطريق التوادد لا يجدي مع أعدائنا ، وهو سبب طمعهم فينا .

صاحب الملح : وهو رأيي أيضا ، ولكني لا أعرف كيف نهاجم كل هؤلاء الأعداء المتكالبين علينا ، من كل الجهات ؟

صاحب السيف : لن نهاجمهم جميعا ، بل نهاجم التراجان وحدهم في المرحلة الأولى فهم أعداؤنا التقليديون في الماضي ، وقد حققنا عليهم انتصارات لا زال جنودنا يذكرونها ويتوقون لأمجادها . وسننتصر عليهم من جديد ، وهذا يكفي لإدخال الرعب في باقي الأعداء فيسارعون إلى مهادنتنا . أما نحن فيجب ألا نهادن ، بل نختار الأضعف فالأضعف لحربه ، حتى نسيطر على بلادهم جميعا ، ولا ننزح عنها حتى لا يتكرر الطمع فينا .

صاحب العصا : أنا أيضا من هذا الرأي ، ولكن كيف نجمع الأقوات للجيش من الناس ، وهم يتذمرون بدون مبرر إلاّ رأفة الأنظمة الجديدة بهم ، وهي التي حررتهم من الخدمات والجبايات وكثير من الالتزامات القديمة . لدرجة النيابة عنهم في رعاية أبنائهم وتربيتهم وهكذا تفرغوا للشغب ؟

صاحب الملح : الرأي في جميع الأحوال ، أن ننظر من جديد في قوانين جديدة ، تعيد إرسال المجرمين والمشاغبين وما أكثرهم اليوم ، الى مناجم الملح ، لأننا حتى لو انتصرنا على جميع اعدائنا ، لتعين علينا دائما سد حاجيات الجميع من الملح ، وهذا يتطلب تزويد المناجم بمئات الآلاف من العمال ، بعد أن أوشكت أن تفرغ ، ومن يدري فقد تكون هذه الإجراءات كافية لوقايتنا من خوض الحرب ، إذا عرف الأعداء أننا عدنا كما كنا للإنتاج الملح ، وعدنا أيضا إلى قوانيننا القديمة التي كانت مصدر قوتنا . . .

صاحب السيف : لسنا إذن على خلاف . . . يجب أن نعمل على جميع الواجهات ولوسائل مختلفة لهدف واحد وهو مجد كغاشي وعظمتها .

شهراموش (مهموماً مستنتجا وهو يمر بيده على ظهر الشبل والحمل): تجمعون إذن على ضرورة الحرب والقتل من جديد !؟ ترون العودة الى إجبار الناس على حياة الأغوار المظلمة المالحة وموتها . وفرض الجبايات والخدمات ، وهجر الحقول والمتاجر !

صاحب العصا : مؤقتاً ، ريثما ننتصر أيها العظيم .

صاحب الملح : نعم مؤقتاً .

صاحب السيف : نحن مجبرون على ذلك ، ولا خلاص لنا بدونه .

شهراموش (مهموماً ساهماً كأنه يحدث نفسه) أما من طريقة أخرى ؟ الا تشكون في تقاريركم واستنتاجاتكم ؟

صاحب العصا : الاحتياط ضروري ، فلو فرضنا أن هناك

بعض المبالغة والتقدير لكان ذلك من حسن الاحتياط المحمود ، ولما دعا ذلك أبداً الى التراخي والتواكل .

شهراموش : صدقتم أيها السادة نحن مجبرون على هذا الحل الكريه مؤقتاً !

مراقادو : والكريه في هذا الحل أيها العظيم اننا خاسرون مسبقاً !

شهراموش : كيف ذلك ؟

مراقادو : لأننا نبدأ ونبادر بنزع سلاحنا .

شهراموش : أفصح .

مراقادو : سلاحنا الجديد هو التوادد والتعاون . . فإذا خرجنا عنه ودخلنا مع أعدائنا حربا بسلاحهم ، فقد خسرنا قيمنا قبل أن نحاربهم ، فهم المنتصرون ، سواء هزمناهم أو هزمونا بالسيف ؟ والأولى بنا أن نصمد على ما نحن عليه ، ونحدد المشكل الحقيقي لنجد له الحل المناسب ؟

صاحب الملح : المشكل واضح : رفع إنتاج الملح . وهذا يتطلب بشراً بمئات الآلاف ونظاماً صارماً في العمل . . و . .

صاحب السيف : والحرب حل وقائي للحد من أطماع أعدائنا .

صاحب العصا : وفرض الخدمات ضروري ، لتنشيط الإنتاج وأسواق الملح .

زاهور : (بهدوء وقد اصبح وديعا) لم يبق من صورة الماضي ، إلا أن نعود لعروض الاقتتال والافتراس الوحشي . . . لا . لا بد من حل آخر .

روزباه : إهدأوا أيها السادة . القضية عويصة تتطلب حلاً نهائيا لا زال مجهولاً . نحن أمام حلول مؤقتة ، لمواجهة استعدادات غيرنا لغزونا المزعوم . ولمواجهة رفع انتاج الملح . واذا ما سألنا لماذا يستعد الغير لغزونا ؟ كان الجواب لطمعهم وحاجتهم الى ملحنا ولانخفاض إنتاجنا . إذن مؤقتاً كيف نرفع الإنتاج ، ولا نعود إلى ظلم أهالينا

بفرض الواجبات المضنية المميتة عليهم ؟ لقد ألهمني جوابكم بالحل .

شهراموش : قل أيها الحكيم .

روزباه : نكون وفوداً إلى من يستعدون لغزونا ، وأرشح على رأسها مراقادو وزاهور ، وتكون المهمة تطمينهم أولاً ، وطلب العمال منهم لرفع الإنتاج في مناجمنا . وهكذا يطمئنون إلينا . فعمالهم سيعملون عندنا بأجر ، بحرية ، مثل من يرضون بذلك من عمالنا ، فيرتفع الإنتاج دون أن نفرض العمل في المناجم ، على من لا يريد ذلك من أهالينا ، أو أهالي غيرنا ، ودون أن نهمل مزارعنا ، أو متاجرنا ، وبذلك نتجنب الحرب .

شهراموش (مستبشرا) : إنه رأي صائب فما ترون ؟

مراقادو وزاهور (بصوت واحد) : نعم الرأي .

روزباه : (كالساهم في أفق المجلس) لكنه مجرد حل مؤقت .

* * *

قال الراوي :

وكان ذلك آخر مجلس ظهر فيه روزباه الحكيم . بل كانت تلك آخر مرة على الإطلاق شاهده فيها عامة الناس . وسيأتي بيان ذلك في حينه .

* * *

(الزهرات) أحدث أحياء المدينة وأجملها . بل مدينة مستقلة بذاتها . بنايات من ثلاث طوابق ، هلالية ، ونصف دائرية ، متدرجة السطوح على شكل قمم تغري بالقفز والتسلق . تتوسطها ملاعب تحيط بها أغراس متنوعة . من طابق ما ، كان وجه زهروية يطل ، متكئة بمرفقيها على إفريز النافذة ، تراقب حركة الأطفال في الملاعب وبينهم أحفادها . في داخل الشقة ، كانت عائشة ترتب أطباقا من الحلوى والمشروبات في أماكنها تساعدها فطومة . عندما دخلت ببعض المشتريات وجدتها قد انتهتا تقريبا من ترتيب كل شيء . المناسبة السعيدة كانت كبيرة ، غير محددة ، تشمل عدة أحداث : خبر سار مما وراء البحر عن

أخي محمد ، ترقية هامة لعبد الله مع انتقال نهائي إلى المدينة ، نجاح الصغار : مهدي على أبواب الابتدائية ، ومحمد على أبواب المدرسة ، وفاطمة في الروض . . . هناك أيضا مناسبة الإفراج عني ، وتسلم المساكن الجديدة . . . وظهور فطومة ، كأنها ولدت من جديد ، بالحال التي كانت عليها قبل زواجها من المرحوم الحاج مهدي الكبير وما تلا ذلك من هموم . . . باختصار كانت مناسبة كل شيء بهيج . ما كدت أدخل وأسلم ، حتى نادت زهروية أطفالها ليصعدوا ، وتبادلت في نفس الوقت أحاديث ود ومجاملة مع بعض الجيران من الشرفات . لم تمض لحظة حتى دخل الصغار بضجيجهم ومعهم ثلة من رفاقهم دعوهم للحفل البهيج . أول شيء فعلته ، أني طلبت منهم التريث حتى يحضر بقية المدعوين ، وأثناء الانتظار ، بدأت أمضي معهم الوقت ببعض الأناشيد المشتركة . أخيراً دخلت رجاء ومعها السدراوي وابنها ، أقصد ابن رجاء من زواجها الأول . نسيت أن أقول إن المناسبة أيضا تشمل زواجها . فلقد أحبها السدراوي من حديثي عنها . وتهيأت له رؤيتها في بعض زياراتها لنا في السجن ، وشجعته على ذلك دون أن أخفي عليه شيئا من مشاعرنا القديمة البريئة المتبادلة . كان قد عرفني بما فيه الكفاية طيلة مشاريع السجن وسنواته، فلم يتردد. سادت البهجة .اختلطت فيها الضحكات بالأغاني والتصفيقات ، انخرط في الحفل بعض الجيران نساء ورجالاً . لم يحتاجوا لأية دعوة . الشقة تتسع بقدر ما يتزايد عدد الحضور ، تتمدد بقابلية لا نهائية كأنها من مادة مطاطية . لست أدري ما الذي جعلني في هذه اللحظة أتذكر حفلتنا البسيطة في إحدى سهرات السجن ، عندما كنا قد أنهينا تصاميم مشروع « الزهرات » وأتذكر بالذات ملامح مصطفى لكرد، وهو يسرد علينا تغريبة بدر زمانه في آلامها ونهايتها السعيدة . أحسست برغبة داخلية ملحة ، في أن أسمع صوته يحكي من جديد تلك المغربات بلسانه الساحر . ولكن كيف ؟ وقد تركته خلفي هناك في السجن . . . فجأة كأنما قرأ السدراوي أفكاري ، أو كان يفكر بنفس الشيء فيقول لي : أتذكر صديقنا ذاك الذي . . . ويخبرني

أنه التقى بمصطفى لكرد في مدخل البناية ، وأنه من جيراننا سكان الزهرات ، بل انه من سكان بنايتنا هذه بالذات ، وأنه سيحضر الحفل أيضا . فجأة أيضا يدخل مصطفى لكرد وزوجته وابناه . . . نتعانق نغني ، نأكل ونشرب ، نصفق للمناسبة السعيدة . . . إذن أصبحت اللحظة مناسبة هذا اللقاء أيضا ، ويمكن أن تشمل كل الماضي ، وما يأتي به الحاضر والمستقبل ، ورغم أنها حفلة لا يمكن أن تنتهي . تحينت فرصة وقلت : الآن أيها الأعزاء صغاراً وكباراً رجالاً ونساءً ، جاء وقت المفاجأة . وبدأنا نوزع الهدايا على الحاضرين ، وهي جملة لعب مختلفة من إنتاج مشروعنا المشترك ، وظهرت بين أصناف اللعب وأصحابها مفارقات زادت الحفل بهجة ومرحا : مثلاً زهروية كان من نصيبها كناوي راقص بطبله وعرفه . وبين كل فترة رقص وأخرى ، كان يتوقف لينحني بطريقة فكاهية تظهر عورته . . . محمد الصغير كان نصيبه نملة متربعة في أذن فيل ضخم ، ومن هناك تتحكم في حركته، وبين الحين والآخر ، تبرز للجمهور تعلن عن وجودها بحركة هزلية لتعود إلى تربعها . أنا شخصيا كان نصيبي دمية بعدة وجوه ملونة ، تتغير سحنتها بمجرد لمس بشرة وجهها . أو لثم شفتيها بقبلة . . . كان الدور لمهدي كي يتسلم مني هديته . قبل أن أقدم له اللعبة ، أردت أن أزيد من شوقه ، قلت له :

ـ ماذا تتمنى أن تجد ؟

ـ سمكة مشوية بلا عظم بين رغيفين !

عرفت أنه يتهرب . ألححت عليه . نظر إلى حجم العلبة يستكنهها ، أو يحاول يطابق بين رغبته وبينها . أخيراً قال كمن استسلم بعد إجهاد : كرة ومضرب .

ناولته العلبة . فتحها وارتمى علي معانقا فرحا : رقعة شطرنج ، يصدر عن كل بيدق منها صوت خاص ، حسب موقعه من ظفر أو حرج . . .

أيقظني باب الزنزانة يفتح . الحارس يعلن أنني مطلوب في قاعة الزيارات ، كنت أنتظر هذه اللحظة في يوم زيارات كهذا . عدلت هندامي ، وحملت عدة علب كرتونية مختومة بخاتم إدارة السجن وترخيصها ، وسرت خلف الحارس أشعر تحت إبطي بالكناوي يهتز رقصاً في علبته ، وبالحصان يصهل وهو يقفز مربعات الرقعة ، والأحمق يدندن غير منتبه ولا عابىء بما يتربص به من خطر في النقلة القادمة . . . ضغطت على العلب كأني أطلب منها أن تكتم سرها تحتفظ لمحتوياتها بسحر المفاجأة ، حين يكتشفها أصحابي من الصغار والكبار .

* * *

كأني أعرفه في العمق وان لم أتعرف عليه جيدا كما أراه أمامي . كوجه الحاج مهدي ، بل هو بالذات إلا أنه حليق ، ولم يثر ذلك فيّ أي استغراب . كان يداعب طائرا صغيرا أنيقاً ، منمقاً بألوان لا يسعف التعبير عنها . يمد يده باحتياط من فتحة القفص ، يمسك بالطائر بعناية ، يدنيه من وجهه ، يظل برهة يتأمله ، ثم يمر بخده على ريشه الناعم . يتسع القفص ليشمل الطائر وصاحبه ، فيصبحان داخله ينعم كل منهما برفقة الآخر . والرجل مستمر في تلمس الريش الناعم بخده . القفص سرير ، وخد الرجل يمر بلطف على بطن امرأة يظهر أنها في بداية الحمل . إن الرجل وإن كان هو الحاج مهدي إلا أنه سي سليمان ، وان المرأة الراقدة وان كانت فطومة ،إلا أنها حليمة زوجة سي سليمان، مع أني لم أر ملامح وجهها . سي سليمان في غاية الانبساط بعودة الدقيق الرقيق ، لا ينقص من صورته في ذهني إلا غياب التناقض العتيد ، الذي كان يمثله كيانه الهزيل الى هيكل المرحومة زوجته الأولى . حليمته كما أراها الآن ممددة إلى مداعباته في استسلام ، وجه صبي يفيض إشراقا وزينة . سي سليمان في غاية الارتياح والانبساط إلى حليمته والى طبيعته . . . يمر بخده على بطنها يتسمع ويتتبع حركة الجنين الناشىء ونبضه . أخيراً سيصبح سي سليمان أبا . بعد التعب والنصب ، والصدمة تلو الصدمة ، والاغتسال بسبع موجات بحرية عند الفجر ، وعاصفة

الـدخان والبخـور ، وتدليـك الجسم من قمـة الـرأس إلى أخمص القـدم بالدهون الدسمة الكريهة ، طردا للجن والشياطين التي سكنت ثنايا هذا الجسم المنهوك النحيل . أخيـراً وبعد فسـخ السحر عن حليمتـه أيضا ، بأكثر من عملية معقدة، ها هوذا راض عن نفسـه ، وزوجه وعـما أنفق على الطائر الأنيق في القفص الذهبي الجميـل ، الذي لا يتسـع لغيرهمـا وما ينجبان . . . مشهد متكامل الرضا والهدوء والطمأنينة . فجأة تـدفعه حليمة عنها بعيدا وترميـه بقوة لا تصـدق . تنهض عاريـة متنمرة تكشف عن مخالبها الطويلة ، تدخل كلتا يديها في أسفلها ، تخرج الـوليد الجنـين كتلةدماء،يصطبغ الكون كله بلون الدماء. . .ثم ترميه على وجه سي سليمان .تصيح فيه : لن يكون أبدا لن يكون . الجنين ليس لك . العقم فيك العقم بك ، العقم منك . العقم اليك . العقم . . . أفقت مذعوراً يتقاطر جسمي عرقاً .



عرفنا مصطفى لكرد قرابة سنتين ، سمعناه أثناءها وسمعنـا عنه . الآن يحتفـل بقرب الإفـراج عنه . فلقـد أنهى سنوات العقـوبة المحـددة بالتمام والكمال كما يقول ، وكما كان يقدر ، وبعد أسبوع تفتـح البوابـة عنه ، وتغلق دونه . لقد بدأ عده العكسي ومنذ اليوم ، فكل يوم يمر لن يعود عليه وهو في السجن . هيأ حفلاً شيقا ، عيداً غنيا بما لذ وطاب من مـأكول ومشروب ، وقد بـدا مع ذلـك أقل ابتهـاجا ممـا كان ينتـظر من مثله . أبدى له هذه الملاحظة أكثر من واحد ، فكان جوابه أنه يعز عليه مفارقة صحبـه ، بعد العشـرة الطويلة . لعله صـادق في ذلك . لعله في الواقع في غاية الابتهاج ، ولعل تحفظه في إظهار ذلك يرجـع إلى مراعـاة شعور الآخرين . . . مهما يكن فقد كان حريصا على أن يتـرك في الجميع سيـرته ونصيحتـه ، في الحفاظ عـلى الصحة والـرجولـة ، وكان متـطوعا لقضاء ما يلزم الآخرين من مآرب خارج السجن ، واعداً بأن يظل عـلى اتصال بهم عن طريق الكتابة .

كنت والسدراوي قد استجبنا لدعـوة مصطفى لكـرد مجاملة ، بـل

إن صديقي استجاب على مضض بعد الحاحي عليه ، ولم يكن سبب ذلك ليخفى علي . . . لذلك لم نبق لآخر الحفل ، ولم أتمتع لآخر مرة من مصطفى لكرد بتغريبه بدر الزمان أو بدر زمانه كما يسميها ، والتي لا بد أن يعيد حكايتها مستجيبا للرغبات ، مضيفا إليها ومبدعا فيها .

* * *

من كان يتصور أن السور العتيد الصلد يقع بضربة واحدة وينهد . وأن الخلل الشامل يعتري منظومة الآلة الدقيقة الرهيبة فتتوقف دفعة واحدة وتتفتت ؟ لم أصدق، فمهما تكن الضربة فهي واحدة وأولى ، والسور هو ما هو ، . . . والحساب والدقة والمنظومة هي ما هي . . . لم أصدق ولكنه حدث الآن ، وسيمضي ويصبح مما يروى او هو مضى فعلا وأصبح تاريخا جديداً ، إن وجد له الراوي الأصيل كمصطفى لكرد .

بالضبط بعد يوم وأربع عشرة ساعة من حفل وداع مصطفى لكرد . . . وبالضبط قبل أربعة أيام وعشر ساعات من الافراج عنه ، وجد الرجل ملوي الرقبة ، معلقا إلى قضبان نافذة المراحيض في مصنع السجن ! الخلل الذي اعترى . . . والبلل الذي تسرب ، كان نبأ من خارج السجن . نبأ قديما أخفي عنه عمداً وعملاً بنصيحته وأمره : ان امرأته بما تملك من عمارة ومال . . . . قد ظفرت بالطلاق . . . وأنها زوجة آخر منذ زمن غير يسير .

* * *

قال الراوي : اتسعت حدائق قصور شهراموش ، واتصلت بها غابات وأحراش غرست خصيصا ، وثبتت كأنها غابات طبيعية كثيفة ، تظهر بينها حيناً بعد آخر ، بحيرات ومرتفعات صخرية جرداء ، أو ترابية معشوشبة ومشجرة . . . وكانت وحوش وحيوانات مراقادو وزاهور المختلفة ، ترتع فيها كما تشاء عوضا عن الأقفاص ، وغرف الحجز ، وكانت هذه الغابات والحدائق ، تمثل جزءاً أساسيا من مدرسة الطبيعة التي ينشأ فيها بدر زمانه وأترابه ، الذين كانوا جميعا من ذكور واناث

يحملون لقب الإمارة ، لا لأنهم بالفعل انحدروا كلهم من أسر عظماء ، أو حتى أغنياء ، بل إنهم كانوا قد اختيروا عن قصد ليمثلوا طبقات كغاشي كلها ، من فلاحين وأجراء وذوي مناصب وأغنياء وتجار وصيادي سمك . . . فلقب الإمارة كان مجرد تشريف لهم ، وتأكيد للمساواة بينهم في كل شيء ، لدرجة أن لا أحد منهم يشعر بأنه أمير أو حقير[1] وكان يطلق عليهم جميعا أمراء المائة ، لأنهم حوالي ذلك في العدد ، اخذ نصفهم منذ مواليدهم ، لأنهم وافقوا مولد بدر الزمان ، وألحق الباقي بهم ، ممن يقاربوهم في السن بعد ذلك ، وبعد التأكد من أن آباءهم قد أحسنوا تنشئتهم حسب مبادىء الحكيم روزباه ، كالخلو من مظاهر الخوف ، والطمع ، والغيرة ، وبعد أن نال آباؤهم أرفع جوائز التشجيع على ذلك . وكان أمراء المائة يتعلمون على علماء وأدباء ومربين مهرة ، من مختلف الميادين ، وعلى صناع وحرفيين من أحذق ما عرفه العصر من فلاحين ونجارين وحدادين . . . بالإضافة إلى الفنانين من مختلف الفنون . . . وكانت الأميرة بيروز نفسها ، من المشرفات على الأميرات من المجموعة ، فيما يجب أن تنفرد به الإناث عن الذكور ، كما كان مرقادو وزاهور ، من جملة معلميهم فيما يخص تربية الحيوانات ورعايتها وترويضها على التآلف والتعايش .

قال الراوي : ولم يكن في حياة أمراء المائة فاصل بين قراءة وصناعة وزراعة . . . فكانوا يعيشون ويتعلمون بين المزارع والحدائق والغابات وأوراش الصناعة ، . . وكانوا يصنعون كل شيء بأنفسهم بإرشاد معلميهم وهم في سن الثامنة تقريبا . إلى هذه السن لم يظهر على أحد منهم حسد أو غيرة أو طمع أو خوف . حتى ان شيئا غير عادي لم يدون في السجلات الخاصة بتنشئتهم ، إلا تلك الحادثة التي رواها زاهور فيما بعد ، وضاع سجلها مع سائر السجلات . رواها كالتالي : كان بدر الزمان في بعض نزهاته وجولاته ، يخلو إلى الأميرة ميكاري ،

(١) يقال في رواية أخرى إنهم جميعا كانوا يحملون اسم بدر الزمان ، زيادة في المساواة .

وهي من جملة من نشأ معه منذ مولده . كانت مثله تقارب التاسعة تجمع بينهما آصرة قرض الشعر ، فقد كانا كلما اختليا بنفسيهما ، تباريا في قرضه على البديهة في مختلف الموضوعات . . . وقد دهشت الأميرة ميكاري ، واحتارت عندما وجدت بدر الزمان جامدا ، على غير عادته ودعته إلى نزهة في الأحراش ، لتفقد الحيوانات ، فاعتذر لغير سبب مقنع ، وظهر لها مهموما ، تقاسيم وجهه بدت لها معبسة ، وملامحه باهتة . انصرفت عنه ولكنها لم تستطع أن تسكت على مكنونها فأفضت به إلى الأميرة الكبيرة بيروز . ولكن بيروز بدورها رغم الحاحها ، لم تفلح في إخراج بدر الزمان عن حاله ، أو بوحه لها بما يشغله . فأرسلت إلى الحكيم روزباه نفسه ، الذي استطاع أن يعرف السر . والرواية كما ذكرها زاهور فيما بعد ، أن بدر الزمان عثر في ثنايا فراشه على رقعة موجهة إليه تقول له (إن ميكاري لا تحبه ، بل تحب غيره من أمراء المائة ، وأنها من أصل وضيع لا تستحق حبه . . .) فوجد بدر الزمان نفسه في حيرة وارتباك : لماذا لا تحبه ميكاري ؟ أو على الأصح ، لماذا تظهر له أنها تحبه إذا كانت لا تحبه ، وما معنى ذلك ؟ وهل هو ممكن ؟ وما معنى أنها من أصل وضيع ؟ أو على الأصح ما علاقة ذلك بالحب ؟ إنه يعرف أن الوضاعة هنا ، قد يكون المقصود بها الفقر . وهو يعرف وجود الفقر والغنى في كغاشي وفي العالم ، ورأى من ذلك بنفسه في جولاته واتصاله بالناس ، ولكنه لا يؤمن بعدالة هذا الواقع ، ولا يفهم كيف يرتبط الفقر أو المرتبة الاجتماعية ، بالحب فتجعل الشخص يستحقه أو لا يستحقه ؟ وكانت المشكلة الأعوص هي مصدر تلك الرقعة ؟ ومقصود صاحبها ؟ ولماذا لم يعلن عن نفسه ، ويذكر له ذلك وجها لوجه ؟

قال الراوي : . . أما الحكيم روزباه فقد أدرك ما وراء هذه الواقعة من مؤامرة تدبر ضد الجيل الذي ينشئه ، وخمن أنها صادرة عن زمرة أصحاب المناصب والمصالح ، لإثارة الدوافع الأولية في أمراء

المائة ، وحفزهم على الحسد والكذب والصراع . . . مثلما كان مروض الوحوش يقوم به قديما ، لإثارة قابلية وحوشها للاقتتال والافتراس . . . وسأل روزباه بدر الزمان عدة أسئلة بعد اطلاعه على هذه الرقعة ، سأله عن مشاعره نحو ميكاري ، ومن يقول إنها لا تحبه ليعرف إن كان قد تكون في نفسه حقد أو خوف أو رغبة في الانتقام . فكان جواب بدر الزمان أنه لا يشعر بغير الحيرة ، والارتباك والرغبة في التأمل والفهم . حينئذ أعلن الحكيم لبدر الزمان أن تلك الواقعة ، لم تكن إلا مادة اختبارية ، وأنه نجح في الاختبار ، وطلب أن ينساها .

قال الراوي : ولم يفت روزباه في ذلك الحين أن يغتنم الفرصة ليبصر بدر الزمان ، بما يجري خارج عالم أمراء المائة ، من دسائس ومؤامرات . هدفها الأمراء أنفسهم ، وكل أنصار روزباه وشهراموش نفسه .

قال الراوي : ومنذ تلك الحادثة زاد روزباه من يقظته ، ونبه شهراموش إلى ضرورة مزيد من الاحتياط لحماية أمراء المائة ومن يرعاهم .



قال الراوي : اتجه الأمير بدر الزمان والأميرة ميكاري نحو الأحراش ، يحملان قفافا صغيرة مملوءة حبوبا ، وقوتا متنوعا يحيون به أصدقاءهما من حيـوانات الغابة ووحوشها . نثرا حول البحيرة الكبيرة حبوباً ، وسرعان ما تجمعت حولهما حمائم وصقور وعصافير زاهية الألوان ، تنقر الحب جنبا الى جنب ، ويقفز بعضها فوق بعض في منظر بهيج . وجلس الأميران على حافة البحيرة ، ورنوا ببراءة إلى صورتهما المرتسمة على سطح الماء الصافي الهادىء ، وهما جنبا إلى جنب ، وقد تماس خداهما في حنان . . . وتحرك نحوهما من الطرف الآخر ، ثعبان البحيرة العظيم ، يسبح بتؤدة وهو يحمل على ظهره رفيقته الضفدعة المبرقشة . فرميا إليهما بشيء من البيض المقشر . . ثم قاما وتابعا جولتهما

بين الأدغال الملتفة . . أشرف الأميران من خلال أجمة كثيفة على مرعى فسيح معشوشب، وأوشكا أن يخطوا نحوه ، حين تناهى إليهما أنين مؤلم . تسمعا قليلاً ، ثم اتجها صوبه يزيحان الأغصان من طريقهما ، وهو يتزايد في سمعهما . . . أنين يتقوى كلما اقتربا منه . وازاحا بعض الأغصان ليجدا نفسيهما مباشرة أمام اللبؤة الصغيرة نيرا ، يحيط بها في شبه دائرة ، بضع ذئاب وثعالب ومـاعـز وضأن ، ينتصب بينهما الأسد الضخم جيكان . أدرك الأميران الموقف. كانت نيرا تعاني المخاض في تجربتها الأولى مع الوضع . لقد وجداها في موسم التناسل ، وقد استسلمت لجيكان وهي جد صغيرة . وها هي ذي تعاني صعوبات في الوضع وآلام المخاض . أسرعت ميكاري ، والتقطت عوداً وضعته بين فكي نيرا لتطبق عليه ، وبدأت تربت عليها . في هذه الأثناء كان بدر زمانه قد أشعل ناراً صغيرة ، ثم تعاون مع ميكاري ليقربا نيرا من دفئها ، وبدأت ميكاري تسخن كفيها على النار وتمر بهما على بطن نيرا ، في حركات لولبية متوازنة ، واللبؤة تئن أنينا عميقا مؤلما . . . وأخيرا أطل رأس شبل ، فبدأ بدر زمانه يتسلمه ويساعده على الخروج . . . بل شبلان ذكر وأنثى ، وضعهـما أمام نيرا تلحسهما . . . تقدمت ميكاري من ماعزه ، ووضع بدر زمانه كفيه تحت ضرعها ، وطفقت ميكاري تحلبها في كفيه . . . وهكذا قدما أول غذاء لنيرا ، حتى ارتوت ثم تركاها لشبلها ، وامتطيا ضخم الأسود جيكان وانطلقا على ظهره في مرح .



رجاء نقطة بيضاء غامضة في حياتي . تعارفنا ومنذ ذلك اليوم أصبحت أفيق باسمها وأنام ، أفاجىء نفسي متسائلاً : هل أحبها ؟ التحقت بجانبي في مصلحة التوجيه والعلاقات الخارجية . من المفروض أنها مساعدة لي ، وأنني رئيسها ، لكنني أعرف أني لا أستطيع أن أكون الا زميلا أو صديقا لكل من يعمل معي . أول رحلة قمنا بها في نطاق الشغل كانت مرافقة وفد أجنبي صناعي مختلط الجنسين ، شباباً وكهولاً

يناهز عددهم الخمسين . لم تكن المباني الخاصة لتكفي لإيوائهم فخصصت للمتزوجين منهم ، وأنزلنا الباقي بغرف مستقلة في فندق . كنت ورجاء نتعاون أثناء الزيارة على الشرح والإرشاد كل منا على رأس فريق منهم . أبنا مساء إلى الفندق تناولنا العشاء ، وتركنا الزائرين أحراراً ، المدينة صغيرة . رغب البعض في قضاء سهرة بالخارج ، لكنهم ما لبثوا بجولة واحدة ، أن أحاطوا بكل شيء ورجعوا مقتنعين بأن الفندق أحسن ما في المنطقة . فاصطفوا على إفريز البار . كنت ورجاء على طاولة نتحدث في أمور إدارية ، كانت تريد تنمية خبرتها وكنت أفرغ ما في جعبتي من معلومات ، تنقطع الموضوعات بيننا لكن شيئاً ما يجعلها تنبعث من جديد من طرفي أو من طرف رجاء . شاب من المجموعة الزائرة ألماني أو امريكي ، يتقدم نحونا ببعض تهيب . كأسه في يده . يسألنا عن شيء ،معلومات عادية جداً تتعلق بالمدينة الصغيرة . تجيبه رجاء ، وأضيف شيئا لما قالت . لا ينصرف الشاب ، لكنه يدعو رجاء لشرب شيء معه أو معهم . . . شعرت بأنها فوجئت بالطلب . نظرت الي . لا أدري ماذا قرأت في وجهي ، واعتذرت بأدب . عدنا للحديث . جف الشاي والعصير ، وبدأنا نطلب قهوة في آخر الليل . ليلة كاملة بتمامها إلى إشراق الشمس ونحن نتحدث ، قلبنا كل صفحة في حياتنا ، وقرأنا كل سطر ، بل قرأنا بعض الفصول أكثر من مرة . في الثانية والعشرين . مطلقة بطفل ، خرجت به في الشهر الخامس ، الألم يرتسم باستمرار على سحنتها السمراء طول الليلة ، كنت أقاطعها بين الحين والحين : ألا نغير الموضوع؟ كانت ترد بأنها تفضل أن تتحدث عن همومها ، أن تفرغ ما بها علي ، ليس لها عون . قالت إنها لم تتحدث لأحد بمثل هذا من قبل . علاقات العمل والصحبة العابرة لا تتيح ذلك ، كنت أيضا بدوري ولأول مرة في حياتي أجرب أن أتحدث عن همومي . شجعتني بمبادرتها . وجدتها في أثناء حديثي ، تعرض علي تغيير الموضوع . قلت لا . أريد أن أفرغ شيئا ما بي . همسنا وحده كان يسري في هدأة الكون والمصابيح

الخافتة . شعور يشملنا بأننا وحدنا في جزيرة أو رقعة معزولة لا ترسم على خرائط . الفندق برمته غارق في سكون النيام ، شلال ضوء خافت يعمنا في الصالون الأرضي الفسيح ، حتى غالبه إشراق الصباح . كنا فوق التعب والسهر ، طلبنا قهوة ، رشفنا منها ، صعدنا لغرفتنا نستعد لليوم. وبعد دقائق كنا على مائدة الإفطار . كنا قد أتينا في اليوم الأول لزيارتنا على كل المرافق الصناعية الداخلية ، وعلينا اليوم أن نقوم بجولة خارجية سريعة ، تعطي للزوار نظرة على منطقة المؤسسات الصناعية بكاملها ، وامتدادها الطبيعي في مشاريع التوسيع المقبلة ، بعد ساعتين كانت حافلتنا تقطع طريق العودة مخترقة وديان وسهول المنطقة . أحاديث الزائرين مختلطة في هرج . بين الحين والحين يلقي أحدهم سؤالاً حول جمال المنطقة وطبيعتها السياحية . كنت أجيب بما أعرف معتذراً بنقص معلوماتي في هذا الموضوع . في أول مقعد قرب السائق ، كان مكبر الصوت في يدي ، مستعدا لينشر أية معلومات بين الزائرين أتطوع بها طوال ساعات الطريق . بيد أن استعماله كان نادراً من جانبي ، إلا عندما نعبر قرية أو مدينة ، فأنطق اسمها باختصار ، وبأقل درجة من ارتفاع الصوت أو هكذا خيل إلي . لم أكن أشعر بأي تعب أو حاجة للنوم ، لكني لم أكن نشيطا . رجاء بجانبي على المقعد . تركت رأسها يميل على كتفي وأغفت . حرصت على ألا أتحرك ، الا أزعجها .

* * *

كثيرا ما سألت نفسي هل هو الحب؟ الألفة ضاربة بيننا . أحاديثنا أثناء العمل . . . في الرحلات المشتركة . . . في الأوقات القليلة التي نتناول فيها قهوة أو شايا في مقهى الإدارة . . لا تترك مجالا إلا مجال الحب . كنت راضيا بذلك . أشعر بالآمان . وكلما سألتني عن شأن من شؤ ون أولادي ازددت ارتياحا . ولأمر ما بدأ موضوع الأولاد يأخذ من أحاديثنا أكبر الوقت . أحكي لها عن مهدي ومحمد، تسمع وتسأل . تسألني عن فاطمة الصغرى أقول إنها تشبهها وأنها بالنسبة لي تسمى رجاء . . . أصبحت تعرف الكثير عن أولادي ، عاداتهم ومشاكلهم

ويمكنها مثلي تماما أن تتنبأ بتصرفاتهم ... قدرت مراراً بيني وبين نفسي ، أنني لو أطلقت رجاء على ابنتي ، لكان ذلك خير هدية أقدمها لنفسي ولرجاء ... كنت أتألم كثيرا ، كلما تذكرت كيف أنني لم أتمسك باقتراحي إذ ذاك ، فقد طفا الاسم على شفتي بعفوية غريبة ، ولكنني بمجرد ما وعيت دلالته ، تركت فرصة الانتصار لزهروية ، رغم ما أبدته زوجتي نفسها من إعجاب بالاسم . لم تكن رجاء تزور أسرتها ، حيث طفلها سعيد عند أمها إلا نادراً رغم عطل الأسبوع ومسافة أقل من ساعتين بالقطار . كانت لا تطيق أن يكرروا عليها من جديد أن تراجع زوجها ، أو أن يستنكروا عليها انفرادها بالرأي ، في موضوع تعتقد أنه يخصها وحدها . ومن ثم شعرت بها كأنها تعوض عن أمومتها المحرومة بأخبار أولادي ، وبمشاركتي في اهتماماتهم ، كانت متفقة معي على أن الأولاد ، يجب أن يتركوا التعبير عن ذواتهم . تسايرني في سلوكي المتسامح معهم ، لكنها لم تكن تخفي خشيتها من أن ينشأوا مدللين عابثين . لم أكن أشاطرها الرأي الأخير .

* * *

أكثر من مرة استأذنت في أن أنصرف ، ثم توقفت وعدت لحديث رجاء . مضى علينا أكثر من ساعة في المقهى المقابل للإدارة بعد خروجنا من العمل . جفت القهوة في كأسينا ، وأكثر من مرة تهيأت لأودعها وعبرت عن ذلك . لكننا ظللنا جالسين . لم تكن تستجيب لاستئذاني . رغبتها كانت واضحة في إطالة الجلسة ورغبتي أكثر . سايرتها . تقطعت أطراف الحديث مراراً وربطناها من جديد . فترات صمت بيننا تطول كأنها تؤكد أن الموضوعات استهلكت ، ويجب أن نبدأ صفحة جديدة . كلما طال الصمت ، أحسست برجفة في القلب ، وفراغ في الذات ، أهتز لها وأبحث عن أي موضوع بطريقة عشوائية . أسألها عن مسعودي وحميد . تعرفهما ، أصف لها كيف أن أمرهما تغير بمجرد التحاقهما بقسم الحسابات . لغتهما أصبحت غريبة ، تسألني . كيف ؟ يلاحقني سؤالها كيف ؟ سؤال جاد كأنها لا تعلم أني أصطنع موضوعا للحديث

اصطناعا ؟ ولكني أيضا في أعماقي جاد ، إنهما يتحدثان كثيرا عن العمل الحر . . . ويبدو أنهما يجربان بعض الأعمال الخاصة .

نظرت إلي تستزيد ، تريد أن تستخلص شيئا محدداً دون جدوى . لعلها تكتشف أخيراً أن الموضوع عائم لا دلالة له . يسود الصمت . تعاودني الرهبة . أنبهها الى النوع الجديد الذي بدأ يسود في تصميم السيارات . . . أردد ما أعرفه عن أشكال سيارات تشبه كائنات حية كأنها مستوحاة منها . . . ضفادع . . . سلاحف . . . تعاودني رهبة الصمت . أكرر رأيي في المذكرة الإدارية الأخيرة التي تنبه إلى ضرورة الالتزام بأوقات الدخول والخروج . . . تقاطعني فجأة بالوقوف للذهاب . سئمت بلا شك لعبة اصطياد الموضوعات . أسفت عما سببته لي من ضياع وقت . هي ضائعة الوقت والوجود فلم تضيعني معها ؟! كانت تعبر بمرارة عميقة . قلت دون أن أدري ، إنني مثلها ضائع الوجود . احتجت على قولي . نهرتني . كنا قد اقتربنا في اتجاه في محطة الحافلات عرضت عليها أن تأخذ تاكسي . رفضت أن أصحبها وطريقانا متعاكسان . تركتها تصعد ودلفت إلى جانبها دون أن أترك لها فرصة . نزلنا . يجب أن أودعها بسرعة . كانت حريصة على ذلك . كنت أيضا حريصا وغير حريص . . . يملؤني تهيب وارتعاب من أن أطيل المكوث معها . . . ومن أن أتركها وحدها . مم أخشى وعلام ؟ لا أدري بالتحديد . مني ومنها علي وعليها . من كل شيء على كل شيء . عندما مدت لي يدها للوداع ، على عتبة باب العمارة ، شعرت أنني أسلمها إلى عدو مجهول . شعور بالإثم ظل يلاحقني طيلة طريق العودة . قالت عندما نهرتني واحتجت ، إنني لا يمكن أن أكون ضائع الوجود وأنا ملتحم بأسرتي الصغيرة المتماسكة ، أغدق على أفرادها عطفي وحناني ، وأتلقى منهم أضعاف ذلك ، أحيا بهم ويحيون بي ، قدرت بجد ما وراء كلامها ، وما تعاني منه كأنني مكانها .

* * *

أستطيع أن أقول انني أعيش عذابا بقرب رجاء وعذاباً بالبعد عنها ، للمرة الألف أفاجىء نفسي متسائلاً أهو الحب ؟ والا . . .فماذا يكون ؟ وكيف يكون الحب ؟ يخيل إلي أنني أقرأ في عينيها نفس السؤال وربما نفس الجواب . أي جواب ؟ اتحسس معالم عذابي ، أجدها في عجزي عن أن أقول لها إنني أحبك ، وأن أطلب منها نفس الشيء ، وأن أستطيع فعل شيء محدد بعد أن أقول ذلك أو تقول لي مثله . أخشى من لساني أن ينزلق ، ومن حركاتي أن تطيش ، فليتنا نكف عن لقاء المقهى وطريق منزلها بعد العمل . بل ليتنا نكف عن لقاء العمل ذاته . ومع ذلك فوجئت واستنكرت عندما امتنعت عن صحبتي للمقهى ، وقررت حذف الطريق أيضا ، لم تشرح ، لكنها قدرت أنني أدرك . نعم ، أدرك وأريد ذلك ولا أريده . ومع ذلك جاءتني في هيئة عروس مبتهجة ! الباب موصد علينا في غرفة يبدو أنها خصصت لليلتنا هذه . تقدمت نحوي متئدة مبتسمة مفتحة الذراعين . في نصف طريقها ، في منتصف طريقها إلي ، مدت يدها ، وأزاحت عن رأسها تاج العرس وارتمت علي فتشابكنا بالعناق والقبل . . . حتى ضجت من حولنا الجدران والأبواب . . . الطرق المتضخم العالي يوشك أن يقتلع الباب ويهد الحيطان . لا مفر . والطرق يشتد والضجة . . . وجاءتني في صورة أخرى ، نفس الغرفة تقريبا أو نفس الشعور بأنها نفس الغرفة ، كانت في الركن على سرير منخفض ، مغطاة في مرضها . لم أكن أراها . لكني كنت أعرف أنها هي ، وكنت أتحسر على حالها . أريد أن آتيها بأنجع الدواء ، وأجود المأكول ، وأصدق الحب . . . أريد أن تقوم وتخطو على قدميها ، لكن شيئا يحجز إرادتي ، فلا أتحرك للدواء ، ولا للأكل ولا للحب ، وأظل أرمقها فقط . أعرف أنها هي المريضة تحت الغطاء . ولكني لا أراها ، تدخل عائشة فجأة بالدواء ، وزهروية بالأكل ، وأعلم من لسان حالهما ، أنهما تقولان لي ، وأنت ؟ لم يبق إلا أنت ، أعطها الحب لتشفى وتنهض. اتحرك نحو فراشها، أنحني عليها لأطبع على وجنتها قبلة محمومة صادقة ، ألمس خدها

بشفتي ، أشعر بالشوك يلسعها من موقع القبلة ، وتنبعث من الفراش ، رائحة عفونة رطبة ، وصوت منهوك لرجل مريض يظهر أنه يعرفني وأعرفه جيداً ، يقول ممتنّاً « الله يرضى عليك . الله يرضى عليك » . يعتريني ارتعاب . ألتفت خلفي إلى زهروية وعائشة . أجدهما تبتسمان بخبث . . . وهيكل الحاج مهدي ممدد يحتضر . . . أعلناً حضرت ، في هيئتها المعتادة التي أعرفها عليها في المكتب . . . والمدير ذاته حضر أيضا في هيئة ليست بهيئته المألوفة ، لكنني أعرفه وأجده مألوفا . رفع يده . سدد سبابته نحوي يشير الي بقوة ويقول : « اذا لم تتزوجها فلست ابنا لي ! » .

***

توالت علي أيام أصبح فيها تعبا مكدودا . نوم متقطع مذعور . بدأت أشعر بمتعة لا مزيد عليها أيام العطل ، أقضي يومي بكامله أحيانا مستيقظا ممددا في الفراش . أنادي الأولاد حولي وألاعبهم فوق السرير . تضيق عائشة بذلك . لأول مرة رأيتها تخرج عن هدوئها تقول وكأنها تنتهرني : « إذا كنت مريضا فيجب أن تتوجه للطبيب حالا » لم أعلق على كلامها ، كنت أعلم أنني لست مريضا ولست سليما . لو كانت تستطيع أن تفهم ، ولو كنت أستطيع أن أعبر ، لقلت لها إني أوجد في وسط ما ، معدل وهمي ، بين الصحة والمرض .

صباح اثنين غادرت الفراش متوجها إلى الإدارة. في منتصف الطريق اعتراني تثاقل لا يكاد يقهر . رغبة جارفة في أن أعود إلى فراشي ، أقاوم الرغبة لأنني لست مريضا بالمعنى الصحيح ، ومع ذلك أجدها تتعاظم . كنت قد مكثت في فراشي من ظهر السبت . عائشة صادقة بدون شك ، فيما قالت من أن الفراش يعلم الكسل ، اقتنعت بأنني مجرد كسول متكاسل ، مع ذلك ، تجاوزت باب الإدارة ذهابا وإياباً دون أن أدخل . لا أستطيع أن أدخل . ملأت خاطري ذكرى مقاومة مماثلة للدخول ، اخبرتها يوما وأنا أجاهد ما بي عبثا ، لألج مركزاً للشرطة . أخيراً مر بي أحدهم ، تساءل عن علة وقوفي . . . جرني من

يدي ودخلنا دون أن أنبس بحرف .

* * *

المكان يوحي بأنه محكمة وادارة مألوفة . على منبر كالبار تصطف عدة برتقالات تمثل رؤوس القضاة . يدان قويتان تمسكانني من الخلف . رجاء منفوشة الشعر ، منثورة الأطراف ، اختلطت في وجهها الأصباغ ، تنهض لاعنة تسب وتشتم وتشير نحوي باصبع العداء ، اعتديت عليها بلا سبب ، انتهكت حرمتها ، هتكت عرضها بوحشية . تتقدم نحوي وأنا عاري الوجه ممسوك من الوراء . . . قدم بحذاء لماع أسود ، وكتفان تلمع عليهما أزرار صفراء في بقعة زرقاء . . . وتتقد نجوم أمام ناظري بفعل صفعتين مفاجئتين مترادفتين وأنز بولا . . .

أفقت . وجدت فراشي مبللا بالفعل . لم أنكر أمري على عائشة ، ولم يعترني أي خجل من تبلل الفراش ، وقد عجبت من نفسي فيما بعد كيف وجدت الأمر طبيعيا . بدأ القلق على عائشة ، وتشبثت بأن أعرض نفسي على طبيب . هونت عليها الأمر وفسرته ببرودة عادية تكون قد تسربت إلى مسالكي اليومية ، ووعدتها بأن أعرض نفسي على الطبيب إذا تكرر ذلك . لم يتكرر الأمر ومع ذلك توجهت إلى الطبيب . . . أقرب طبيب إلي . . . مشطور الإرادة بين تيار يدفع وتيار يقاوم . قلت له باختصار إنني أريد عطلة مرضية لمدة أسبوع . . .

كنت يومذاك قد تسلمت مذكرة تنبىء بأن وفداً أجنبياً هاما ، سيحل بعد يومين وعلي أن أرافقه صحبة المساعدة رجاء ، آثرت التمارض . عائشة تقوم كعادتها بكل ما يلزم ، زارتنا زهروية بالصدفة كما ادعت ، وأعتقد أن عائشة توجهت إليها وأعلمتها ، بدت لي زهروية هلعة أول الأمر لكن استجابتي طمأنتها على حالي . قضت عندنا ليلتين لم تنفك أثناءها تنصحني بضرورة مغادرة الفراش . لكنني كنت أشعر بارتياح شبيه بالتخدير ، وأنا ملفوف في الغطاء على السرير . شعور من الصعب مقاومته والتضحية به . ومن ثم أقنعت الجميع بأنني ما دمت في

عطلة مرض ، فيجب أن ألزم الفراش تحسبا لما يمكن ان تقوم به الإدارة من فحص طبي مضاد ، فتبعث لي بطبيبها الخاص . الحجة قانونية وعملية ، أفهمت زهروية وعائشة ،بـل اقنعتني أنا أيضا ! ولا أدري لماذا لم أنتبه إليها قبل الآن ، ولا كيف اهديت إليها في هذه اللحظة بالذات ؟ كلما أشرف موعد العطلة المرضية على الانتهاء ، كلما زاد شعوري بالقلق ، زارني عدة أصدقاء ، كان من بينهم حميد ومسعودي . كرهت جداً هذه الزيارة . شعرت بكراهية تنمو إزاء عطلة المرض إذا كانت ستسبب لي زيارات . جلست معهم أكثر من ساعة . سألوني عن المرض أسئلة متنوعة . شكوت من آلام وهمية ، واستعرضت أطباء اختصاصيين . مسعودي قال : (لا طبيب ولا يحزنون... اخرج يا أخي ، تنزه . سافر . غيرالجو..) ليتهم يخرجون . يخرجون فقط لا غير ، ويتركونني في الفراش ! ذكر أحدهم صدفة أو عمداً زيارة الوفد الاجنبي الأخير ، الذي كان مقدراً أن أرافقه ، ارتعبت ، كأن قوة تدفعني رغما عني للتجول في مكان جريمة اقترفتها . طبعا ذكروا رجاء ، وأنها صاحبت الوفد مع مساعد آخر... بدأت أتململ بوضوح . ألسنتهم كالمشارط في هذا الموضوع بالذات .. وأظن أنني تأوهت بصوت مسموع انتبهوا له ، فذكرت ألما خاطفا في الظهر...

لامتني عائشة على سلوكي وشعوري إزاء الأصدقاء الزائرين . نهرتها بعنف ، اعتذرت عنه في الحين بأساليب متنوعة ، جعلتها تهون علي وأنا مستمر في اعتذاراتي . تقول إنها امرأتي وعلي أن أنهرها . وكل زوج ينهر زوجته ثم هي أول مرة يحدث فيها ذلك بيننا... كانت كمن يغذي النار بالزيت ، أحسست بذنبي الكبير إزاءها . مثلها لا يستحق الانتهار . مثلها يستحق أن يعبد من مثلي... هي الطيبة الطيعة المضحية ، أحسست بذنبي إزاء الأولاد والإخوة ، لماذا لا أكاتب محمداً ولا أزور عبدالله ؟ ذنبي إزاء زهروية أيضا أكبر ، لم لا أقصدها كل جمعة ، أو كل يوم أتبرك بها... حتى قبر الوالد قد نسيته ، لا أزوره ولا أترحم... ولا أتصدق عليه بقرآن أو إحسان ، ولا أرش قبره بماء

الزهر . ثقل كبير جثم فوق صدري ، من كل جانب عائشة ترد على كل ذلك بوقائع تريد أن تقنعني عن طريقها ، بأنني وفي ودود . . . تحاول ، لكني أعرف محاولاتها ، أعرف أنها تقوم بذلك شفقة علي ووفاء بواجبها . . . تريد سلامة زوجها ، لها ولأولادها . . ولعلها في عمقها تعتقد أنني كما أقول ، لا كما تريد ، بل أنا متيقن من ذلك ومتيقن من أن حالي تتجاوز ما أقول . . . غلبتها على أمرها . . . صممت فيها الحجج والمقاومة . توقفت عن صب الزيت على النار ، وظلت النار تلتهمني مغذية نفسها بنفسها ، تدفع ألسنتها اللاهبة نحو الأعالي ، وتركز جمرها في الأعماق . . . أخيراً انخرطت في بكاء مرير .

***

فتح باب المكتب أطل مسعودي برأسه مبتسما مرحا ، سلم وتراجع يهم باغلاق الباب . لكنه تردد وتساءل إن كان بإمكانه أن يدخل . فهمت مزاحه الرائق خاصة بعد انتقاله إلى قسم الحسابات والتجهيز ، بترقية لا بأس بها . سألت من جديد عن عمله . أظهر سروره ، لكنه استدرك متحفظاً ، في رأيه أن كل وظيفة مهما سمت وارتقت ، لا يمكن أن تؤدي الى العيش الكريم ، أو الغنى المطلوب ، الموظف دائما أجير ، لكن التجارة ميدان فسيح للكسب الحقيقي . لأكثر من مرة يكرر رأيه هذا ، أعلم أنه سيتبعه بأن يؤكد أنه يتمنى ، أن يجد طريقه إلى التجارة يوما ما . لكنه لم يؤكد أمنيته ، وإنما أخبرني بأنه بالفعل بدأ يمارس التجارة على مستوى بسيط وغير منظم ، ولكنها مع ذلك مربحة بعض الشيء ، كنت استمع اليه بكسل أو إهمال ، لاحظ ذلك وقال : لنرجع إلى المهم . كان يحمل ملفا فتحه وعرض أمامي عدة فواتير . تساءلت . قال اقرأ ، قرأت وأعدت . في أعلى الأوراق أسماء فنادق ، وفي أسفلها بيانات بمصاريف للإقامة والمبيت . فهمت ولم أفهم . من التواريخ والمصدر ، وبيانات اخرى متنوعة ، هي فواتير زيارات بعض وفود رافقتها أو نظمت جولاتها . . . وعليها توقيعي .

لكنها لم تعد من اختصاصي ، بعد أن وقعت عليها لأصحابها في وقتها المناسب . كأنه أدرك حيرتي . طمأنني ، أطلق ملفه وقال ، بأن مبالغ كهذه . . . حرام والله حرام أن يتمتع بها أصحاب الفنادق والمطاعم وشركاتهم ، التي لا تحتاج إلى مزيد من الثروة . . . وكل هذا بخط بسيط ملتوي اسمه أحمد بن الحاج مهدي . . . ماذا يعني ؟ نظر إلي بإمعان وقال كالهامس : تصور غيرك يوقع . . . ماذا يساوي التوقيع ؟ هززت رأسي بلا مبالاة . الأمور هكذا . لا بد أن يتحمل أحدنا مسؤولية التوقيع . . . لم يغب عنه تجاهلي فهجم على الموضوع . التجارة تقول: لكل شيء ثمن . ولكل توقيع ثمن . هذا هو القانون والعرف . من يوقع بهذا الحياد ؟ الملائكة قد تفعل هذا وقد لا تفعل ! وطفق يذكر وقائع سمعتها كالشائعات أو تخيلتها . . .

أحسست بالموضوع يثير توتري ، طلبت منه أن يكف . . ولكنه تابع كالممسوس . التجارة تغني في بلدنا . وهناك شيء آخر أو أشياء كثيرة . تغنيني أيضا : أثمان التوقيعات . . . التوقيعات على الفراغ . . تجارة العلاقات .

أنذرته . يجب أن يسكت أو يخرج . . وأكثر من ذلك أنذرته من نتائج هذا التفكير . صادق على رأيي أو أظهر أنه يصدق ، وعاد يحدثني عن مشاريعه التجارية الصغرى .

* * *

كلما مددت إجازة المرض . . كلما اقترب هذا التمديد من نهايته ، زاد شعوري باستياء حالتي . راحتي في الفراش والغطاء . زهروية أصبحت لا تكاد تفارقنا . انتهت فترة النقاش والتساؤل ، وعائشة لا يهمها أكثر من أن تلبي طلباتي . زهروية كفت عن نعيبها حول فراشي أن سيكون مصيري هو مصير الحاج مهدي . كنت أشعر أني صادق النية في أن أخرج من حالتي . . . أخرج للشارع والإدارة ولكن المانع كان أقوى . حتى ضوء الخارج أصبح يؤذيني ويقلق راحتي

نـافذة الغـرفة أضحت مغلقـة باستمـرار . لا أطيق الـظلام ، لكن نـور المصباح يريحني . لم يكن يزعجني في الفراش إلا خاطر غامض بأنني هنـا في حـالة مؤقتـة . . . في انتظار شيء أكـره ما فيـه أنه قـد يجعلني أغـادر الفـراش . ذكرت الحلم لـزهرويـة وعائشـة . قلت لهـما إنني رأيت نـاراً عظيمة تلتهم الشقـة بما فيهـا . . . نار تنبعث من بـطني وفراشي وتلتهم كل شيء . أيادٍ تلوح لي خلف اللهيب كأنها تريد انتشالي من النيـران لكنها لا تصل . . . تعوذت زهروية بالله . وتلفتت حـواليها . وقـالت إن النار تعني (المخزن) . . . مصيبة . . . الله يلطف . . وافق ذلك مـا في نفسي من شعـور بأنني في حـالة مؤقتـة بانتـظار شيء سيحدث ، أشعـر بقدرتي على التحليل قوية أو أقوى . الثغرات في حياتي كثيرة ، ولا يتعب أي محـاكم نفسه في العثـور عليها . . . وأنـا لا أستطيـع أن أنكرهـا ولا أتحمـل كذبـا أو إنكاراً . . . والشـواهد ثـابتة . . . وأخيـرا تأتي عـلاقتي برجاء متوجة سلسلة الجنايات . وما الجناية ؟ ما الجريمة ؟ هل هي الفعل المـادي بالضـرورة ؟ يجب أن يتسع القـانون ـ وهـو حتما متسـع ـ ليدرج الإساءات والنوايا الخبيثة في أحكام الجرائم . لماذا اعترضت طريق رجاء أنبش دفين حاضرها وماضيها ، وأعمق فيه الجراح والآلام ؟ قبل ذلك ، اعترضت طريق فطومة بنفس الصـورة ، فقضيت على هنـائها أولاً ، ثم على وجودها وجنينها ، وعلى الحاج مهدي الذي ما زال يردد في الحلم أن الله يرضي علي . ما الذي أدى به إلى نهايته مبـاشرة ؟ إذا كـان القانـون قانوناً حقاً فيجب أن يمتد إلي . لكن أنى له أن ينبش في الماضي ويكشف إذا لم أعترف . ولن أعترف لأنني يجب ان أبقى معذباً بذنوبي أطول وأعمق ما يمكن . علاقتي برجاء . . انتهاكي لحرمة سعادتها صك اتهام قوي راهن . . . إذا قبضوا علي فسأؤدي ثمن الماضي والمستقبل . لست خائفاً من أداء الثمن . على العكس من ذلك ، أريد ان أؤديه بالطريقة العادلة التي تناسب أفعالي وتكون في حجم قسوتها وقوتها إذا قبضوا علي ، فلن تتاح لي الفرصة . فهمت : خوفي إذن من الخروج ومن رموز الشرطة والحبس ، هو إذن خوف ممن يعوقني عن أداء الثمن . وفهمت

إذن لماذا كانت راحتي في الفراش وإغلاق النوافذ ، حتى لا يشي أدنى شيء بوجودي . أنا إذن محافظ على شرفي ، ولا أزال عادلاً ما دمت أعاقب نفسي بنفسي ، وأجاهد حتى لا أفلت من العقاب بالوقوع تحت طائلة المحاكمة والقانون . . لو صببت هذه الأفكار في رأس زهروية أو عائشة ـ ماذا تقول ؟ ستدافع عني وتدافع كما يقتضي دور الأم الحنون والزوج الوفية . فضلت أن أفضي الى عائشة بسبب مقعول . . أجهدت نفسي كي أعثر عليه . . تعبت واحترت في البداية طيلة أيام . . ثم اهتديت اليه فجأة بعد يأس ، ولم أجد فيه مجرد سبب مصطنع بل كان واقعة مؤكدة في طريقها إلى ان تحدث ، إن لم تكن حدثت فعلا .

طلبت من عائشة أن تفهمني وتحتفظ بالسر . أقسمت على ذلك . فذكرت لها التلاعب الحاصل بأموال الادارة والاختلاسات والتزويرات التي يمارسها مسعودي وحميد ، وعلاقتي البريئة بهما في الماضي والحاضر كأصدقاء ، وكيف أن كل ذلك سيمسني حتما . . . ومن ثم فابتعادي عن العمل الآن ، وغيابي عن الادارة يمكن أن ينجيني من الشبهات !

رسالة مما وراء البحر ، وتذكرة سفر بالطائرة من أخي محمد ، يدعوني الى رحلة للخارج أتنفس فيها هواء جديدا . يحدثني عن الحرية والانطلاق . . يراهن على أنني أشفى بمجرد أن تطأ قدمي أرض الحرية . وقفت عائشة وزهروية إلى جانب الدعوة . قدم عبد الله أيضا . فقد استلم رسالة تخبره بالموضوع وعليه أن يشجعني . لا بد إذن من سفري . وجدت عائشة فرصتها لتقول لي إن الفرصة سانحة إن كنت حقا أرغب في أن أفلت من شبكة البحث والتحري ، وأبتعد عن مسرح الجنايات ، وما قد يلحقني بسبب علاقتي بمسعودي وحميد . رغم اقتناعي بوجاهة العرض والحجة لم أكن قادراً على مغادرة الفراش والخروج . لو كان خروجي إلى المطار مباشرة للبيت الرغبة ، أو على الأقل أشعر بأنني كنت كفيلا بأن البيها ، لكن ثم اجراءات كثيرة في اعداد الجواز مثلا (قلت ذلك لعائشة وحدها) . عبدالله ومحمد يساعدان منذ مدة على مصاريف الأسرة . زهروية تتكفل بقضاء الحاجيات الخارجية . عائشة لا تفارقني ليلا ولا نهاراً . قلت لعائشة .

قلت لها كالمستسلم إنني بالعربي الفصيح لا أستطيع أن أتحمل إجـراءات السفـر . . . قلت لها لـو أن الطائـرة تحط في الفراش ، وتـطير بي إلى مـا وراء البحـر ، لما تـرددت ، ولكن اجـراءات الجـواز وبحث الشـرطـة والسلطة ، والتـردد هنا وهنـاك شيء فوق احتمـالي . . . مستحيل . . . عبدالله ضد كل هذه الخزعبلات حسب تعبيـره . . . إنه لا يعـاني معي عمق المانع كما تعانيه عائشة . . . يجب أن أسافر ، يعني يجب أن أسافـر والسـلام . هذا رأيـه . تدخلت عـائشة لتقـول : خلوه حتى يعملها من رأسه « عبد الله يستنكر : ومتى ؟ »

زهروية بنغمة أخرى :

ـ يا الله يا وليدي . الله يرضى عليك .

الحاج مهدي في الحلم :

ـ كن رجلاً وقم . الله يرضى عليك .

خاطر مبعثر من داخلي :

ـ ولم لا تكون لك إرادة الرجال ، وتجاهد مواجها أعـظم الأخطار (لو صحت) في سبيل جواز تكون بعده الفرحة والحرية والسعادة ؟

إرادة متقاعسة مني تقول :

ـ إنما أنتم حسدة ، اتركوه يستريح في فـراشه مـادام هذا يـريحه ، شفـاؤه الفراش ، والمريض أدرى بحالـه ، أم أنكم تستعجلون قيـامـه لتعود دابة الساقية إلى دورانها المعهود ، تثمر رزقا ؟

في هـذه الحـال يمكن لخبيث يعـرف طـوايـاكم ، أن يعتمـد كـل أصناف المرض ، ليظل طريح الفراش ويستريح من دوران الساقية .

* * *

تماماً ، حدث كما كنت أتصـوره من قبل . تمـاما تمـاما . وجـدتني عـلى بعد أمتـار من باب الإدارة . أتـردد بين أن أدخـل أو أتجاوز . عـادة عـرفتها في نفسي منـذ اعتـلالي . تتعـثر بي الخـطى أمـام مبنى الإدارة ، لتقودني إلى الطبيب لتمديد الإجازة من جديد أو العودة إلى الفراش ، ان

كانت لا تزال فيها بقية، لكن الواقعة حدثت تماما كما كنت أتصورها وأصورها لعائشة . أمام مبنى الإدارة وأنا على خطوات أتردد ، توقفت الفاركونيت فجأة ، ونزل منها شرطي تبعه ثان وثالث . وليت الادبار . توقفت عند سارية كبيرة مختفيا بضخامتها . اتكأت عليها . وظللت بنصف إطلالة أرقب الموقف ، لم يطل بي الأمر وإن طالت فعلا بي مشاعري . خرج رجال الشرطة يقودون أربعة أشخاص من داخل الإدارة ، بينهم حميد ومسعودي مكبلين . هتفت بعائشة : ألم أقل لك ؟ أيقظتني . وجدتها بجانبي على الفراش ، يداي ممسكتان بحافة السرير ، سألتني عما أزعجني ، عما شاهدت . أنكرت . مسحت العرق المتصبب من وجهي ورقبتي ، طلبت منها أن تترك المصباح مشتعلا . وأن تنام .

* * *

اللعنة على الصغار والكبار . . . على العافية والمرض . . على الجرأة والخوف . . . اللعنة على مهدي الصغير . لأول مرة نهرته وأظن أنني لمست خده بصفعة أحسست لها حرارة في كفي . ندمت عليها ، وأنبت نفسي كثيرا . لكنه كان ظالما . كان البادىء بالظلم ، ولا يمكن أن يكون حديثه عفويا . كان واعيا وله قصد معين . طلب مني حكاية ، قال انه سمع حكايةأعجبته من جدته زهروية. . .قال إنه تابع حكاية في كتيب مصور للأطفال او في التلفاز ، لا أدري بالضبط . . . لكنه تطوع بحكاية وطلب حكاية . ذهني كان مشتتاً رغم أنني كنت مرتاحا لم أغادر فراشي منذ أيام . مع ذلك كان ذهني أبعد من أن ينسج حكاية مهما بلغت تفاهتها . أغريه بكل اللعب ليتركني ، ليلاعب إخوته لكن عبثاً . يريد حكاية ، قلت له إنني مثله أريد حكاية . تطوع ليحكي ، ليكون البادىء . . . البادىء بالظلم ، لا بد أنه كان محضرا نفسه ، واعياً لما يفصل ، أو كان يغامر من أجل اكتشاف شيء ما . تطوع ، قال : « كانت بسبس قطة جميلة منقطة بالأسود والأبيض ، لها ثلاثة أولاد تحبهم كثيرا . وكانت تخاف من الخروج خوفاً شديداً . وتفضل أن تظل مستريحة . . ! » صفعته قبل أن أعي ما

أفعل ، نهرته بعد ذلك ، شعرت بأنني لا أعرف كيف أبرر لـه موقفي ، قـد يكـون متخـابثـا واعيـا لمـا يقـول ، وقـد لا يكـون ، اشفعت ذلـك باعتذاري . . . . ربما بالغت في الاعتذار لكنني لم أصل إلى حالة ترضيني بعـد ذلك . تسـاءلت عائشـة عن السبب، لم أشرح لهـا ، ولا شك أنـه سيخبرها بالأمر . سخطت على كل شيء،اللعنة عـلى كل شيء حـولي ، مـا كنت أنتظر ولا أتمنى يـوما أرفـع فيـه يـدي عـلى أحـد من أولادي . ارتعبت من نفسي من عدة وجوه ، كـأني اكتشفت الحاج مهـدي بلحمه ثـاوياً ينتـظر فرصـة الظهـور . . . كأني وجـدت نفسي عاريـا رغم كـل الأغـطية أمـام الصغار ، فكيف الحـال بالكبـار . . . ؟ اكثر من ذلـك ، شعرت كأنني عار أمام نفسي بالذات . . . ناديت عائشة وطلبت منها أن تعد لي أدوات الحلاقة وماء دافئاً . سأخرج لإنهاء أمر الجواز . . . يد من وراء البحـر تلوح لي بمـنـديـل أبيض . . . أخضـر . . . يجب أن أتنفس هواء نقيا . تأملت تذكرة السفر ، ورنـوت الى الطائر الأبيض المحلق في الأجواء ، يعبر عالم السجن المتكاثف ، في خط مستقيم .

* * *

قال الراوي : في ليلة صيف مقمرة ، وعلى إحـدى شرفـات قصر شهراموش المطلة على الحدائق والأحراش الممتدة إلى مالا نهايـة ، وحيث يعم مملكة الانسان والحيوان أمن وسلام شامل، انعقد مجلس خصوصي محدود ، ضم شهرامـوش والأميرة الكبيـرة بيروز ، وبعض الأطفـال من أمراء المائة على رأسهم الأمـير بدر الـزمان . دار الحـديث هادئـا ناعـماً . سـأل شهرامـوش الحاضـرين من أمراء المـائة عن بعض مـا يتعلمـون . نـاقشهم ، واستمـع إلى محفـوظـاتهم وإبـداعـاتهم في الأدب والمـوسيقى ومختلف الحرف والصنائع ، كان شهراموش في غـاية السـرور مما يـرى ، شفيت نفسه من كل أنانية حتى أنانية الأبوة . فقد فرح بتقدم أطفاله كـما لو كان أبا لهم جميعا على قدم المساواة ذكوراً واناثا . . . وقد شفيت نفسه قبل ذلك من أسقام وعلل أخرى كثيرة . وبعد العشاء مباشـرة ، صرف الأطفـال لنومهم ، وبعـد استئذان بيـروز في الانصـراف ، ظـل روزبـاه

الحكيم رأساً لرأس مع شهراموش ، كان هذا اللقاء بعد أسبوع من أحد مجالس الدولة الهامة التي عرضت فيها تقارير أصحاب المناصب ، حول الأخطار التي تهدد كغاشي . . . وقد توجه كل من مراقادو وزاهور على رأس وفود ، إلى بلدان التراجان والرهبوت والفلنجة لتوطيد الروابط بأحسن السبل والوسائل كما مر . . .

قال . . . كانت فرصة للرجلين لكي يفضي كل منهما للآخر ، بما لا يزال يقض مضجعه من هموم أو وساوس ، تحدث شهراموش لحكيمه عن همومه المتعلقة بمطامع أصحاب المناصب ومكائدهم ، ومعاكستهم الخفية التي يعرفها ويتغاضى عنها ، والرامية إلى عرقلة مفعول كل القوانين العادلة في كغاشي ، وتعجب من السر الذي يجعل راعيا بسيطا كمراقادو، ومروضا للوحوش مثل زاهور ، يستجيبان بطواعية لسبيل الفضيلة والخير ، وينأى عن ذلك أصحاب المناصب وغيرهم من أهل النظر والعلم ، وكيف أن الزمان لا يزيدهم الا تماديا في التلبس بالشرور ، والتخفي عليها ، وإظهار ما يخالف نواياهم . أبان شهراموش عن هاجسه في أن يتم إصلاح الأحوال ، وسيادة الفضائل في عهده ، حتى يطمئن لجهوده ، وأنه لا يود أن يسلك سبيل القتل في تثبيت الفضائل لأن ذلك ، لن يزيد إلا في تأصيل النفاق والتستر على السر ، حتى تأتي فرصة انفجاره ليعم بلاؤه . . . وأنه لولا التجلد ، ولولا تجربته الخاصة في هذا الطريق ، وما يراه من نتائج في جيل المستقبل من أمراء المائة ، وحيوانات مراقادو وزاهور . ليئس من الطبيعة البشرية ، وما أسهل العودة إلى قديمه لو استسلم لليأس .

قال الراوي . . . كان روزباه يشاطر شهراموش كل آرائه ، إلا انه كان حصينا حصيناً ضد اليأس والشك . وقد وجد الفرصة ليفشي بسره الأكبر إلى صاحبه . قال روزباه الحكيم :

اعلم يا صديقي ، أنني منذ سنوات ، قد جندت بعض تلاميذي وأصدقائي ، للبحث عن حل لانتاج الملح بطريق اصطناعي بمزج بعض

المركبات الرخيصة ، وقد حصلنا على نتائج ، لكنها غير مرضية لحد الآن ، لأن العناصر المتفاعلة مكلفة أكثر بكثير من العمل في المناجم . . . . فلو فرضنا اننا نجحنا في هذا السبيل ، لحررنا كغاشي والعالم كله ، بأن نجعل الملح مشاعا بأرخص تكلفة ، ويعود كل الناس إلى حقولهم وتغيب إلى غير رجعة تلك التهديدات المستمرة بحروب الملح وما يرتبط بها من مصالح . . .

قال . . . سر شهراموش سروراً عظيما بما سمع ، ودهش لتأخر صديقه الحكيم في إخباره بهذه الجهود قبل الآن ، وكان تأخر روزباه في إخبار شهراموش بمشروعه ، واخفاؤه لحد الآن تبرره دواع عديدة ، منها أن المشروع لم يصل إلى نتيجة مرضية لحد ذلك الوقت ، فكان روزباه يدخره بشارة خير يفاجىء بها صديقه ، ومنها خوفه من ذيوع السر قبل الأوان بطريقة ما ، فتعمل الدسائس على إفشاله .

قال الراوي . . . اتفق الرجلان على تقرير خطورة المشروع وضرورته . وأبدى روزباه رغبته في أن يتفرغ له بصفة نهائية . فيختفي عن الأنظار بعلة أنه عاد ليعتكف في جبله كما كان قديما ، بينما طلب من شهراموش ان يساعده بالأموال اللازمة لبناء وتجهيز مخزن[1] تحت الأرض لإجراء ابحاث وتجارب مكثفة لانجاز المشروع .

قال الراوي . . . منذ تلك الليلة لم تقع عين أحد على روزباه ، فقد اختفى دون أن يعلم أحد على وجه الأرض غير شهراموش ، بسبب ذلك .

وكان جماعة العاملين معه في المخزن ، قاطنين به متفرغين له : ولم يكن أحد يعلم بمكان المخزن غير شهراموش . فحتى بناته وحفاده اختيروا من ذوي الثقة وممن بإمكانهم أن يستمروا في العمل بالمخزن وخدمة العاملين به ، وكان على هؤلاء تدبير تموين المخزن من المواد الغذائية والعلمية ، وغيرها كلما احتاج إلى ذلك بكل حيطة وحذر .

---

(١) المقصود : مختبر أو ما يشبهه .

وكان شهراموش يتوجه الى المخزن بين الحين والآخر ، لتفقد الأعمال ، والاستئناس بصديقه الحكيم . قال . . . وكان شهراموش يعود بعد كل زيارة أكثر تفاؤلا وابتهاجا من نتائج الأبحاث المبشرة بقرب الفرج .



قال الراوي . . .

كانت زيارات شهراموش للمخزن عادية ، لا تثير تساؤلاً لدى العاملين به أو لدى الحكيم روزباه ، بيد أنها الآن أثارت أكثر من تساؤل عند روزباه بالذات . فملامح شهراموش غير عادية ، ولم يمر على زيارته الأخيرة اكثر من يومين أو ثلاثة . لم يرد روزباه مع ذلك أن يبادر صديقه بإظهار تعجبه من زيارته ، بل رحب به كالعادة ، وانتظر أن يفصح بذاته عما في نفسه .

قال . . . ولم يطل الأمر ، فما كاد شهراموش يستقر في مجلس بغرفة روزباه التي ينفردان فيها بالمخزن ، حتى بدأ حديثه :

قال الراوي . . . خرج الأمير بدر الزمان والأميرة ميكاري في جولة لهما في الأحراش كعادتهما . . . تناشدا الاشعار وغنيا . . . تفقدا حيواناتها وداعبا كلا منها حسب حالته ، وتوقفا يستريحان في مكانهما المألوف ، عند حافة البحيرة الكبيرة يتمتعان بمنظر اسماكها العجيبة ذات الاشكال والالوان العديدة . . . وبينما هما كذلك اذ تناهى إليهما صوت غريب يهن مرة ويشتد أخرى . حاولا أن يتبينا طبيعته. لم يكن عواء ولا زئيراً ، لم يكن أنينا ولا غناء . . لم يكن صوتا مألوفاً في طبيعته ولا في معناه . . . قاما واتجها نحو احراش الطرف الآخر للبحيرة ، نحو مصدر الصوت . . كان الصوت يخفت ليشتد ويشتد ليخفت . . . تتبعا مصدره فترة وهما يسيران نحوه . تبينا أنه يتحرك متباعداً عنهما وربما يتوقف ليتحرك . أسرعا كثيرا ، ولكن الوضع لم يتغير : نفس الصوت على نفس البعد تقريبا . . . . لم ييأسا مع ذلك وضاعفا من سرعتهما بين الاحراش . . . وإذا بهما يهاجمان . . . دببة ؟ أسود ؟ قرود ؟ . . لم يتبينا شيئا . . . فوجئا وذهلا عن نفسيهما في غمرة المفاجأة . . . عملت

المخالب في جسميهما ، وارتسمت في نظراتهما المذعورة أشباح ذوات فراء كثيفة بعدوانية ووحشية لا تصدق . أما ما تقدحه العيون من شرر وما تتقاطر به الأنياب من شهوة الافتراس، فقد غابا له عن الوجود. . .ولم يفيقا إلا وهما على سريرين متجاورين في القصر ، تحيط بهما قلوب هلعة ، الأميرة الكبيرة بيروز ، وشهراموش وزملاؤهما . . . كانت الحمى والكوابيس تأخذ بخناقهما ، يفيقان ليغيبا من جديد . . . وكانت تلك أول تجربة لهما مع الخوف وما شئت من حمى واحلام مزعجة . . . ومع معاناة العدوان فجسماهما في حالة يرثى لها من آثار المخالب الوحشية . . . قال . . . كان غياب الأميرين قد طال أكثر من المعتاد عندما توجه فريق من زملائهما في أثرهما بالقناديل ، وعلى رأسهما زاهور المروض . . . وكان طريق نزهتهما المعتاد معروفا ، إلا أن مسالكهما اليوم كانت غير عادية فلم يعثروا عليهما إلا بعد جهد جهيد مرميين على الأرض يئنان من جراحهما . . . قال . . . عادوا بالأميرين محمولين بينما استمر زاهور في بحثه وراء الوحوش الغادرة. . .

وما كاد الخبر يسري في القصور ، حتى هبت بيروز في هلع ، واقبل الأطباء . . . اما شهراموش فكان المشكل أكبر من أن يفهمه . . لم يحدث مثل هذا للأمير ، ولا لغيره وهم الذين حبوا ودرجوا بين حيوانات زاهور ، فيكف وهم فتيان ؟ أيكون إهمالاً من زاهور ومراقادو أم إخفاقاً ؟ وأي حيوان يفعل هذا ؟ ولماذا لم يفترسهما ؟ أسئلة لا حصر لها في جميع الأذهان وكان شهراموش يسأل بين الحين والآخر عن زاهور فلا يجده ، لأنه لم يعد بعد . . . بينما مراقادو مبعوث في مهمة . . . وأخيراً عاد زاهور يلهث ، وقبل أن يستقر في مكانه ، ذكر ما وقع ، فلقد تابع زاهور طريقه في البحث بمساعدة ما اجتمع حوله من حيوانات . . . وانتهى فجأة ليجد مشهدا غريبا : كنجان ضخم الأسود ، يربض فوق شخص وقد صرعهما معا اكثر من سهم . . . . وكان الشخص المجهول يرتدي فوق ثيابه فروا في أعلاه قناع رأس بملامح لا تنسب لأي حيوان

معروف ، وفي أطرافه مخالب قوية ، وكان من السهل تفسير المشهد كما فهمه زاهور . . . فقد سمع كنجان استغاثة الأميرين ، او كان قريبا منهما ، فأسرع وفاجأ المهاجمين الذين كانوا جماعة ، متخفين بأشكال حيوانات غريبة ، ففروا ، وتبعهم كنجان ولعله حاصر أحدهم على الأقل ثم هجم عليه ، دون أن يؤذيه. عندما رأى منه حركة مريبة ، فأناخ عليه بجسمه الضخم ليشل حركته . . . وعندما رأى الآخرون ما حدث ، سددوا سهامهم نحو كنجان فأصابوه في عدة مقاتل ، وأصابوا صاحبهم أيضا ربما عن عمد ، بعد أن رأود تحت هيكل كنجان الضخم ، حتى لا يفشى السر .

قال . . . أنهى شهراموش حديثه واستغرق الصديقان في تفكير عميق . كان واضحاً أن الحادثة مؤامرة ليس من أهدافها النيل من بدر الزمان بالذات بالاعتداء عليه او اختطافه . . . ولكن الهدف الحقيقي الواضح لها هو الأعمق . . . لقد افسد الأسد كنجان الخطة كلها ، عندما هاجم المعتدين وساعد بالدليل الذي لا يدحض على فضح خطتهم ، كان المهاجمون يهدفون إلى تصوير الاعتداء على الأميرين على أنه اعتداء من حيوانات الغابة ، وبالتالي على أنه فشل لعمل زاهور ومراقادو. . . فشل لمشروع الحكيم برمته ، وتأليب شهراموش عليه . . وارتداده عن العمل كله عندما يرى النتيجة في فلذة كبده بالذات . . .

ولو بقي أسير كنجان حياً لعرف المعتدون الحقيقيون والمخططون ، أما والأمر غير ذلك فلا ترى غير الشكوك . . .

قال شهراموش : إنهم يعملون بسرعة ولن يتوقفوا . . . لم يجب روزباه ، ولكن ملامحه كانت مؤيدة لاستنتاج شهراموش . قام الصديقان ، سار روزباه مرافق شهراموش نحو مدخل المخزن ليودعه . وعند الباب وضع شهرمواش يده على كتف روزباه وقال بابتسام :

اعلم يا صديقي أنني لم أحمل معي ذلك الخبر السيىء وحده ، بل عندي لك بعض البشائر : وفودنا كلها عادت ناجحة في مساعيها . فلا

حرب على المدى القريب على الأقل ، وقد قبلت أغلب البلدان أن ترسل لنا عمالا لمناجمنا .

ظهر البشر على محيا روزباه . وقال ، هذا جميل ، ولعله مما أذكى النيران في جوف الأعداء فخرجوا بخطتهم تلك ، وسيخرجون بغيرها .

أومأ شهراموش موافقا ، ومد يده لصاحبه مودعا حين قال روزباه : وعندي لك بشرى أيضا فلم يبق إلا قليل على إتمام الكشف العظيم ، قليل جدا . . .

* * *

أخطو متثاقلاً ، ثقل الرصاص يشدني الى الأرض وملء ركبتي كتلة ماء . أتحرك متثاقلاً ضد رغبة جامحة في التراجع ، صورة قطة مرقطة تدفعني ، واللعنة على اليد والرجل والصغار والكبار . . الهواء في كثافة ماء بركة راكدة . أدافع وفي كل ركن إحساس بالمغامرة ، انتفضت على صوت يسأل كم الساعة ؟ نظر إليَّ الرجل مبهوتاً من انتفاضتي ، تمالكت نفسي وأجبته ، فاندفع في اتجاهه يردد سبحانك اللهم . . . على مبعدة أمتار معدودات من المقاطعة، توقفت ألتقط أفكاري . . . . على الباب الحديدي الكبير ، بدا لي الحارس المسلح يقطع مسافة العرض جيئة وذهاباً . حمالة رشاشة على كتفه ، يتأبط الموت ، ويده على المقبض قرب الزناد . الناس في دخول وخروج لا يعبأون بالموت الرابض في جوف الرشاش . استطعت ان أضحك في أعماقي من فكرة الموت هذه ، أحسست بالفعل بأنني أتحسن وأستطيع أن أتقدم . قرب الباب ، خففت خطوي ورنوت بنظرة جانبية الى الفوهة المظلمة الصغيرة ، والحارس لا يعبأ بما يحمل ، قلت في نفسي . . . لو يخطىء وينسى نفسه فيضغط على الزناد . . . . فيمتد لسان الفوهة رفيعاً سريعاً ملعلعاً ، واستدركت ، انهم بلا شك اتخذوا احتياطات مناسبة ، حتى لا يؤدي أي نسيان الى خروج الرصاص دون قصد . تخطيت الباب والحارس يزرع المسافة يميناً وشمالاً . وجدتني في ساحة كبيرة عارية بعضها

مبلط ، وبعضها بتراب مدكوك ، تتوسطها نجمة خماسية من العشب ، وفي المركز منها ينتصب عمود يحمل العلم . شعرت بحساسيتي تنعدم ، تستحيل الى برودة لا مبالية ، سألت عن المصلحة المختصة ، وجهت إلى مكتب بابه الى الساحة الكبيرة ، يمتد أمامه صف من المنتظرين سألت :

ـ كل هذا ؟

رد الرجل :

ـ الناس هنا من الفجر .

ولمح الى مكتب آخر موازٍ حيث يمتد صف النساء . وقفت في آخر صف الرجال أنتظر دوري . طلب مني أحدهم وقيداً ، اعتذرت . قال ما فائدة أمثالك ؟ الرجل لا يخلو جيبه من وقيد وسكين ! ثم استدرك انه مجرد مازح ، اعتذر وانصرف الى غيري ضاحكاً . الصف لا يتحرك ، لا ينقص ، ولم تمضِ نصف ساعة ، حتى امتد ورائي ذيل لا بأس به من المنتظرين . أحسست بتعب الوقوف في عضلات الساقين ، وتعجبت لصبر من سبقوني منذ الفجر ، الزمان يمُر ثقيلاً ، وبرودة الأعصاب التي شعرت بها منذ ساعة تقريباً ، بدأت تزايلني ـ أدركت ذلك من كثرة تحريكي لموقف قدمي على الأرض ولكثرة ما أتعبني وضع اليدين أحياناً في جيوب البنطلون ، وأحياناً في المعطف . . شعرت بأن اليدين تضعان عليَّ مشكلة : أين أضعهما ؟ نَزَّ مِنْ كفيهما عرق بعث في نفسي اشمئزازاً . بحثت عن منديلي فلم أجده . مسحتهما بالثوب الداخلي لجيوب البنطلون . اللعنة على عائشة ، كيف نسيت أن تضع في جيبي منديلاً ، واللعنة على الكل ، وكان بإمكاني أن أستمر في فراشي هانئاً ، لولا حكاية القطة المرقطة اللعينة . . . . ومع ذلك فكرت بأني يجب أن أرجع ، ولا داعي لكل هذا ، وقد أصبحت معذوراً ، فها أنذا قد جئت فعلاً ، وتحملت المشقة وهي هذا الانتظار الطويل ، الذي ليس إلا مرحلة أولى بل أقل من مرحلة ، وأبسط إجراء بعد ذلك يتبعه الكثير في مراكز الشرطة ، وغيرها . وتمنيت لو كان مهدي الصغير يراني حتى يتأكد

من أنني بالفعل قد جئت وتخطيت باب الشقة وقطعت الشارع ، والطريق ، واجتزت الحارس المسلح ، وأنني أستطيع ان أمر بالقرب منه مرة اخرى ، واتملّى بهدوء فوهة الرشاش . غلبني التفكير بأن أحداً لن يصدق أنني فعلت ما فعلت . وقد تقرع سمعي حكاية كلب غير مرقط ، أو ذئب بلا أنياب . . . ورف في مخيلتي طائر أبيض في أعالي الجو ، يقطع عالم السحب الرحب في خط مستقيم . انتعشت قليلا بهذا الخاطر ، وعدلت من وضع القدمين واليدين . . . لفظ يرتفع من مقدم الصف ، قرب باب المكتب ، مشاجرة أو شغب ، مددت عنقي ورميت بصري ، فلم أتبين شيئا يذكر مع كثرة الرقاب الممتدة ، والتي تتجاذبها رغبة في التحرك للاطلاع ، ورغبة في حفظ مواقعها في الصف . غفلت عن ثقل الزمان لفترة وأنا أتابع اللغط بانتباه . . التعليقات تصلني متنقلة من أذن الى أذن ، ومن شفة الى شفة : لماذا يتجاوزون الصف ويدخلون ؟! « الرشوة ، والتوجيهات أفسدت كل شيء . . » ينقطع اللغط ، ثم يرتفع ، يبدو أن هناك من يحتج ويذكي نار المعركة . . ربما بدأت الأيدي تتدخل . . . الحركة المتراجعة تسري في الصف حتى تدرك آخره . تقدمنا بعض الشيء ، ويبدو أن النظام قد اختلّ في المقدمة أمام باب المكتب مباشرةً ، فأصبح عبارة عن مجمع متراكم يمتد منه الذنب الطويل ، معلق يقول إن كل ذلك مفتعل من أجل أن تضيق بالأمر وتَنْصَرِف لسلوك طريق آخر ، صوت يتساءل : وأي طريق ؟ يرد عليه الأول : « يعني . . . كل واحد يفهم رأسه ! » عبّر أحدهم بأنه مستعد لكل شيء ، فقط يريد أن يعرف لمن يدفع ، لا ضير من الدفع إذا وجدت شهماً ينجدك ويقضي مرادك ، من جديد يرتفع اللغط ، وتدفعنا في الصف حركة متراجعة الى الوراء . . . وأخرى الى الأمام . يبدو ان انفراط الصف في الرأس عند باب المكتب يخلق ضجة وحركة كلما جاء دور من يخرج أو يدخل . . . أخيراً ينتصب أمام الصف عون حارس بلباس رسمي مسلح بعصا قصيرة ، أخذ ينظم بها الصف من جديد . دفعتنا بسبب ذلك حركة الى الوراء ، واستقام الرأس والذيل واحداً

واحداً . . عدت اتململ في وقفتي أبحث للقدمين عن وضع الراحة ، ولمشكلة اليدين عن حل في جيوب البنطلون أو المعطف . قال الحارس : « عشرين . . . » ودفع ذراعه بين صدري وظهر من هو أمامي ، حاجزاً بين العشرين المحظوظة وما فوقها ! الزيادة التي فوق العشرين عليها أن تنصرف وتعود غداً الصبح ! بدأ اللغط يعلو من آخر الذيل . كنت الواحد والعشرين ، بداية ما فوق العشرين بالضبط . ما معنى هذا ؟ ذراع الحارس ما تزال قوية ممدودة تفصل صدري عن ظهر صاحبي الأمامي المحظوظ . شيء يتحرك في داخلي ، وتصدر عني سعلة غريبة وحمحمة ، كان ينظر إلى الخلف حيث اللغط وبعض السباب . لا أدري ماذا قلت أو فعلت ، لكن شيئاً غريباً ينمو بداخلي لا أتبين إلا أنه غريب ، التقت عينا الحارس بعيني ، هممت بشيء لا أدري ما هو ، أو لعلي لم أنبس، وأن ما بأعماقي من شيء غريب ، كان يرتسم على ملامحي وفي عيني . . . المهم أنها كانت مجرد نظرة مني التقت بنظرة الحارس ، وإذا هو يرفع ذراعه الحاجز من أمامي ، ويضعها على ظهري حاجزاً بيني وبين من كان خلفي . أصبحت من العشرين أو على الأصح من الفئة المحظوظة التي لن تنصرف لتعود غداً الصبح ، وجدتني أدرس المعاكسة والمراضاة التي سرت بيني وبين ظروفي . . . . وأنا أقلب فكرة أول نقطة وآخر نقطة في الخط ، وكم نقطة تصنع الخط والنقطة السعيدة التي توجد داخل الخط ولو كانت آخر ما فيه ، والتعيسة التي لا تدخل ضمنه ولو كانت مقدمة ما يخرج عنه .

إنزاحت ذراع الحارس عن ظهري ، حين أحسست بالضغط يخف عن ظهري والهواء يلمسني من خلف ، لم التفت لكني كنت أشعر بالفضاء وراء ظهري بعد أن أصبحت آخر نقطة في الذيل . . آخر محظوظ . . بدأنا نتقدم شبراً شبراً . ارتاح الحارس للوضع ، النظام مستتب . ليس أمامي إلا عشرة . . ثمانية . . خمسة . . . ثلاثة . . واحد . فتحت الباب ، توجهت الى مكتب الموظف ، كان منحنياً على أوراقه . انتظرت لحظة بدأت تطول ، تنحنحت : قال :

ـ نعم ؟
مددت إليه الأوراق ، لم يتحرك .
قال :
ـ انتهينا .
لم أفهم ، ردد :
ـ انتهينا اليوم . غدا الصبح . . .
ـ مستحيل !
ـ شغلك .

كررت المستحيل ، كرر أنني حر وذلك شأني . أما هو فقد أنجز القدر اللازم من شغله اليومي ، بل تعداه بكثير ، أكثر من عشرين ملفاً عليه أن ينجزها الآن ليوقعها الرؤساء . تعال غداً الصبح . . . مستحيل . . كم تحملت من أجل الخروج والمجيء والوصول . . . وهل أعود غداً لأبدأ من آخر الصف . . . . ذكر أنني يجب أن أتحمل الانتظار والصبر مثل الآخرين . . . اعتبرني جئت من توّي وقصدت المكتب . . . أخبرته بأنني قضيت ساعات في الانتظار ، وأن الحارس يشهد على ذلك ، وهو الذي سمح لي بالدخول ، لم يصدقني وتمسك بأنه أنهى أكثر من نصاب يومه ، فكرت بأن أخرج وأدعو الحارس ليشهد على صدقي ، قال إن ذلك لا يعنيه ، ولا يعنيه أمر الحارس ، مستحيل . . . . رجوته ، وتردد في سمعي لغط الرشوة والوجهيات . . . أفسدت كل شيء ، وتخيلت سلوكه لو أني حشرت في يده ورقة مالية . طبعاً لن أنفذ الفكرة ، لكن امتناعه عن الرجاء أثارني ، فكرت بأنني إذا رجعت خاوياً فلن أعود ، طيف طائر أبيض . . . . وحكاية قطة مرقطة . . . وكلب . . . صدرت عني السعلة الغريبة من جديد . رأيت في وجهه لحية الحاج مهدي وعرفت ان السعلة الغريبة ليست غريبة . وضعت أمامه الأوراق وحاولت أن أنبسَ بشيء لا أدري ما هو ؟ رماها على وجهي غاضباً . تناثرت الأوراق على الأرض وانتفض غاضباً يلعن ،وأظنه شتم . على كل ،فقد كانت حاله كلها شتائم بالملامح

والحركات . قلت لـه إنني لن أخرج . . ربما رددت بشتيمة أو . . على كـل حـال فقـد كـانت مـلامحي فيها يبـدو رداً كـافيـاً ، حينئـذ اعتبـرني هددته . . . أو أهنته . . قام يفتح الباب . . . ينـادي الحراس ويـدفعني من كتفي . . . اشتبكنـا وتـلاطمنـا بعشـوائيـة ، فـك حـراس العصي اشتبـاكنا . . . . رأيتـه يصلح من هيئته ويتـوعـد . . . ويأمر الحـراس بالإبقاء علي ريثما تحضر (القوة). وقتذاك فقط ، والحراس يمسكون بيدي أحسست برغبة قوية في أن أرتمي عليه ، وأختنقه. تصورت مؤامرة محبوكة الخيـوط . . . . حتى الحارس الـذي ساعـدني بـأن أكـون آخـر نقـطة في الذيل ، أنكر أن يكون له دخل في المـوضوع . . . حضـر القائـد ولم يزد عـلى أن رمى إلي نظرة جـانبية وهـو يقول كـالمتسـائـل : هـو ذا ؟ كـأنـه يعرفني . أمام باب المكتب تجمهر الناس في السـاحة يرقبـون . . . حارس متـطوع يـدفعهم الى الابتعـاد عن بـاب المكتب ، وتـرك فـرصـة لمرور المسؤولـين ، وجـوه عـدة تبـدو عليهـا مصـالـح السلطة ، خـرجت من المكاتب المجاورة والعليا ، تدخـل تتساءل ، وتـظل ترقبني وهي تتحـرك جيئة وذهاباً في سلوك تضامن ضمني مع صاحبهم . . . أخيراً أمر القـائد الحراس بأن يخرجوا بي ، جمع أحدهم أوراقي المتنـاثرة ودسهـا في جيب معـطفي ، ودفعوني بينهم . بـدأت أخترق السـاحة بمـوكبي المحروس ، جماعة المتجمهرين في الساحة وجوههم مضببـة حولي . . . همهمـات تملأ سمعي تصورتها متضامنة معي ، لست أدري لماذا ألَح علي مشهد الـطائر الابيض يخترق السحب في أعالي الجو . . . شعوري بالمؤامرة يتعـاظم . أقـدام الحراس الثقيلة تـدق الأرض الصلدة حـولي ، ونحن نقتـرب من البـاب ، وقد بـدت الفاركـونيت قبالته مباشرة، فـاغرة فـاهـا المزدوج المصـراعين ، وعـلى جانبيـه شرطيـان مسلحان . . . يبـدو جوفهـا غـوراً مظلماً ، ترتسم في نهايته النائية قفا الشـرطي الجالس الى عجلة القيـادة ، اختلطت الأصـوات والصـور في إحسـاسي . . . زِدْ لأمـك . . . هـذي آخـرتك . شبـح الضابط يتقـدم نحـوي زرقـة في صفـرة وحـذاء أسـود لماع . . . صدى صفعة وخيط بول ينز مني ورائحة عفونة .

وملأت نظرتي الجانبية فوهة الرشاش الصغيرة ، يتأبطها حارس الباب ،أحسست بمقاومة تثقل قدمي ، وبيد تدفعني تشجعني بعنف ، زِد لأمك . هذي آخرتك . من يقول أطلقوه . . . . يصفعني ويقول سر في حالك :من !؟ وجه الحاج مهدي يواجهني موبخاً أهذه هي أفعالك ؟! تصدر عني سعلة غريبة . أخطو . . . مدفوعاً إلى الأمام نحو الأغوار . أجانب حارس باب الخروج . . . قدرة مجهولة أطارتني ، طارت بي ، قفزت بي واحتضنت الرشاش . . ! غاب النمل في لمح البصر . . . تشتت مذعوراً . . انبطحت حولي وأمامي على الأرض ذكور الجعلان برؤوس نعامات ، لا تجد لها مدافن في الأسفلت ، ظهورها السوداء الى السماء . . . أقف وحيداً ، حتى حارس الباب الكبير لم يسعفه الخطو ، وأسعفته بديهة المحارب ، فانبطح على مقربة مني ، تقهقرت إلى الداخل ، وخطوت في الساحة . ابتلعت المكاتب ومنعطفات البناية كل الجموع . . . ألمح رؤوساً تطل من هنا وهناك . . وتتراجع . . . العيون تغادر محاجرها . . تستطيل وتتلوى تتابع خطوي . . فعلاً أخطو ملتفتاً هنا وهناك . . كل شيء يختفي في لمح البصر بمجرد التفاتي إليه . . فعلاً أخطو وحيداً في الساحة ملتفتاً . . تتناهى إليَّ أصوات . . خذ بالك . تشجعني . اعرف من تضرب . . متضامنة معي . . الله يرضى عليك . . تحمل معي الرشاش . . الرجل لا يخلو جيبه من وقيدة أو سكين او رشاش . . . تحمل معي الرشاش وتساعد اصبعي المتردد في العثور على الزناد . اعطهم ما يستحقون . . ألتفت يميناً وشمالاً ، تختفي الرؤوس ولكن الأصوات والأيدي والأنفاس تختلط بأنفاسي . احْمِ نفسك . لا تبقَ عارياً في الساحة ، واعرف من ومتى وكيف . . تضرب ؟ . . . أعي جيداً أنني أحتضن الرشاش ، ملمسه المعدني بارد تحت أصابعي ، أضغط وأضغط وأضغط : . ملء رؤيتي حقل فسيح ، فضاء لا نهائي يجوبه طائر أبيض مطلق الجناحين تترامى حوله سحب متكاثفة . .

* * *

ـ الاسم ؟
ـ أحمد بن الحاج مهدي .
ـ تاريخ الميلاد ؟
ـ ٥ ـ ٥ ـ ٤٥ .
ـ المهنة ؟
ـ موظف .
ـ الحالة المدنية ؟
ـ متزوج وأب لثلاثة .
ـ السوابق ؟
ـ لا شيء .

يتدافع تقرير الوقائع من تحت نظارتي الضابط الوسيم لتلمع نجومه الصفراء في سماء زرقاء لا تدفع في مسالكي بولاً ولا رعدة ، رتبها عقل منطقي منظم من أول خطوة في يوم ٤٥/٥/٥ . . إلى أن فتحت عيني وعاد إليّ الوعي في جلسة التحقيق . ما كنت أتصور أنني أحمل مثل هذا التصميم والتخطيط وتبينت النية ، وأنني كنت أعتمد على رفاق لي (ربما) مسلحين أيضاً ، خانوا العهد لسبب من الأسباب ، ولم يتدخلوا في لحظة الصفر ، أو أن فشل خطتي دفعهم الى التراجع . . . إما أنني لا أعرف نفسي ، وإما أنهم يتحدثون عن شخص آخر في بلد آخر وظروف أخرى ، وعلي أن أتفرج على الشريط . كنت بالفعل هادئاً كأي متفرج لا تمسه الأحداث بقدر ما تمتعه . . . انتهى الضابط تلمع نجومه في سماء عالية زرقاء ، لا ينز مني بول أو تعتريني رعدة ، ومد إليّ المحضر والقلم لأوقع .

* * *

ـ الاسم ؟
ـ احمد بن الحاج مهدي .
ـ تاريخ الميلاد ؟

ـ ٥/٥/٤٥.

ـ المهنة ؟

ـ موظف .

ـ الحالة المدنية ؟

ـ متزوج وأب لثلاثة .

ـ السوابق ؟

ـ لا شيء .

من تسلسل الوقائع ، يتبين أن قد كانت لي خطة لها أهداف ، وتضم عناصر أخرى مشاكلة .

ـ أذكر أهدافك ؟

ـ من ماذا ؟

ـ وقائع التقرير .

ـ لا شيء .

ـ لماذا هجمت على موظف الجوازات ؟

ـ أهانني .

ـ أهانك أم اعتقدت ذلك ؟

ـ أهانني . . . وربما اعتقدت ذلك .

ـ وحارس الباب ؟

ـ لا أدري .

ـ أهانك أيضاً ؟

ـ لا أدري .

ـ كلمك ؟

ـ لا .

ـ تعرفه ؟

ـ لا .

ـ لماذا هجمت عليه ؟

ـ لا أدري .
ـ يجب أن تدري وتقول ما عندك .
ـ شعرت بالتهديد . . . ربما .
ـ هل هددك فعلاً مباشرة بحركة . . أو إشارة . . ؟
ـ لا أدري . . لكنني شعرت بالتهديد . . خفت . .
ـ منه بالذات ؟
ـ منه . . وربما من غيره .
ـ مثلاً ؟
ـ . . . . .
ـ تكلم . يجب أن تتكلم .
ـ . . . الفاركونيت . . بابها المشرّع على كهف مظلم . . أزرار صفراء في زرقتها . . حشد الشرطة . .

* * *

ـ منذ متى وأنت تهيىء الخطة ؟
ـ أية خطة ؟
ـ الوقائع ناطقة .
ـ لا أدري . . ربما ليست هناك خطة .
ـ لنقل إنها فكرة . . منذ متى خطرت ببالك .
ـ تلك اللحظة بلا شك . .
ـ طبعاً . . طبعاً . . لكن قبل ذلك ؟
ـ لا أدري .

* * *

ـ ماذا خطر ببالك قبل اختطاف السلاح ؟
ـ . . . . .
ـ تذكر وتكلم .

ـ ربما . . لا شيء .
ـ يجب أن تتذكر جيداً . . وقل كل شيء .
ـ ربما . . طائر أبيض يخترق السحاب .
ـ فقط ؟
ـ ربما حشود من ذكور الجعل ظهورها المحدّبة . .
ـ فقط ؟
ـ . . . ربما أيضاً . . بطون ملساء لضفـادع تعلو وتنخفض بفعل التنفس وعيونها . . .
ـ وماذا أيضاً ؟
ـ ربما . . صورة قطة مرقطة . . و . . . .
ـ و . . ؟
ـ لا شيء .

* * *

ـ الاسم ؟
ـ أحمد بن الحاج مهدي .
ـ تاريخ الميلاد ؟
ـ ٤٥/٥/٥ .
ـ المهنة ؟
ـ موظف .
ـ الحالة المدنية ؟
ـ متزوج وأب لثلاثة .
ـ من هم شركاؤك ؟
ـ لا أحد . لا أعرف .
ـ لن ينفع الإنكار .
ـ لا أحد .
ـ انظر هل تعرف أحداً من هذه الوجوه ؟

ـ لا .
ـ لم تفحصها بعد .
ـ . . . . .
ـ قل .
ـ لا أعرف منهم أحداً .
ـ ما معنى وجودهم معك ، في نفس الزمان والمكان ولطلب الجواز أيضاً ؟
ـ لا أدري .
ـ بعضهم يعرفك .
ـ . . . . .
ـ الا يجوز ان يعرفك بعضهم ؟
ـ يجوز
ـ من منهم ؟
ـ لا أدري .

* * *

ـ الاسم ؟
ـ أحمد بن الحاج مهدي .
ـ تاريخ الميلاد ؟
ـ ٥ ـ ٥ ـ ٤٥ .
ـ المهنة ؟
ـ موظف .
ـ الحالة المدنية ؟
ـ متزوج وأب لثلاثة .
ـ ماذا خطر ببالك وأنت تتشاجر مع موظف الجوازات ؟
ـ لا لمدري .
ـ تذكر .

ـ لا شيء .

ـ تذكر .

ربما . . . صورة ملتح يسعل . . . رائحة عفونة . . . طائر أبيض . . . .

ـ لم لم تنصرف عندما طلب منك ذلك ؟

ـ لأنني . . . لا أدري ، لأنني ربما . . . لا استطيع الرجوع في الغد .

ـ لماذا ؟

ـ لا أدري .

ـ هل ثم سبب آخر ؟

ـ كنت في عطلة .

ـ عطلة مرضية . . . كنت مريضاً بالفعل .

ـ ما المانع إذن من إمكان رجوعك في الغد ؟

ـ لا أدري . . ربما لأنني مريض .

ـ وربما كنت تخشى فوات الفرصة .

ـ ربما .

ـ فرصة ماذا ؟

ـ الجواز طبعاً .

ـ لماذا كنت مستعجلاً على الجواز ؟

ـ قصد السفر لتغيير الجو . .

ـ كنت إذن غير مرتاح في هذا الجو ؟

ـ ربما .

ـ حدد .

ـ لا أدري . . كنت أشعر أنني مريض .

ـ تشعر بالمرض أم مريض بالفعل ؟

ـ . . .

ـ تكلم . .

ـ أشعر بالمرض وربما مريض . . لا أدري .

ـ ماذا كنت تنتظر أن تجد فيها وراء البحر ؟
ـ لا أدري .
ـ ألم تكن تنوي تغيير الجو ؟
ـ . . .
ـ إذن ؟
ـ كنت أريد ان أتنفس . . أنفس عن ذاتي مثلاً . .

* * *

ـ الاسم ؟
ـ أحمد بن الحاج مهدي .
ـ تاريخ الميلاد ؟
ـ ٤٥/٥/٥ .
ـ المهنة ؟
ـ موظف .
ـ الحالة المدنية ؟
ـ متزوج . . .
ـ السوابق ؟
ـ لا شيء .
ـ ألم تفكر بأن الموظف يرتشي ؟
ـ بلى .
ـ هل تتهمه بالرشوة ؟
ـ لا .
ـ أليست هذه الفكرة سبب هجومك عليه ؟
ـ ربما .
ـ هل سمعت أحداً يتحدث عن الرشوة ؟
ـ نعم .
ـ أين ؟

ـ في الصف .
ـ من ؟
ـ لا أعرف ؟
ـ هل كان الصوت صادراً من أمامك أم خلفك ؟
ـ من كل جهة .
ـ انظر . هذه الوجوه وتذكر صاحب الصوت .
ـ لا أعرف .
ـ استمع الى المسجلة وتعرف على ما سمعت من أصوات .
ـ لا أعرف .
ـ ألم تقل إذ ذاك شيئاً ؟
ـ جهراً ؟ لا .
ـ سراً ؟
ـ في نفسي لعنت الرشوة والوجهيات والقطط والضفادع والأولاد . .
ـ فقط ؟
ـ . . .
ـ ألم تلعن الصف والانتظار ؟
ـ ربما . . .
ـ إذن ربما لعنت القانون والنظام والشرطة ؟
ـ لا أدري . . .

* * *

قال الراوي . . الخبل ومنتهى التروي والتعقل ، الجذب الى درجة الجنون والرصانة ومنتهى ثبات الرأي ، طيش الصبا ووهن الشيخوخة المكدودة . . كل شيء متناقض ، وغير مفهوم ولا معقول ، يصح أن ننعت به حالة الشيخ الحكيم روزباه في يومه هذا . طفل صغير غرير يقفز يضطرب مرحاً ، بعد ظفره بمطلوب صبياني عزيز ، منذ متى لم يمارس هذا الشيخ الوقور لعبة القفز والعناق والصراخ وحتى التكسير

المقصود ، ونتف شعر الرأس واللحية ، ودك الأرض ورمي الأطراف في كل اتجاه . .؟ يقهقه ، يقفز على صدر هذا وذاك من أصدقائه في المخزن ، يقبل هذه القارورة ، ويرمي بتلك الى الحائط ، يرقص ، يرقص ويدور . . . الكل يبتسم له في مجاراة وإشفاق حقيقي . هل جن أم هو على عتبة الجنون ؟ ونادى أصحابه أخيراً . . . أن اتبعوني الى العزيز الصديق شهراموش . وخرج يتبعه بعضهم خرج في غير حيطة معتادة ولا حذر . . . يهتف لقد وجدها . . وجدها أيها الناس ، يا أهالي كغاشي . . . وجدتها ، ووجدتها لكم ، لنا ، لكل الناس . . . جففوا . . نشفوا البحر ! اجرفوا الملح من البحر . . ! البحر . . ! وجففوا واجرفوا ما شئتم . . . يا عالم ، يا أرض ويا سماء ، البحر والملح والبحر . . ! أين هو؟ لا شك أنه قطع أزقة وشوارع . . أين هو؟ لا شك أنه تجاوز بوابات وحراساً . . أين هو؟ لا شك أنه أولغ في ردهات قصور عزيزة شهراموش ، دون أن يوقفه الحراس . انهم يعرفونه جيداً ، ويعرفون قيمته ومكانته . . وكان يسمع خطوات صحبه تتبعه ، وراءه ، ولكنه ينتبه الآن الى أنه لم يعد يسمع شيئاً منذ مدة . . ربما منذ بلغ بوابات القصور . . لعل الحراس منعوهم من الدخول أو أنهم تهيبوا . . . ولكن أين هو؟ هذه قاعة مجلس شهراموش مجلس الدولة العتيد . . أين هو؟ السرير الذهبي التقليدي الذي اختفى منذ سنوات ، منذ انقلاب حال شهراموش إلى الفضيلة والتواضع . . . ها هوذا السرير ، يتصدر القاعة والأسدان الضاريان على جانبي مجلس العظيم شهراموش . . . السرير الذي هجره العظيم منذ التحول المشهود . . هناك حضور في المجلس على مسافة منه ، تحت مستواه ، تظهر عليهم سيماء الخنوع والتملق والخضوع ، جو غريب تسود فيه السلطة بسيفها البتّار ، وعصاها الغليظة المعقودة الرأس على الأكتاف والأعماق . . . مسؤولين ورعية ولكن أين هو؟ لم يدرك بماذا كان يهتف ، ولا متى صمت عن الهتاف . وأفاق من خبله وتعقله ، ليعود إليه الوعي بعالم معكوس مقلوب . . هل جن حقاً أم العالم يضحك منه ؟ الى هذا الحد يفعل

النصر والظفر فعلهما في الإنسان الضعيف ، حتى ولو كان في جبروت عقل روزباه ؟ أهي البساطة التي حل بها الكشف العظيم بعد الجهود المضنية والقلق والسنين الطوال ؟ لا . لا يجوز لحكيم عاقل أن يفقد عقله في لحظة انفعال ، في لحظة انتصار . . . ولا يجوز لعالم أن ينقلب على حكيم عاقل في لحظة عابرة ، ليحل التعقل والهدوء . . . وأين هو ؟ أين هو؟ أمام . . همشير على السرير المذهب . . عظيم العظماء همشير الأكبر !

قال الراوي . . . تقدم صاحب السيف ، ملامح قديمة بوجه حديدي جديد ، أدى التحية وقال يا عظيم العظماء الأكبر ، لقد نجح رجالي أخيراً في اكتشاف مكمن هذا العجوز في مخزن تحت الأرض مع رهط من أصحابه وطغمة شهراموش الفاسدة ، لقد دمرنا المخزن وأحرقناه عن آخره . . وأمسكنا بقية الجماعة في انتظار قرار عظمتكم السديد . . استوى همشير قليلاً في متكئه ، وقال تكلم يا عجوز السوء لماذا كنت مختبئاً ؟ لم تصدر عن روزباه نأمة . كان يتساءل متمتماً : أين هو؟ أين العالم ؟ أين عقله ؟ أشار همشير ، فتقدم صاحب السيف وأمسك بخناق روزباه : ألا تسمع ؟ تكلم ! كان روزباه غائباً في تساؤلاته ، يتمتم لنفسه . . . تساءل همشير : ماذا يقول ؟ أجاب صاحب السيف بأنه لا يتبين . . . لعله لا زال يردد ما كان يهتف في الطريق كالمخبول أن جَففوا البحر . . اجرفوا الملح أو اشربوا البحر . . اجرفوا التراب . . أو شيء من هذا القبيل . . . قهقه همشير بعمق واقتضاب وقال : لقد كان مخبولاً من أصله ، فلا عجب ان يطير صوابه لما يرى . خذوه في نزهة قصيرة فقد يعود اليه صوابه !

قال الراوي . . اقتادوا روزباه مكبلاً مثقلاً بالأغلال التي تجمع أطرافه الأربع . . الى عنقه ، لم ينتبه الى شيء حوله ، إلى رفاقه في المخزن وهم مكبلون مثله في صف عند مدخل المجلس . لم ينتبه لشيء لأنه لم يعرف أين هو؟ ولكنه اضطر الى أن ينتبه ، وأن يعي في نزهته

العجيبة تلك ، مكبلاً بين الحراس مشفوعاً بالإهانة والمذلة . انتبه الى ما حوله في الشوارع فرأى رؤوسا منكسة وعيونا خابية ، ومعالم رعب عميق طفا وانعكس على الملامح والوجوه ، وبؤساً وكآبة . ما كانت طلائع موكبه تظهر على حَيٍّ أو زقاق حتى يسرع من يجد الفرصة من أصحاب الدكاكين الى الإغلاق والفِرار ، ويتسمر المارة على الجدران ، يرمقون المشهد ببلاهة محتاطين متحفزين للإحتماء الأعزل بأيديهم من ضربة سوط أو إصابة عصا ، أو لكزة رمح . أين عزة الآدمية ، والتطلع وفضول الوعي ؟ أين زينة النساء ، بل أين وجوههن وبسمة الأطفال ؟ أين الألوان الزاهية وملابس الأعياد والتفاؤل ومشاريع الحياة المتجددة ؟ عشر سنوات وأكثر من حياة كغاشي وبنائها تذوب ، تنسخ في طرفة عين ، في أيام معدودات ؛ عقدٌ من سنوات الكدّ والإجهاد ، والتخطيط والتنفيذ ، من التحول الصالح الفاضل ؛ عقود من التفكير والتأمل والنظر ، تذهب مقابل يومين أو ثلاثة ؟ أية معادلة هذه ؟ بأي قانون ؟ في مركز المدينة تجمع بعض الناس حول الساحة بالبلاهة التي أصبحت طابعاً جديداً . . . الساحة نفسها بلهاء بلا مشاعر ، لا مجالس ولا طرب ولا غناء ، لا شغب السكارى ولا طيش اليافعين ، ولا إشارات العشاق على الشرفات . . . . البلاهة الجامدة تحملق في كل شيء بلا فهم ولا معنى ، تتركز فيها صفوف الجنود المدججين بالسلاح متحَفزين للقتل . وفي مركز الساحة مائدة فسيحة طويلة عريضة حافلة جداً ، حافلة تتدلى عليها أعناق شهراموش ومراقادو وعشرات من أمراء المائة الصغار ونساء . . . في كم قرن حدث هذا ؟ وكيف يقدر الزمان ؟ اضطر حراس روزباه أن يلكزوه مراراً برؤوس رماحهم ليتحرك ، كان يتوقف ببلاهة يتفحص الوجوه الباهتة المعلقة ، والأعناق المكسورة يتملاها ، يقرأ ما عليها من تعابير مشدوهاً ، لكزوه أكثر من مرة ، تعثر وسقط أكثر من مرة . « سال دمه واستأنف سيره بلا إحساس يجر أغلاله . ماذا يرى ؟ أغمض عينيه . وفي ظلمات إغماضه تفتحت الجدران والكهوف واتسعت البوابات . أصبح كل شيء شفافاً وانمحت فواصل الزمان والمكان

ورأى . . . رأى قوافل الملح الطويلة محملة بأثقالها ، تتحرك ببغالها بين جبال المناجم وسار بها صفوفاً متوازية ذاهبة آيبة . . . رأى أعدال الملح على الدروب تنغل دوداً . . . ورأى أطرافا وقطع لحوم بشرية ، تتخلل أكوام الملح في المشامس . . . رأى سنابك الخيل تدك الزهور ، والحقول ، تهدم المساكن الآمنة ، تحرق المحاصيل قبل أن تأخذ طريقها تقاد بين صفوفها المتوازية صفوف الابرياء الى مناجم الملح . . . . رأى المآتم في كل مدشر وقرية ، ورأى الاطفال يكبرون بسرعة ، لا يكادون يتوقفون عن بكاء آبائهم ، حتى يقادون بدورهم مجرمين أبرياء لرفع إنتاج الملح . رأى الآباء مسلحين بالمساوط يلسعون ظهور أبنائهم لأقل هفوة أو خروج عن مقتضيات النظام والانضباط ، رأى الآباء سلحوا أصابعهم بأغلفة حديدية توزع عليهم مجاناً يلبسونها السبابة والإبهام ، لقرص آذان الأبناء تذكيراً وتنبيهاً بين الحين والحين ، بمبرر أو بلا مبرر ، والاحتياط أجمل . . . رأى جوائز التشجيع والتنويه ، تمنح للجبابرة القتلة الفاتحين ، وحراس السجون الاشداء ولكل أب ينجح في إنتاج صبي تابع مطيع . . . ولم ير النساء . . . لم ير وجوههن ولا ملامحهن . . . رأى أشباحهن تتحرك بآلية محددة وفق خطو محسوب مدروس لإرضاء شهوة أو تقديم خدمة أو تقبل نفحة . . . ورأى في لمح البصر بسحر ساحر خفي ، حدائق وغابات وأجواء في حرب ضروس . . . اقتتال والتهام وافتراس . . . ثار هدوء البحيرة الكبيرة . . . أسماكها الجميلة الفسيفسائية تنقلب الى ألوان صارخة يطغى عليها الأحمر القاني يلتهم بعضها بعضاً . لوى الثعبان عنقه ، والتهم الضفادع المبرقشة من على ظهره ، وقفزت نيرا على رفيقتها الماعزة . . . . وانقضت كواسر الجو على بغات الطير ، والضواري على الحملان والأبقار . . . تعالت الأصوات واختلطت وعمت فوضى الحركة . . . وغريزة الغاب الأولى . . . والخوف والتسلط بلمسة ساحر خفي . . فتح روزباه عينيه من جديد أمام بوابات القصور ، اقتادوه دفعاً برؤوس الرماح نحو جناحه الأثير ، جناح أمراء المائة ، آثار القتل

ما تزال مائلة شاهـرة . . . دماء متخثـرة وأطراف مبتـورة مرميـة هناك ، وجثث لم تنـح بعـد ، النتن يفـوح من كـل ركن ، وينـطق بكـل شـر رهيب . . . أوقفوه في مركز ساحـة القصور . . . أحضـروا له طبقـاً غير منتـظر : الأميرة الكبيـرة بيروز ، مشـدودة الأطراف الى عجلة التعـذيب المتنقلة ، مرتخية الأوصال فاقدة الرشد ، رشوهـا بالمـاء وجعلوها تـراه . ماذا ترى ؟ هل هو روزباه حقاً ؟ لـو رأى نفسه في مـرآة ليعرف الآن من هو ؟ يا للسخرية ، لم يبق إلا التفكير في المرآة وفي هذا الوقت ؟ أضـاف بسمة خافتة مظلمة الى تمتمته لنفسه ، التي لم يكن قد كفّ عنهـا لحظة ، كأنها تعويذة ! وماذا يـرى ؟ هل هي بيـروز تلك الجميلة المهيبة المتـوقدة التي كان يعرف ؟ اقترب منها الجلاد ، لعله قال لها : إن لم ترحمي نفسك فارحمي هذا الشيخ العجوز ، سيقتل من أجلك إذا لم تذكـري أين اختبأ زاهور ومعه بعض أمراء المائة ؟ أين ذهب زاهور ومعـه الزمـان ؟ لم تجب بأكثر من إشراقة نظرة عابرة ، رأت بها روزبـاه الهيكل المكبـل أمامهـا ، ثم خبا منها كل شيء . كانت موثقة اليدين والرجلين الى أعلى وأسفل ، مصلوبـة الى عجلة ضخمـة مـا لبثت أن دارت حتى كـادت أطـرافهـا تنفصـل . شدوا وشـددوا عليها ثم أرخـوا . . . . رشوهـا بـالمـاء . . . . صفعوها . . . ثم نفس ما زال يتردد في الكيان الذي فقد إحساسه . . التفتوا نحو روزباه . . . عليه ان يرحم شيخوخته ، ويرحم أميـرته فتـاته أيضـاً ، إذا شاء الخير لها ولـه . لا فائـدة من التكتم فكل شيء قد انتهى ، ولم يبق إلا أن يفوز بجلده وينقذ بيروز . أين زاهور ؟ متى رآه ؟ مـا هي الأمـاكن التي يمكن أن يغشـاهـا ؟ أين يمكن البحث عنه ؟ متى كان آخر مرة رأى فيـه بدر الـزمان وبعض من معـه من أمراء المـائة . . ؟ كـان روزباه دائـماً يتمتم لنفسه دون أن يقـول شيئاً مسمـوعاً واضحـاً . . . مـا زالت الفـرجـة تحتمـل المـزيـد ، ولتمتْ الـدهشـة والفضـول . . . أين زاهور ؟ وأحضـروا قفصاً ضخـماً مقسـماً الى ثـلاثـة أقسام متوازية ، تكون في الواقع ثلاثة أقفاص . . . يتطاير الشرر وشهوة الافتـراس ، وضراوة الجـوع من لبؤتين تحتـل كل منهـا أحـد القفصـين

المتطرفين ، دفعوه ليتقدم نحو القفص الأوسط . رفعوا بابه وعليه أن يدخل إلا أن يقول أين زاهور ؟ كان يتمتم لنفسه . . . دفعوه ليتقدم ، فخطا بآلية ووقف في منتصف القفص الأوسط . علا زئير اللبؤتين متوعداً ، وبرزت أنيابهما الناصعة تقطر حدة واشتهاء ، وبدا القفص الضخم كله يهتز بحركتهما . أين زاهور ؟ اين بدر زمانه ؟ أين من بقي من امراء المائة ؟ أغلقوا عليه باب القفص الأوسط بالمزلاج من الخارج ، لازال في إمكانه ان ينقذ نفسه ، وربما أميرته ابنته تلميذته أيضاً . . والتفت نحو بيروز . كانت مغمضة العينين . . . تأكد انها كانت تراه . . . ترى قلبه العتيد الذي تعرفه حقاً ، كما يرى قلبها . . . قلب بدر زمانه وصحبه والعزيز شهراموش ومراقادو الحبيب . . . . لأول مرة أحس بأنه يتمتم متسائلا أين هو ؟ . . . وأن عليه ان يكف عن ذلك ، ليقول شيئاً حقيقياً ذا معنى ، تسمعه بيروز وتفهمه ، يكون هديته اليها وإلى كل الذين يرى قلوبهم الآن ، قال بصوت داخلي واضح لا يسمعه إلا هو وبيروز ومن كان يريد لهم ان يسمعوه : « لقد نجحنا . . حققنا الكشف العظيم » : « نشّفوا البحر . . جففوا من مائه ، واجرفوا الملح وانشروه في العالمين حقاً للجميع كالماء والهواء . . . جففوا ملوحة البحر واجرفوا ما شئتم وليعش المعمور في سلام ، أحس بأميرته تفرح احس بفرحتها في قلبه . . . فرحت بهديته . . . بادلته مثلها : أرسلت دمعة حرى أحس سخونتها في دمعته . . . تابع مسقط دمعتها على الاسفلت ورأى الأرض كالملتهبة من وقعها [1] . . . رفعوا بابي القفصين المتطرفين المؤدين الى القفص الأوسط مقدار الشبر ، وارتفع زئير اللبؤتين اللتين بدأتا تدفعان رأسيهما من الشقين عبثاً لتجدا معبراً الى فريستهما ، لا زال بامكانه أن

---

(١) تذكر بعض الروايات ان نبتة غريبة بزغت من موقع دمعة الأميرة من بين بلاطات القصر ، أثمرت فاكهة غير معهودة طعمها ما بين حلو ومر اطلقوا عليها اسم كانيمار (كلمة مركبة من كانيم وبيروز) ومعناها دمعة الأميرة أو فرحتها ، ولا تزال تحمل هذا الاسم الى اليوم .

ينقذ نفسه وربمـا أميرتـه أيضا . أين زاهـور ؟ أين بدور زمـانهم ؟ نشفوا البحـر . . . . ارتفع البـابان قليـلا مقدار شبـر آخـر أو شبـرين . رأسـا اللبؤتين محشوران نحوه الى العنقين والزئير المتلهف . . اجـرفوا الملح . . مـا شئتم من الملح للعـالم كله بـأرخص ثمن . . بـلا ثمن . . مـا زال بامكانه أن ينقذ نفسه إذا أراد . انشروا الملح في العـالم . حرروا المنـاجم فلا حاجة اليها بعد الآن ، هديتنا للعالم ملح بلا ثمن . . يرتفع البابـان أكـثر . . . اين زاهور ؟ اين بـدر الزمـان ومن نجا معـه ؟ البحر والملح للجميع ، . . . الملح . . . . بحر وملح . . . . بحر و . . . .

***

ـ الاسم ؟

ـ أحمد بن الحاج مهدي .

ـ تاريخ الميلاد ؟

ـ ٥ ـ ٥ ـ ٤٥ .

ـ المهنة ؟

ـ موظف .

ـ الحالة المدنية ؟

ـ متزوج وأب لثلاثة .

ـ السوابق ؟

ـ لا شيء .

ـ هل فكرت بأن عمليتك إنتحارية ؟

ـ لا . لم أفكر بشيء .

ـ إذن ، كنت معتمداً على مساعدة أحد ؟

ـ لا .

ـ ألم تسمع أحداً يشجعك ؟

ـ . . . . . .

ـ تكلم .

ـ سمعت أصواتاً كثيرة تشجعني .

ـ والوجوه ؟

ـ . . . كان الكل مختبئاً .

ـ هل تستطيع تمييز هذه الأصوات الآن ؟

ـ مستحيل .

ـ ألا تجرب ؟

ـ مستحيل .

ـ ألم تكن واهماً فيما سمعت ؟

ـ لا . ربما . .

* * *

ـ لماذا اختطفت الرشاش بالذات ولم تختطف عصا مثلاً ؟

ـ لا أدري .

ـ لأن العصا لا تقتل ؟

ـ . . . . . .

ـ أليس كذلك ؟

ـ لا أدري . . ربما . .

ـ لو أنك أطلقت . . . ما أول هدف كنت تسدد نحوه ؟

ـ لا أدري .

ـ المتجمهرون مثلاً ؟

ـ لا .

ـ لماذا ؟

ـ . . . . .

ـ والفاركونيت ؟

ـ . . . . .

ـ ألم تزعجك الفاركونيت ؟

ـ بلى .

ـ إذن كنت ستطلق عليها ؟

ـ ربما . . . .

ـ والحراس والشرطة ؟

ـ . . . . . .

ـ المتجمهرون لم يزعجوك ؟

ـ لا .

ـ لم تكن لتطلق عليهم ؟

ـ لا .

ـ والشرطة والحراس ؟

ـ . . . لا أدري .

ـ ألم يزعجوك ؟

ـ بلى .

ـ إذن ؟

ـ ربما . . لا أدري .

ـ لو اقترب منك أحد . . لنزع السلاح منك ، أكنت تتردد في الإطلاق عليه ؟

ـ لا أدري .

ـ وربما أطلقت ؟

ـ . . . ربما .

ـ مهما كان الشخص ؟

ـ مهما كان . . . وربما . . . .

ـ ماذا ؟

ـ لا أدري .

ـ لماذا لم تطلق ؟

ـ . . . .

ـ لأنك تتورع عن القتل أم لسبب آخر ؟

ـ . . . . .

ـ شوهدت تضغط على الزناد بقوة وحِدّة ؟

ـ نعم .

ـ كنت تريد أن تقتل ؟

ـ لا أدري .

ـ ضغطت على الزناد لتقتل طبعاً .

ـ لم ينطلق الرصاص ؟

ـ ما حدود خبرتك بالسلاح ؟

ـ لا شيء .

ـ هل سبق لك إستخدام سلاح ؟ مسدس مثلاً أو . . . ما شابه ؟

ـ لا .

ـ هل سبق لك حمله أو إخفاؤه مثلاً ؟

ـ لا أدري . . ربما . . . .

* * *

خلف مفهوم الشذوذ ، تختفي كل أشكال العصيان والتمرد . ليس التمرد طفرة في حياة الشخص أياً كان . ولكنه تحضير مستمر مقصود أو غير مقصود ، الأول خارجي والثاني داخلي . بالنسبة للثوريين ، يحبون أن يكون مقصوداً حتى لا يعزى للصدفة أو لفردانية مقيتة . في الواقع هما سيّان من زاوية أخرى . . والمهم هو النتيجة . أحياناً يكون التحضير غير المقصود أخطر ، لأنه يكون مطلقاً ، وعن إقتناع أهوج ، يتخذ شكل الحماقة ، والحماقة عدوى سواء نزلَ صاحبها مستشفى المجاذيب أو قفص السجن . والعدوى عدوى ، أي وباء لا يقبل ، يلزم الاحتياط ، الضغط يولّد الانفجار . بيد أن الرخاوة إنفجار أيضاً لأنك لا تملك بعدها أن تمارس الضغط . كيف تضغط ولا يتولد الانفجار ؟ هذه هي المشكلة ! وهذا هو الفن الحقيقي ! كيف حركوا القاطرة ، ورفعوا الطائرة وكيف ساسوا الجموح من قديم !؟ لكي تضغط عليك ان تهيىء مسارب التنفس وتعودها بالقدر اللازم الذي يتم به الانفجار ولا يتم ! هكذا حركوا القاطرة ، وارتفعت الأثقال في أجواز الفضاء ، واختال الجواد الجموح بصاحبه . لا بد أن تترك لجوادك فرصة الجموح أحياناً ، على ألا تفلت اللجام والزمَام ، حفظاً له ولك . حيل

الضغط والتنفيس معروفة منذ القدم ، ألم يسموه علم الحيل ؟ الوسائل وحدها تتغير وربما الأقنعة . أما جوهر بني آدم فلا يزال هو هو ، والماضي أشبه بالحاضر وبالمستقبل من الماء بالماء كما يقول علامة ومنظر شهير للتاريخ . التعذيب ممنوع . الإعلام ممنوع ، ومن يعاملك بنفس العملة : الكذب ممنوع ، التآمر ممنوع ، الغدر ممنوع ، التخفي والكتمان ممنوع . . . . ويمارس معك اللعبة على المكشوف ؟ ومن لك بأنه إذا تعهد باللعب على المكشوف لن يخدع ويغش ، فلا تشعر إلا وقد طارت منك وطارت بك ؟ من ثم أنت لا بد أن تتمسك بأن السن بالسن ، وأحياناً أقل من السن بكثير ، بأكثر من السن بكثير ، حتى تستطيع أن تحتاط وتوازن حساباتك . لا عيب في أن يخطىء البقّال الحساب ، شريطة أن يكون الخطأ لصالحه ، أي بالزيادة لا بالنقصان كما تقضي أصول المهنة . بنفس الدافع يمكن أن تقول : والأخلاق ؟ أقول لك : « أعطني الملائكة زبناء لأكون نبياً ! » إذا كان الزبون نفسه يتحين بك غفلة في البضاعة أو الحساب أو الميزان . . . . فماذا عليك ؟ أنت سعيد الحظ ، إذا لم يجرّك التيار إلى إرتكاب كبيرة الغش في الميزان ، تُضاف الى غش الحساب ؟ ولنفرض أنك أوفيت ، إذا كان العدل عدلاً ، والربح ربحاً ، والربا ربا ، فيجب أن تعود في نهاية يومك سليماً معافى تقريباً من الربح (والعياذ بالله) ؛ هذا ما يقضي به منطق الاقتصاد البسيط عند كبار منظّريه ، ولكن من جهة أخرى ، إذا كانت التجارة تجارة والأصول أصول والفهم فهم ، فيجب أن توفي دائماً ، وتتنازل عن جزء من حسابك لصالح الزبون ، وتحفظ له الثمن حتى رأس المال أو أقل ، حباً في نوارة وجهه الكريم ، وتعود نهاية النهار بالربح الأوفر ، وهو ما يسمى باب الخير والبركة والفيض ، ونفس الواقع في الواقع . . .

ألا لا جهل بالقوانين . . . من يخرق يعاقب ، العدالة حلم والقانون قانون ، من يغفل يعاقب ، من يسلك اللامبالاة فعلى ذمته ،

لنقل إن الرحمة هي ما بين حدين أدنى وأقصى للعقوبة ، من ينسى فعلى ذمته . . . . من يتجاهل فعلى ذمته . . . من يحاول أن يجرب التمرد الصغير . . . والشذوذ الأصغر أو الأكبر فعلى ذمته ، من يحاول التناسي أو التغافل او التجاهل او . . . فعلى ذمته . . . من . . . فعلى ذمته . . . على ذمته . . . ذمته .

* * *

لا أحد مسؤول عن مولده ، بيد أنك كنت كالمسؤول ، لنقل سقطت رأسك في العالم قسراً قبل الميلاد الطبيعي بشهرين اثنين ، ليلة إرتجاف شديد عانت منه زهروية إثر إحدى نوبات الحاج مهدي ، أنقذتها . ابتهجت بذلك بقدر ما تخوفت ، نجت من نوبة الحاج مهدي تلك ، ولكن خوفها عليك وعلى نفسها سرعان ما طغى . لا أحد مسؤول عن مولده ، وكأنك مسؤول ، المهم هو العبرة لا الحدث ذاته . حياتك استمرت على نفس النحو : أحمد الوديع الودود الطبع ، المطيع يخفي جبروت الجن الأزرق ، لو سألنا الحاج مهدي ، لقال إنك المثال الذي ما كان يستطيع أن يتصوره ، مجرد تصور . وقد يستطيع تفسير ذلك بما يثبت قوته وسطوته ويزكي نظرته : إنك كنت تتأدب بما يلحق الآخرين سيراً على مبدأ . . . الحر بالغمزة . . . كنت حراً جباراً هادئاً وديعاً كنت ! . . . .

* * *

عري يوم الحشر قانون ، ماذا تحاول أن تستر ؟ أتفكر بأن تستر وتتستر ؟ الحشر حشر والتشريح تشريح والعري عري ! ماذا فعلت ؟ ماذا نسيت او تذكرت ، قلت أو هممت بان . . . تحركت أو أثرت . . . نمت أو أفقت ، أخطأت أو أصبت . . ؟ لا تخفى خافية ولا ظاهرة ، ذرة أو حبة خردل . . . كل في كتاب . . . في كتب ، لك أن تتمنى . . . ليتني لم أكن . . . أو هنيئاً لي بأنني كنت ، لا جدوى في التمني ولا في

اليأس ، الكتاب والحرف السحري لا يفوته سريع ولا بطيء ولا ثقيل . . .



رجال كالحاج مهدي قادة أفذاذ ، خيبة الدهر أنه لا ينتبه اليهم ، ولا يأبه بهم ، فلا يحلي صدورهم بالأوسمة ، ولا يحيط أسماءهم بالهالة والتقدير ، ومن هنا بعض الضياع والخسارة لسير التاريخ ، التاريخ هو ذاكرته وحضوره واستمراره ، ببساطة يقول الأفذاذ هؤلاء : هكذا كانوا . . . . هكذا وجدنا . . . هكذا نبقى ويبقون . . . هكذا نسير ونريد ، بتواضع ونكران ذات وصبر يسهرون على سير التاريخ ؛ وحارس جنينة الفقوس مهما يكن حرصه وتيقظه ، لا بد أن تغافله طفيليات ضعيفة ، تلتوي خالقة من ضعفها عذراً للبقاء ، تتسلق مبررة وجودها بعجزها تتقوى في الخفاء ، تتشبث بالسيقان والجذوع والجذور والبراعم . . . تخفق . . وعين الساهر الحازم الحريص أثناء ذلك كله ، الى العاتيات الكبار ، فلا يشعر الا وشيء ما ليس على ما يرام ، رغم الحزم والحرص وسطوة الاخلاص . رجال يستحقون أنصاب التخليد في الساحات العامة ، ولكن من ينتبه أو يفهم ؟!



أما أن يخدع الحاج مهدي في نظر التاريخ المعقول فذلك شيء لا يصدق ، وأما أن نخدعه بالوداعة والاستكانة الظاهرة فذلك ، ينسجم مع القوانين الصحيحة لسلوك الطحالب والطفيليات الضعيفة الملتوية المتسلطة . . . أحمد بن الحاج مهدي ينسج لنفسه وقاء يحميه من الصواعق ، التي تنزل بمحمد وعبد الله دونه ، ويستطيع بحرية كاملة أن يتصرف في جيوب الحاج مهدي ، كلما وجد غفلة نوم أو غياب ، والصواعق تنزل بالغير ، حواليه ، لا عليه ، تحميه الرعدة والرعشة ملامح الارتعاب المسبق ، فلا يسأل وحاله تقطر براءة وخوفاً . أول

صبي في خلية الحاج مهدي يبتلى بالصلاة قبل أن ينبه أو يؤمر أو يعاقب ، مرة في المسيد أمام العصا الطويلة في يد الفقيه الشيخ الجليل ، ونظرة صديقه الحاج مهدي تتصفح وجوه الأطفال بحثاً عن رأس أحمد ولوحه وفمه . يريد أن يتمتع بكيان ابنه المتحرك على أنغام القراءة ، يقول الشيخ لصديقه ، من أغفل صلاة ابنه لعشر لم ينتفع بعشر من صلاته . من يومذاك يستطيع أحمد - دون العاشرة ودون السابعة - أن يجر والده الحاج مهدي إلى أن يتلصص ، ليتمتع بمشهده الصغير الطيع وهو يمارس الفريضة في الأركان المنزوية كأنه يتخفى ! يتخفى ليكون أشد ظهوراً من أي ظهور ، وكأن الحادث عفوي ! والصواعق تنفجر على محمد وعبد الله بالجلد والشتم وقرص الآذان . . . وعلى زهروية ، وعلى كل من يوجد بالقصد ، أو بالصدفة في المنزل ، إلا أحمد الطيع المطيع الوديع ، فيدًا الحاج مهدي مشيرتان دائما بالرضى ، الى ذلك المتعبد الصغير .

* * *

الخطأ سلوك بلا نظرية ، رجال يبنون التاريخ ، أو يحفرون مجراه بقوة وعمق ، لكن اللبنات تأتي في شكل تراكم ، أو تأتي ضربات الفأس في غير انتظام ، سيشيد التاريخ قوياً تشوبه النتؤات ، أو يسير بمجرى غير متساوي العمق . رجال يخدمون التاريخ ، وهذا فخرهم ، وكفاهم .

* * *

أحمد بن الحاج مهدي : تراك الآن ، نرى الزنقة والدار والطابق السفلي ، وحانوت الشفناج والخراز . . . ودكانة المسيد ، والعم بوشعيب الشرطي ، غول الأطفال في الحي بكامله . نراك ونرى الأتراب في المسيد ، ونرى وقفة عم بوشعيب الشرطي ، وأشياء أخرى عادية جداً . . . ثم نرى طفلاً يتقدم بحذر على بعد . . جنب الطوار . . .

نراه يجلس بهدوء وعناية مصطنعة قرب الغلاقة الحديدية المتآكلة لفتحة قناة (الماء الحار) . . . استفزاز واضح لشخص عم بوشعيب الشرطي ، غول الأطفال الغيور . يتقدم عم بوشعيب من الخلف بحذر نحو الطفل الجالس كل شيء بحذر وهدوء . . . يشعر الطفل بالاقتراب . . . يقفز . . يقفز خلفه الشرطي ، رجل في الفضاء ، ورجل فوق الغلاقة المتآكلة . . . ويسقط في الكمين ! من كان السبب في عملية خبيثة كهذه أدت الى كسر ساق عم بوشعيب الشرطي ، وجروح في وجهه وساعده ؟ ليس الطفل المباشر ولد الزيَّاني ، والذي نال جزاءه وأكثر من جزائه من والديه . وهو لم يكن إلا منفذاً . لكي نعرف المسؤول الحقيقي يجب أن نرى قبل الحادثة بدقائق ، عدة أطفال منزوين ، يرنون إلى شخصية عم بوشعيب بارتعاب . أكثرهم إرتعاباً وارتعاشاً كان الصغير الطيع أحمد بن الحاج المهدي . خطرت له الفكرة رغم إرتعابه ووداعته ، شرحها ، دافع عن نجاحها . . . ثم طار في اللحظة المناسبة قبل تنفيذها ، وقلبه يكاد ينفجر فزعاً وفرحاً ورعباً ! وبعد ذلك . . . بعد شهور ، عندما ظهر الشرطي بعكازته وجبصه وعرجه ، ظل أحمد الوحيد المواظب على تحية الرجل باحترام كبير ، بعد أن ذهبت غوليته ، وأصبح الأطفال يرتعون في عرينه كيف يشاؤ ون .



يقول اللامعقول : أحمد بن الحاج مهدي الوديع يسعى ببراءة الملاك لحيازة جواز . . . . تعترضه صعوبات . . . يستفزه موظف . . . يقع في ورطة . . . يقبض عليه . . . يثور إنفعالاً وهو مهزوز الأعصاب باستمرار ، يختطف سلاحاً بالصدفة في حالة يأس أو لا وعي يهدد به ولا يستعمله لأنه يجهل استعماله ، بل يجهل كيف حاز الرشاش . . . حتى يقبض عليه من جديد . . . . براءة ملاك . . .

يقول المعقول : هل هذه حقاً هي أول مرة يختطف فيها أحمد

سلاحاً ؟ نعود الى أحداث ما ، ماذا نرى بعد عصر يوم قائظ في غير أوانه ؟ نرى الحاج مهدي يصعد بثبات وحزم درجات قصر الشرطة ، يطلب مقابلة كبير الضباط ، ولا يتراجع أمام مطلبه ، ولا يشرح لماذا ؟ في هيئته ، وجده الحازم ، يهدد بأنه إذا لم يقابل كبير الضباط فسيعود من حيث أتى محتفظاً بسره ، والمسؤولية بعد ذلك على عاتق من منعه . أمام الضابط يسلم الحاج مهدي ، يبتسم له الضابط ، ويأمره بالجلوس بهدوء وبدون أدنى تلعثم يرفع الحاج مهدي طرف جلابته المخططة ، ويدخل يده في شكارته ، ويخرجها قائلاً للضابط :

- جئتكم بهذا ؟

ويطرح المسدس على المكتب !

يستعيد الضابط هدوءه بعد تحفز المفاجأة ، يجر إليه المسدس من عروته بواسطة قلم ، متسائلاً . يشرح له الحاج مهدي ما غمض . كان الحاج مهدي في المسجد يصلي العصر حين دوهِم المسجد بالأولاد المشاغبين ، يتدافعون فارين ، وقد سمعت طلقات رصاص ، كانوا يطلبون الحماية، اللجوء الى المسجد ، والشرطة تتابعهم . امتلأت بهم أركان المسجد ، تباعدت أصوات الطلقات في الهواء ، وبدا الأولاد يتسللون الى الخارج . تأخر الحاج مهدي حتى فرغ منهم المسجد وعمّ الهدوء . . . قام ليأخذ بلغته ، ليجد في إحدى فردتيها المسدس ، أدرك في الحين أن أحد المشاغبين تخلص من سلاحه بهذه الطريقة ! وها هو ذا جاء يقدمه إلى من يجب ان يقدم اليه . ينادي الضابط أحد مساعديه . يفحصون المسدس يتعرفون عليه . فقده شرطي منذ يوم سابق ، كما فقد معه وعيه بسبب الضرب الذي تعرض له من قبل التلاميذ المشاغبين بالثانويات ، دون أن يتمكن من إطلاق عيار منه . ومع ذلك فالمسدس قد استعمل وأطلقت كل رصاصاته !

يندهش الحاج مهدي لأول مرة اندهاشاً واضحاً ، يطمئنه الضابط ، لقد قبض على المحركين للفتنة في المدارس ، ساعدِونا فقط

بضبط أبنائكم ، حتى لا تنكب الأسر الصالحة . يعلو حماس صادق من صدر الحاج مهدي ، اقتلوهم ، او سلموهم لنا نقتلهم نشوي الشحم على جلودهم ، حتى ولو كانوا من أبناء الحاج مهدي نفسه !

يشكر الضابط الرجل على أريحيته وتعاونه ، ويوضح أن لو كان كل الآباء مثل الحاج مهدي لما حدثت أية فتنة ، يشكره على أنه لم يتهرب من المسؤولية ، ويرمي المسدس حيثما اتفق . يطلب منه أن يفتح عينيه . ويأتيه بأخبار التلاميذ . يرد الحاج مهدي بنفس الحماس السابق . ليحسبوه من أسرة الشرطة والأمن . وأولاده أيضاً ، يأخذ الضابط بعض معلومات شكلية من الحاج مهدي ، ويطلب منه توقيع محضر ، ويخرج معه الى الباب يودعه ، والحاج مهدي يؤكد تطوعه للمساعدة على حفظ النظام ، والحفاظ على الأسر الصالحة وأبنائها . بالفعل ، يفتح الحاج مهدي عينيه جيداً ، ويفلح إلى حدها : . . . ويغيب كثير من التلاميذ للاستنطاق أمام الشرطة . . .

أما ما غاب عن هذا الأب الفذ العظيم ، كجميع العظماء والأفذاذ ، فهو أن يكون ضحية اللامعقول . ضحية ثقته في وداعة ابنه أحمد ، وصلاته وصلاحه وارتعابه المستمر .

الآن فقط ، وبعد فوات الأوان يبدو الحاج مهدي كاذباً وضحية ، كيف ذلك ؟ مرة أخرى منطق اللامعقول : نرى أحمد بن الحاج مهدي وقد بوغت بالاشتباك يقع بين تلاميذ ثانويته وبين الشرطي ، وكأي بريء يفر مبتعداً ، وإذا قطعة معدنية ثقيلة تسقط أمامه ، تجذبه نحوها دون وعي منه ، يحملها دون وعي منه . . . . يعني أنها مسدس دون وعي منه ! يفكر في أن يرميها ولكنه يخاف وهو دائماً في خوف . . . . أخيراً ودون وعي (طبعاً) يضعها في محفظته ، يدخل الدار يتوضأ ويصلي ، وبمجرد انتهائه ، يدخل الحاج مهدي فينفرد به ابنه احمد ، ويخبره بكل شيء . ماذا يفعل الحاج مهدي بعد أن تزول عنه دهشة المفاجأة ؟ لو كان مصدر الإخبار شخصاً آخر غير احمد ، لما صدق ، ولا

تهم ، وقام بدوره العتيد في مثل هذه الحال ؛ كان ممكناً أن يقتل ابنه أو يصحبه إلى الشرطة ويُغلق عليه باب السجن بنفسه ، انه يعرف رسالته ودور أبوته ، لكن أحمد صورة أخرى ملائكية إلى حد ما ، عند الحاج مهدي ، ولا يمكن أن يكون كاذباً . احمد إذن صادق . وهو واقف يرتعش ويرتعب يوشك ان يغمى عليه ! وإذن يجب ان يذهب الحاج مهدي مع ابنه ، ويذكر كل شيء للشرطة واقعة بواقعة ، وحرفاً بحرف ، ويُزكيّ شهادة ابنه . نعم ، لكن الحاج مهدي لا يفعل ذلك خوفاً على البريء أحمد أن يقتله الخوف . إذن يطمئنه ، يطلب منه أن ينسى الموضوع كأنه لم يكن ، ويخرج الحاج مهدي بالمسدس إلى قصر الشرطة يفرغ إدعاءاته وكذباته من أجل المصلحة العامة ، ووفق مبادئه . ذاك منطق اللامعقول ، يبني نفسه في حرية وقد اختفى الشاهد الوحيد الحاج مهدي . أما المعقول فمنطقه مخالف : لنفترض مرة واحدة أن الملاك يمكن أن يكذب . . وحينئذ سنرى أحمد بن الحاج مهدي محركاً لفتنة التلاميذ مشاركاً فيها ، عارفاً كيف يكون أول من ينجو . والمسدس أخذه عن إصرار من الشرطي الصريع أو أخذه بعض زملائه ، واستعمل من طرفه أو من طرف بعض زملائه . . ثم أخذه ليحتفظ به ويحفظه في مخبأ آمن ، وقبل أن يجد هذا المخبأ ، خيل إليه أن عيني الحاج مهدي ستكشفان سره . أو ربما فكر في أن أحسن غطاء له ، هو الالتحاق بشخصية أبيه فداهمه باعتراف محرج كاذب ، هذا هو المعقول ، وهو نفس ما يتكرر بعد أربعة عشر سنة مع احمد بن الحاج مهدي الراشد الموظف الزوج الأب . . .

ـ ماذا كان قصدك من إطلاع الحاج مهدي على المسدس ؟

ـ شيء طبيعي جداً ، انه أبي ومسؤول عني .

ـ ما رأيك في موقفه ؟

ـ تصرف كأب من وجهة نظره .

ـ هل كنت تتصور له سلوكاً آخر ؟

ـ نعم .

ـ . . . . ؟

ـ يعاقبني ويقدمني للشرطة .

ـ لم لم يفعل ؟

ـ لا أدري .

ـ هل سبق له ان عاقبك ؟

ـ لا . لكني كنت أخافه ، وأحتاط لذلك .

* * *

يحتاط ! الاحتياط يفسر كثيراً من الاشياء . احتياط الصائد يجعله ينصب الفخ ويكمن برصاص وكلب ضار ، ما أفلته الفخ ، أردته الطلقة ، وما أخطأته الطلقة ، أجهزت عليه ضراوة الكلب ، الفريسة نفسها تحتاط ، تطل الفأرة مرات قبل أن تبرز جزءاً وتظل في منتصف الجحر مدة كافية وهي تتشمم الخطر حولها في الأرض والفضاء ، قبل أن تبرز وتتجول محتفظة بخط الرجعة وراءها ، احتياط يعارضه احتياط ، ولا بد ان يخطىء الصائد ولو مرة . . . ولا بد أن يقع الأرنب ، والفأرة ولو مرة . . . ينجح احتياط ويخفق احتياط . . . يخفق احتياط الحاج مهدي . . . . والحاج مهدي ليس إلا رمزاً لجيل ومواطنة . . . . وينجح احتياط احمد الصغير ، وهو بدوره ليس إلا رمزاً لجيل ومواطنة . وأسرة الحاج مهدي كأسرة أحد ابنائه ، كباقي الأسر ليست إلا رمزاً لمجتمع ما . كيف نفصل موقف الحاج مهدي في سياسة أهله ، عن آرائه في التجارة عن نظريته في المواطنة ، واعتناق الحقوق والواجبات ؟ .

* * *

خطر دائم على منظمات البشر ، يكمن في نظرية تستحيل الى ممارسة وتكرار ، سرعان ما يغيب بهما الوعي . . . ولا يدرك الحاج مهدي أنه لولب في الميكانيكا الهائلة العامة . . . يغيب عنده الوعي بالمرجع ويسلك كأنه مستقل ، حينئذ يحل الخلل المرئي المحسوس

المجهول الأسباب ! ارتباط وانفصال ، شد جواداً إلى كل جهة من جهات العربة الأربع ، وانتظر أن تتحرك ، لا تجدي العزيمة وحسن النية .

ـ حكمك النهائي على الحاج مهدي ؟

ـ رجل من جيله مات وانتهى .

ـ ما رأيك في مواطنته ؟

ـ تتبع جيله .

ـ وأبوته ؟

ـ كل شيء يتغير . . . القيم . . . المقاييس .

يفقد الحاج مهدي علاقته بالمرجع ، عندما يصبح دون كيشوت ، قدوة ، ويقول لك الحاج مهدي حينئذ ، أنا أدرى برسالتي ، وأعلم بقدسيتها ومن ثم له أن يتصرف اعتماداً على قدرته ونباهته وحده ، مستقلاً عن مرجعه . أأنت نبي أو مواطن سماوات ؟ أعليك إصلاح الكون ؟ وهكذا يضيع اكبر جهد مع حسن النية والغفلة فيأتي أقل مردود ، أو يأتي معكوساً . ولو قلت لنفسك يا حاج مهدي : أنا هنا . ابن هنا ، أعمل من هنا لهناك » وبحثت من هنا لهناك فقط ، لوجدت المرجع ، وهكذا تبذل جهداً أقل رفقة من هم هنا ، مهما تعددت الأطراف وتحركت ، فلا يجوز أن تنفصل عن حركتها المركزية . تصور كائناً بشرياً عجيباً تتجه به إحدى أذنيه الى ماضي والأخرى الى المستقبل ، عين إلى تحت الذقن ، وأخرى في قنة الرأس . . . رجل الى الأمام وأخرى الى الوراء . . . . ماذا تنتظر منه ؟ رغم أن التفسير الوضعي ليس في خدمة الأبوة والمواطنة ، فنقيضه ليس في صالحها بالضرورة .

ـ لو جاءك مهديك الصغير بمسدس وحكاية ؟

ـ . . . .

ـ ماذا تفعل ؟

ـ . . .
ـ هل تتخذ منه موقف الحاج مهدي منك ؟
ـ لا أدري .
ـ وأنت ، أب ؟
ـ ربما تركت له أن يتصرف . . .
ـ كيف ؟
ـ هو المسؤول ، قد أشرح له ما يخفى عنه ، لكنه المسؤول .
ـ وتصدق حكايته ؟
ـ ربما . على كل لن أكذبه .

من يتحدث عن أبوة ، يتحدث عن مواطنة ، ومن يتحدث عن انحراف او شذوذ يتحدث عن خيانة ، الامور مشدود بعضها الى رقاب بعض ، ويجب أن تكون كذلك الى الابد ، لتبقى البشرية بشرية . ولنفرض اننا بالفعل أمام حركة شاذة مرضية معزولة لا معنى لها ، ولا علاقة لصاحبها ، برفاقه في الشغل أو في الشارع أو المدرسة أو الأسرة . . . . حركة منقطعة الجذور ، من شخص منقطع الجذور . . . مثل هذا الافتراض يضع أسئلة وافتراضات أخطر : لماذا الجواز في هذا الظرف بالذات ؟ لماذا هذه الرغبة الملحاح لمغادرة الوطن ؟ . . . عناصر كثيرة في معادلة من درجة مجهولة خطيرة ، ولنعد للاحتياط ، احتياط الصائد والسيد معاً . إحتياط يقضي بافتراض سوء النية ، وممارسة التخطيط المنحرف والشروع في التنفيذ ، أن تخسر فرداً أو مجموعة أفراد ، وينتصر احتياطك ، خير من أن تترك احتياط الطرف الآخر ينتصر .

* * *

« دخل عليّ الرجل المسمى احمد بن الحاج مهدي بشكل هجومي ، أفهمته بلطف أن نصاب اليوم قد اكتمل ورجوته ان يعود في الغد ، لم يكلمني وإنما رمى إلي أوراقه وهددني ، وكانت احدى يديه

طول الوقت في جيبه بشكل يوحي بأنها تمسك بشيء ، قدرت في الحين أنه سلاح أبيض أو ما شابه ، كان بادياً أنه يستفزني لأقوم بأية حركة تبرر رد فعله . حاولت أن أقوم لأستنجد ، فرمى الأوراق على وجهي ، وشتتها في كل اتجاه وتمسك بي . . . ! » .

« موظف الجوازات »

« كنت متنبهاً له عند الدخول والخروج ، أثار اهتمامي ، كان يتفحصني ويتفحص سلاحي بعين مستطلعة لا تخفي الريبة ، وفكرت في القبض عليه ، لكنني خفت أن أكون متسرعاً خاصة وأن ذلك ليس من مهمتي . . » .

« عندما كانوا خارجين به ، كنت أرقب ثلة الشرطة في الفاركونيت ، مطمئناً الى أن من يحيطون به ، مسيطرون عليه ، رغم أنهم عزّل ، فقد كان بدوره مجرد أعزل ضعيف البنية . أخذني على حين غفلة مني . . . لكني تداركت الموقف بمجرد ما عاد نحو الساحة . . . . أدركت من حركاته أنه غير خبير بهذا النوع من السلاح ، لكنه كان في أية لحظة قادراً بالصدفة على تحريك زر الأمان وينطلق الرصاص . . كانت مغامرة مني لكني نجحت . . » .

« حارس الباب »



ولا يملك المرء إلا أن يشهد بعظمة هذا الفكر المهتدي إلى هذه النظرية من قديم الزمان ، ربما منذ وجدت جماعة بشرية ألا وهي التضحية في سبيل الجماعة ، وبجماعة صغرى في سبيل جماعة كبرى ، وإذ يكون فرد أحياناً أو جماعة صغرى ، أقوى أو أدهى أو أغبى فالتضحية لصالح من هو أصلح ، سواء كان داهية أو غبياً أو قوياً . . . . هذا الكشف النظري العظيم لم تكن فائدته في أنه حاول ان يعطي للتاريخ معنى ، ولا في أنه أبان عن محرك التاريخ ، بل في كونه

نبّه الى وجوب المغامرة للكشف عن ذلك المحرك .

* * *

يقول سي المختار أستاذ الاجتماعيات إن المشاغبين في الفصل كانوا طغمة حرمت من حرية الحركة والشغب في أسرها . يكرر ذلك بأصوات متفاوتة في الشدة والغضب ، يريد بذلك أن يستفز المستفزين ، ليعلنوا عن أنفسهم بدون جدوى ، وبمجرد ما يعود ليلتفت الى سبورته السوداء أو يخفض نظره الى أوراقه ، يعود الشغب وتعود لهجة الأستاذ المستفزة دون جدوى ، يراقب التغيّب وينادي الأسماء ، يسجل الحضور دائماً ، الكل حاضر دائماً عندما تكون كلمة « حاضر » كافية ، لكنه بمجرد ما يقارن بين عدد الأجوبة « حاضر » وبين عدد الرؤوس الموجودة فعلاً في الفصل يجد فرقاً . من المسؤول ؟ مرة وجد سي المختار فارقاً بالزيادة في الرؤوس الحاضرة فعلاً ! اضطر إلى أن يعيد النداء وأن يتقدم الى اللوحة كل من سمع اسمه ، كان الفائض اثنين :

ـ اسمكما ؟

ـ . . . . . .

ـ من أنتما ؟

ـ . . . . .

ـ أين تدرسان ؟

ـ . . . . .

ـ من أتى بكما ؟

ـ . . . . .

ـ لماذا أتيتما ؟

ـ . . . . .

ـ من هل متى . . ؟

ـ . . . . !

أخيراً دفعهما سي المختار أمامه متجهاً نحو الادارة . لا بد أن تتدخل الشرطة لإنطاقهما . الموضوع أصبح جداً ، وقبل أن يصل الموكب لآخر منعطف نحو الإدارة ، طارا وتركا سي المختار يقدم تقريراً شفوياً عن شابين مجهولين ! كان هذا بأيام قبل حوادث الشغب ! شيء كالريح الخافت ، كهبة نسيم عابرة طائشة تمريك ولا تتكرّر ، شيء كالهمسة الوحيدة ردد اسم احمد بن الحاج مهدي ثم غاب ولم يتكرر ، كطيف حلم . أنكر أحمد ، وانتهت الواقعة على أنها من عبث صبية ، ولم تبلغ الشرطة بالأمر ، بعد ذلك بأيام معدودات تثور حوادث الشغب واضطرابات التلاميذ . . . من ومتى وكيف . . ؟ احمد بن الحاج مهدي بعيد عن كل شبهة ، مرتعب ومرتعش ، وقطعة حديدية ترتمي بين يديه بالصدفة ، فاذا هي مسدس بالصدفة ! وبسحر ساحر . . . تقدم للحاج مهدي المواطن الكبير والغيور ضحية الطحالب والطفيليات . . الحكاية . . بالصدفة ! !

* * *

« تعرفنا عليه في العمل بالادارة ، بيننا وبينه علاقة عمل ليس إلا ، زرناه مرة واحدة في منزله أثناء إجازات مرضه ، سلوكه لم يكن يخلو من غرابة ، لكنه لم يؤذ أحداً قط ، ولا شيء أكثر من ذلك . . .

(ملخص من تصريحات حميد ومسعودي)

* * *

وكما اكتشف الفكر البشري عقده الاجتماعي المزعوم ، ومفهوم القانون والشرعية والتنظيم الحزبي والحكومة . . . اكتشف كذلك نظريته الذهبية ، في الصدفة يلوذ بها في الملمات والمحارج . عملة ذات أوجه لا نهائية وقابلة للتغيير بكل القيم . وهكذا يمكن القول بأن العقل

البشري في مجال النظريات الإنسانية قد أعطى كل ما عنده . ومن الخير له أن يتوقف عن اكتشافاته السعيدة ، التي بلغت أوجهها ، وبدأت منذ مدة ، تناقض وتنقض بناءاته الجميلة والمتينة ، لتتوقف نظرياته تلك ، وإذا كان لا بد له من نشاط ، فلينصرف بكليته الى التقنيات والتطبيقات .

. . . مهما اجتهد المحققون والقضاة فسبيلهم لحفظ الجماعة البشرية واحد وحيد : الاعتماد على القرينة إذا انعدم الدليل المادي والتلبس ، او الاعتماد على القرينة أولا ، وعلى غيرها ثانياً أو ثالثاً : لأنك أمام نظرية خطيرة كنظرية الصدفة . . . . لا تكون في مستواها إلا بمنطق القرينة لا منطق التلبس . . . كل ذلك إذا أردت أن تحافظ على بناءات الفكر الجميلة . . . هكذا يكون من الضروري ممارسة الاحتياط والتحفظ والتوقع ، كما تتطلب ذلك نظرية الانتظام وقيام الجماعات البشرية . . .



والكلمة الآن للدفاع ، فالفكر البشري أوجد أيضا مفهوم الدفاع ونظرياته . . . الكلمة للدفاع . . . . الدفاع . .

قال الراوي : بحر ، بحر هائج تتلاطم أمواجه ، تتسابق وتتعالى لتنكسر فجأة على شاطىء رملي فسيح ، تتكسر فجأة كما لو اصطدمت بسلسلة صخور عاتية غير مرئية ، ويمتد بعدها مباشرة شاطىء رملي سهل فسيح . تحدق العين لتتبين السر ، يبدو ما يشبه الصف المتراص لأجسام صغيرة دائرة سوداء ، تطفو على الماء وتتكسر عندها الأمواج . كيف يمكن لما يطفو على الماء أن يكسر عاتي الموج ؟! تحدق العين . . يتقدم الصف المتراص أو ما يشبهه ، نحو الشاطىء الرملي ، تكبر أمام العين تلك الأجسام الصغيرة السوداء المتراصة ، تكبر حتى تتضح وتملأ الرؤية . . . رؤوس ، رؤوس آدمية . والأمواج المتكسرة فقدت

زرقتها ، وبياض الزبد ، ليحل الأحمر القاني . . . أيدٍ ، مجرد عظام بلا لحم او عصب ؛ أيد بالعظام والدم فقط ، تخرج من الرؤوس مباشرة ، تمتد نحو الواقف الوحيد على الشاطىء الرملي الفسيح . . . تمتد نحوه كأنها تناديه ، تستغيث به . . . تقترب منه ، يدفعها الموج المتكسر . . . . تتكسر ، الامواج العاتية دونه ، ولكنها تقترب منه ممتدة الأصابع العظيمة ، ترد عنه الموج ، وتتبعه مهما يفر . . . توشك ان تمسك به تكاد تلمسه ، تتمسك بتلابيبه والموج يتكسر خلفها ، خلفه . . . يجري ولا يقوى . . . أوشكت أن تمسكه بل أمسكته ، بل أوشكت وارتفعت منه صيحة . . أفاق لها بدر زمانه مذعوراً يتصبب عرقاً . انتشر ضوء قنديل زيتي على فراش بدر الزمان ورفيقته ميكاري المجاورين . يظهر وجه زاهور . . . مرة أخرى يعيش بدر الزمان كابوساً ، تقلص تكرار الكوابيس ، عما كان عليه في البداية ولكنها لا تتقطع ، كوابيسه وكوابيس ميكاري عالمهما الجديد . . . . كان زاهور كلما أفاق من حالة مرعبة ، وذكرا له بعض ما شاهدا من مناظر الرعب ، اكتفى بأن يقول إنه ليس حكيماً ولا عليماً بالأحلام ، إنه يعلم فقط أن ما يرياه ، هو بالضبط ما كان يجب ألا يرياه لو سارت الأمور ، كما كان يرتجى لها ومنها .

وضع زاهور القنديل الزيتي في نقرة في الحائط الصلد ، فظهرت بعض تقاطيع الكهف الأجرد الذي يأويهم ، وظهرت الى جانبهم أفرشة متعددة لبعض أصحابهم .

قال الراوي . . . في مكان ما من أقصى جبال كغاشي جهة الشرق ، التجأ زاهور بعد جهد جهيد في التخفي والتستر ، ومعه الأميران بدر الزمان وميكاري ، نجاتهم كانت أعجوبة وبقاؤهم أحياء بعد ذلك كان أعجب . لم تكن منطقة مجهولة أو مما يغفل عنه أعوان همشير وجنوده في البحث الجاد عن الفارين من المذابح رفقة زاهور وبتدبيره ، كانت منطقة رعاة سرعان ما اكتسبهم زاهور ، لحنينهم لما يمثله وتعلقهم بالذكريات

الجميلة القريبة البعيـدة ، فأرشـدوه والأميرين الى الكهـوف التي يحتمون بها عادة عندما تفـاجئهم الطبيعـة بغضبها العـاصف . قدمـوا لهم الأمن والكساء والغذاء ، وأنكروا لعساكر وأعوان همشير ان يكونـوا قد سمعـوا أو رأوا عن غـريب أو غربـاء في المنطقـة كلها . وتـطوعوا يعـدون بـأنهم سيبلغون بكل طارىء جديد .

قال الراوي . . . كانت قطعان الرعاة من أغنام وماعز وأبقار تقبل عـلى المراعي الجبليـة صباحـاً ، وتؤوب منهـا مسـاء . . . وكلما أقبلت ، خرجت من بين رؤوس الماشية رؤوس آدميـة جاءت متخفيـة لتنضم الى زاهـور والاميرين . . . وظهـرت كهوف عـديدة لسيـل المنضمين الجـدد شباباً وكهولاً رجالاً ونساء . . . ويرتفـع الضحى كل يـوم عن خلايـا لا تكف عن الحـركة كخـلايا النحـل تحيط بها وتحميهـا أحزمـة من قطعـان الرعاة . . . أوراش في العراء وداخل الكهوف لكل الصنـائع . . . قـطع الأواني المعدنية تتحول بين المطرقة والسنـدان الى دروع وسيوف ورؤوس رمـاح ، ونبـال وخناجر . . . جـذوع الأشجـار وأغصـانها تنقلب الى عجلات وأقواس وأعمـدة وعصى . . . الحجارة تنحت وتعـالج لتصبـح ذخيرة للمجانيق . . . .

قال الراوي . . . كان بدر الزمان وميكاري يعرفان كثيرا من هـذه الصنائع ، تعلماها في بيوت الأمراء المائة ، فكانا يشـاركان فيهـا جميعاً ، وقد حذقت الاميرة ميكاري بـالإضافـة الى ذلك نسـج الصوف وصنـاعة الاصباغ من الأعشاب الكثيرة المتنوعة في المنطقة ، فكانت تخرج من كل زاهٍ مبهج تزين به ما تنسـج . كما حـذقت بعض ما تعلمتـه من صناعـة الأدوية ومعالجة الامراض وتوليد النساء والماشية . . .

قـال الراوي . . . لم يكن من الصعب عـلى الأميرين المشـاركة في هذه الصنائع والأشغال ، بل وقيادتهـا والتفنن في ابتكاراتهـا وتعليم ذلك لغيرهم ، ولكن الصعب كان في إقنـاعهما وجعلهـما يطمئنـان الى ضرورة اقتصار هذه الصنائع عـلى أدوات الحرب إذا تجـاوزت ما يضمن الكسـاء

والغذاء لمجموعتهم التي يزداد عددها يوماً عن يوم . . . ولم يكن زاهور وهو صاحب الفكرة وقائدها ليستطيع إقناع طفلين في العاشرة من نشء روزباه ، بفضيلة ما يقوم به وما يخطط له . كان يقول إن هذا ضروري لأنه لا يعرف غير ذلك ، لأنه ليس روزباه الحكيم ولا حتى مراقادو الراعي . . . إنه فقط زاهور ، مروض الوحوش القديم ، ولا بد له بعدما جرى أن يعود لطبيعته القديمة ، أو إلىّ ما يشبهها يروضّ المعدن ليصنع منه آلة الحرب والقتل ، يتسلح بها ويسلح بها بني جنسه ، ليمارسوا الحرب والقتل مؤقتاً على الأقل ، عندما يحين الوقت المناسب ، كان منطقه محدوداً مستقيماً ، لا يطيق تعقيدات ما يطرحه الطفلان من أسئلة . يقول ببساطة ، إنني لا أعرف ما أجيبكما به ، وإذا أجبتكما ، لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً أو خطأً ، كل ما أستطيع أن أؤكده ، أنني أشعر بالضرورة تدعو الى ذلك . . .

قال الراوي . . . . وضع بدر الزمان منقاشه بجانب مطرقته وسندانه ، مسح عرقه عن جبينه وبدأ يتأمل الآية التي أنجز ، حد السيف البتار ، وروعة النقوش والزخارف على مقبضه . تأمل التعاريج والالتواءات ، وتداخل الرسوم راضياً عن نفسه ، وآلم عينه انعكاس شعاع الشمس على حد السيف الصقيل فاغتمّ لما ستسخر له هذه الآية الفنية من تقتيل . . . لا لفضيلة واضحة ، وإنما لأنها الضرورة . . . عند ذاك ، ثقلت همته للعمل ، لأشياء كثيرة بقربه ، تنتظر دورها لتحول الى آلة حرب جميلة ، رمى السيف المعجز جانباً على الأرض ، وغاصت نظراته الساهمة في نار الموقد ، الملتهب جمره والذي يلين الصلد ويذيبه . . . . تناول بلا وعي قطعة معدن صغيرة مستوية ، من فضلة ما صنع منه السيف ، داعبها بين يديه وهو ساهم ، فضلة لا شأن لها ، لا تصلح لشيء إلا أن تذوب مع غيرها لتكون قطعة أكبر ، أو لترمى منفردة مع النفايات الى غير رجعة . . . ظل ساهماً محدقاً في النار والمطرقة والسندان والمنقاش . . . ينقل النظر والخاطر بين النار والمطرقة

والسنـدان . . . . الملقـاط والمنقــاش . . . الملقـاط والمـطرقـة والمنقاش المنقاش . . . وتأمل بين يديه نفاية المعدن الصغيرة ، الفضلة المهملة التي لا قيمـة لها في ذاتهـا . تأمـل ما بـين يديـه ، لم يشعر بـأنـه مـراقب عن قـرب . . . ثم قالت ميكـاري ، يا لهـا من فراشـة جميلة . . . وتناولتهـا منه ، فضلة المعدن ، النفايـة التي أصبحت على يديـه فراشـة توشـك ان تطير . أكدت ميكاري إعجابها الشديد . وقالت إنها ستلونها بـأصابعهـا الساحرة ، ولن يشك من يراها في أنها فراشة حقيقية ، مسح بدر الزمان عرقه بيد مسودة بالصدأ والفحم ، تركت آثارها على جبينه ووجهه . اتجه الى ميكاري صامتاً يقرأ في تقاسيم وجهها آثار إعجابها بإبداعه . تـذوقها إبداع فوق إبداعه ، وصفها للفراشة وحده ، يجعلهـا تطير من زهـرة الى زهـرة تنقل الحب والصفـاء . . . تذكـرا أنهما بين المـراعي والجبـال منـذ شهور ولم ينتبها الى فـراشة او نحلة أو طـير . . . لم لا ينصرفـان قليلا في استراحة قصيرة الى تتبع الفراشات ، إلى ان يطيرا معها بخفة واضطراب من زهرة الى زهرة ، تلقح حباً بحب وصفاء بصفاء . . .

قال الراوي . . . ذكرا رغبتهما تلك لزاهور . هل ينسيان طبيعتهما الاولى في طبيعـة الضرورة . هـل بالإمكـان أن يمـارسـا بعضـاً منهـا من جديد ؟ قال زاهور : أيها العزيـزان ، قد أكـون في موقف أسعـد الناس بالبقاء رفقتكما ، والسير معكما إلى هدفنا النبيل العظيم ، ولكنني بالتأكيد أشـد الناس بؤسـاً ، وألماً لعجـزي عن إعطاء أجـوبة شـافية لمـا تسألان عنه . . . لو بقي لكما روزباه أو مراقادو أو شهراموش. . . لأفاد كل منهم في حـدوده فيما تسـألان عنـه ، ولكنني عـاجـز من ان أكـون في مستـوى أدناهم ، فكيف وأنا الوحيد المسؤول الذي يرجى منـه الجواب ؟. . . . اسمعا أيها العزيزان . إن لكما عزاء لا أملك مثله . إن لكـما طبيعة أولى تحنّان اليها ، هي ما نشئتما عليه من مبادىء روزباه ، تحنان الى ممـارستها بشوق ولهفة . وتشعـران بالضـرورة تدعـوكما الى ذلـك ، وسيحقق ذلك آجلاً أو عاجلاً ، أما أنا فلا أحن الى طبيعتي الأولى التي نشئت عليهـا ،

والضـرورة تدعـوني مع ذلـك الى ممـارستهـا فـأين عـزائي ؟ نشئت عـلى ترويض الوحـوش وتهيء أساليب القتـل والافتراس . أنقـذت من ذلك فترة ، وها أنـذا أعود مضـطراً كارهـاً ، ويجب علي أن أخلص في ذلـك لدرجة الحب . . إنـه قانـون الضرورة أيهـا العزيـزان . . . إنكما عـزائي الـوحيد ، وعـزاء هـذه الجمـوع الملتفـة حـولكـما ، وكغـاشي كلهـا التي تنتظركما ، والمعمور بأسره . . . لقد آن الأوان لأفضي بكل ما عنـدي ، وأنـا أجيبكما بمـا أستطيـع ، أقول لكـما لا مـانـع في رأيي البسيط من أن تمارسا طبيعتكـما تلك . أن تطاردا الفـراشات وتقفـزا وراءها ، وتصنعـا باقات الزهور والورود ، وتلونا الأشياء بأصباغ ساحرة ، وتتناشدا الشعر وتـرسما البسمـة والفرحـة عـلى حـد السيف ، لا مـانـع من تجـولكـما في الأحـراش كما تشـاء لكما طبيعتكـما تلك ، لكن لا تنسيـا أبـداً مـا تشـاء الضرورة منكما ، وتقتضيه عيوب همشير التي ترصد ظهوركما . ويجب ألا يحدث ذلك قبل الأوان . تجولا في الأحراش والجبال والكهوف الآمنة من عيـون همشير ، ولكن بقـلادة سيف ، وحزام خنجـر ، وكنانـة وقوس . يمكنكما أن تشفقا على ظبي شارد أو أرنب مفـزوع فلا تـرميانـه ، ما دام أصـدقاؤ نـا الرعـاة يهيئو ن لمجموعتنـا كفايتهـا من الـطعـام ، ولكن إذا شممتـما ريـح ذئب أو ثعلب أو سمعتهـما عـواء أو زئيـراً أو التقـطتـما خشخشـة ، إذا صادفتـما نيرا أو كنجـان : فـلا تـردد ، ولا رحمـة ، ولا شفقة . سددوا وأطلقوا ، لا تنخدعـا بالألـوان او الانغام ، فقـد انطلق عقـال الضرورة . لا أخفي عليكـما أن الضرورة تـدعونـا الى الإسراع ، تدعونا الى تتبع آثـار صديقنـا وحكيمنا روزبـاه . . . سمعت أنه أصـابه الخبـل في النهايـة ، فخرج من مخـزنه ريشـه عـارياً يهذي منـاجيا ان كلوا التراب ، احصوا حبات الرمل ، اشربوا ماء البحـر . . احرقـوا البحر . لا . لا اعتقد أن مثل ذلك العقل الجبار يمكن ان يصاب او ينطق بهذا . الهذر، وان صح أنه نطق به ، فيجب الكشف عن مكنونه . لا بد من تنفيذ قانـون الضرورة لنتمكن من تتبّـع آثاره واكتشـافاتـه . لقد أحـرق مخزنه ، ومدخراته العلمية وقتل مساعدوه ، فلن نعثر عـلى شيء مكتوب

أو محفوظ عنه ، ولكننا نستطيع ان نتتبع آخر ما كان يقول ، ونتحقق منه على وجه الضبط ، بجمع الشهادات والوقائع ومقارنتها ، ولن يعز علينا أن نكشف عن مدلولها العظيم ، نحن أصدقاء روزباه وتلاميذه . . .

قال الراوي . . . تواهى صوت زاهور ، قبل أن يتوقف ويعم صمت الذكريات الرهيب. ترتفع فيه بين الحين ضربة مطرقة من هنا ، أو حشرجة منشار من هناك، أو دق مسمار، دون ان تبلغ عتبة السمع. صمت أبلغ وصلاً لخواطر الثلاثة من كل حوار . وفي آن واحد وبلا وعي ، تلاقت نظراتهم عند الفراشة المعدنية المبرقشة ، وقد لونتها أصباغ ميكاري الساحرة . . تلاقت أعينهم من جديد . . . . وبهدوء كامل وتأنٍ مدّ بدر زمانه يده نحو قلادة سيف مغمد قرب فراشه على الأرض . . . سحب السيف بتؤدة. مرَّ بكفه على صفحته الصقيلة . داعب حده بأصابعه، شد على مقبضه المنقوش ، ثم حركه في الفضاء يميناً وشمالاً ، فانعكس على حده اللامع ضوء القنديل ، ودفع به أمامه كأنما يبقر به عدواً مواجهاً ، وكرر كل ذلك مراراً قبل أن يعيده الى غمده بتؤدة ، ويتوجه نحو الجدار ، حيث علقه بجانب القنديل الزيتي [(١)] .

هذا ما سرى يا حضارْ	من وقائع وأخبارْ
رووها صغار وكبار	إخوان وندما
كل زمان عنده بدره	اللي يضويه ويعمرُه
ما هموه اللي غدروا	هذا حال الزعما
كل بدر عنده زْمانُه	كل قول عنده مكانه
اللي غبروا لا بد يبانو	دايرين في الفلك علاما

---

(١) هذا موقع الرواية التي تقول بأن هذا الفتى وصاحبته لم يكونا بالذات بدر زمانه وميكاري المعلومين ، بل هما مجرد اثنين من أمراء المائة ، أنقذهما زاهور بأعجوبة وفر بهما وبنفسه . . . وتضيف الرواية ، بأن كل أولئك ، الأمراء ، كان يطلق عليهم بدر الزمان ، وأن هذا الاسم أو اللقب ، لم يكن علما لأحد بعينه منهم ، والله اعلم .

اخبارنا مشت مع الواد الواد　　واحنا بقينا مع الجواد
وجوه الخير والاسياد　　متعنا وياهم بالسلاما
اللهم يا رب يا متعال　　زيّن عبدك بالفعال
بلغ مرادُه والمنال　　مع الاوليا والعلما
بجاه نبيك المصطفى　　ما بلغ وما وفى
والصالحين والشرفا　　تنفع بكلامنا الاسما

***

صدر للمؤلف

روايات :

ـ الطيبون : طبعة ثالثة عن دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء .

ـ رفقة السلاح والقمر : طبعة ثانية تصدر عن الدار العربية للكتاب تونس .

ـ الريح الشتوية : طبعة ثانية . مكتبة المعارف ـ الرباط .

قصص :

ـ سيدنا قدر : طبعة ثالثة من مكتبة المعارف ـ الرباط .

ـ دم ودخان : طبعة ثالثة عن الدار العربية للكتاب ـ تونس .

ـ رحلة الحب والحصاد (تحت الطبع) .

مكتبة نوميديا 78
Telegram@ Numidia_Library

بدر زمانه

مبارك ربيع كاتب مغربي معاصر له أسلوب في كتابة الرواية يذكرنا بأسلوب «ألف ليلة وليلة» أو «سيرة عنترة بن شداد» أو «الزير والمهلهل» بل لعلّ أجواء هذه الرواية أشبه ما تكون بأجواء القصص التي ذكرنا، واسمعه في هذا المقطع:

«قال... وكرّ عظيم التراجان على خصمه بعزم وإصرار يزن موقع الضربة القاضية على خصمه، تكون نهايته ونهاية اليوم... قال... وتلقى عظيم كغاشي الضربة بمضاء السيف، ولكن الحد انزلق على الحد في آخر لحظة فلم يفلت من موت محقق إلا بأعجوبة انحبست لها أنفاس القوم هولاً.

وجاء الدور على عظيم التراجان فثبت في مكانه وكرّ عليه عظيم كغاشي كرة جمع فيها كل حزمه وعزمه صائحاً صيحات مدوية، حتى إذا حاذى صاحبه ناور بسيفه كأنه يريد أن يبقر في الصدر، ولكنه نزل بضربة مرقت في الفضاء كاللمح الخاطف، وتجاوز عدوه خفيفاً ثم توقف والتفت فإذا عظيم التراجان لا يزال ثابتاً في مكانه كالجلمود يقول بصوت كأنه واهن من شدة السخرية أن حاد بك الخوف عن هدفك يا جبان... فيرد عظيم كغاشي بنفس اللهجة الواهنة من شدة السخرية: ولكنك مشطور، فتزحزح!

قال... فتحرك عظيم التراجان فإذا به وفرسه ينشطران شطرين إذ كانت الضربة قد مرقت فيها بمضاء وعزم قاصمين!».

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/٨٠٧٩٠٠
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت

الثمن ٢٠ ل.ل